تاريخ بجاية

د. محمد بن عميرة
د. لطيفة بشاري بن عميرة

في ظل مختلف الأنظمة السياسية
من عهد القرطاجيين
إلى عهد الأتراك العثمانيين







تاريخ بجاية

في ظلّ مختلف الأنظمة السياسية،
من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين

جميع الحقوق محفوظة



بالجزائر

الطبعة الأولى

1436هـ -2015م

رقم الايدع القانوني: 2015-1899

ردمك: 978-9947-896-41-9

العنوان :

10 مقسم بنيودال رايس حميدو الجزائر

تيلفكس : 021-70-94-77

النقال : 06-99-43-72-75

البريد الإليكتروني :

dar-elfarouk@*live.fr* / elfaroukedition@*gmail.com*

الأستاذ الدكتور محمد بن عميرة

والأستاذة الدكتورة لطيفة بشاري بن عميرة

تاريخ بجاية

في ظلّ مختلف الأنظمة السياسية، من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار
تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

سبق للمترجم العسكري الفرنسي Laurent–Charles Féraud (1829 – 1988) أنْ أنجز كتاب: «تاريخ بجاية» (Histoire de Bougie) سنة 1869، حاول فيه تغطية جميع مراحل ذلك التاريخ، منذ العهد البونيقي إلى وقته من عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وقد اعتمد في انجازه أساسا، على مقالات نشرها قبل ذلك في المجلة الإفريقية، كما استغلّ الأعمال التي نشرها سابقوه في الموضوع، أمثال Lapène و Daumas و Carette و De la Primaudaie و Cherbonneau و De Mas-Latrie، وعلى بعض المكتشفات الأثرية، إضافة إلى بعض مصادر الفترة الإسلامية التي ركّزت عليها دراسته، كالإدريسي، والقَيرواني، والغُبريني، وعلى أهمّ هؤلاء جميعا: عبد الرحمن بن خلدون، المعاصر للدّولة الحفصية، والذي اقتصر Féraud في الإستفادة منه على ما كان البارون De Slane قد ترجمه، حتى ذلك الوقت، من مقاطع كتابه: «العِبر وديوان المبتدأ والخبر»، ولم يهمل Féraud في علاج موضوعه، ما كان متداولا في وقته من قَصَص شعبيّ، فترجمه كما ورد على لسان أصحابه، وأدمجه فيما كتبه.



وفـي كتابه عـن فترة الاحتلال الإسـباني لبجاية، إلى أن اِسـتولى الأتـراك عليها، اسـتغلّ Féraud أساسـا مخطوط أبي علـي إبراهيم المريني وحاول مقارنة بعض ما جاء فيه بما ورد في كتاب Marmol [1].

ومـا يمكن ملاحظته عمومـا، عن هذا العمل الهـام، أنّ صاحبه لم يطبـق فيه بدقّة المنهـج الوثائقي الـذي تتطلّبه كلّ دراسـة تاريخية، جديرة بهذه التّسمية، ممّا جعله شبيها بعمل صحفيّ جيّد دون أن تكون له أيّة علاقة بالدّراسات الأكاديمية التي تعتمد على دقّة التّوثيق؛ زيادة على ما يترتّب عن ذلك من استنتاجات وتعاليق ومقارنات وغير ذلك...

ويتميّـز تاريخ بجاية في ظلّ مختلف الأنظمة السّياسـية، من عهد القرطاجييـن إلى عهـد الأتـراك العثمانيين، في كونـه بَحثٌ مكتوب باللّغـة العربية، طُبّق في اِنجازه المنهج الوثائقي الخاص بالدّراسـات التاريخيـة الأكاديميـة، كما تمّ فيه اسـتغلال المصدر الرّئيسـي، ابن خلدون، اسـتغلالا مباشرا، أي ليس عن طريق الأجزاء المترجمة منه إلى الفرنسية، وكاملا، أي عدم الاقتصار على مقاطع دون أخرى؛ وإلى جانب ذلك تمّ الاعتماد على مصادر أخرى لم يتسنّ لـ Féraud الإطّلاع عليهـا، وهي هامّة جدّا بالنّسـبة للموضوع، ومنهـا: ابن عذاري وعبد

(1) عـن أهميـة عمل Féraud في تاريخ بجاية وما اعتمـد عليه من مصادر لإنجازه، أنظر:
Laurent-Charles Féraud, Histoire de Bougie, éd. Talantikit, Béjaia, في Djamil Aissani .2013, P. 5sqq



الواحد المراكشيان، وابن أبي زرع الفاسي، وابن الأثير، والنّويري. والزّركشي، وابن أبي دينار، وغيرهم.

كما تمّ استغلال ذلك القَصص الشّعبي الذي أدمجه Féraud في كتابه؛ بترجمته إلى اللّغة العربية، وتحليل بعض مقاطعه والتّعليق عليها كلّما أُتيحت الفرصة لذلك، ونفس الشّيء تمّ القيام به بالنّسبة لمخطوط أبي علي إبراهيم المريني الذي عاصر الاحتلال الإسباني لمدينة بجاية والذي سجّل فيه ما رآه وما سمعه عن ذلك الحدث البارز، ومِن ثمّ فهو يُعتبر إلى جانب عبد الرّحمن بن خلدون الذي عاصر كثيرا من أحداث أواخر الدّولة الحفصية، أهم مصدر في هذا العمل.

وقد استُعين أيضا، في القيام بهذا البحث، بعدّة أعمال مرجعية أكاديمية تطرّق فيها أصحابها إلى بجاية من زوايا مختلفة، لها علاقة بمواضيع أطروحاتهم. أمثال: .Brunshvig R. الذي تناولها في إطار علاقاتها بالدّولة الحفصية في موضوع La Berberie orientale sous les Hafsides, dès origines à la fin du XVe siècle؛ و .Idris Roger Hady الذي جعلها جزءا أساسيا من موضوعه: «La Berberie orientale sous les Zirides au Xeme- XIIes siècle» وعبد الحليم عويس الذي اهتمّ بها في إطار موضوع «دولة بني حماد، صفحة رائعة من تاريخ الجزائر»



و.Marçais G. الذي تعرّض لها في إطار بحثه «Les Arabes en Berberie» و .Golvin L. الـذي اهتـم بها ضمـن مؤلّفـه «Le Maghreb» central à l'époque des Zirides.

وقـد عُولج في هـذا البحث أربعة فصول، تطـرّق أوّلها إلى «تاريخ بجاية، منذ ظهور اسمها إلى استيلاء الموحّدين عليها» وسُلّط الضّوء فيه على: موقعهـا وحدودها الجغرافية، وعلى تضاريسـها ومناخها، وعلـى تاريخها في ظلّ التّوسّـع القرطاجي والحكـم الرّوماني وأثناء الفترتيـن: الونداليـة والبيزنطية، وعلـى الآثار التي بقيـت منها إلى عهد الاحتلال الفرنسـي وتأسـيس مدينة النّاصريـة، أي بجاية، أيام الدّولة الحمادية وعمارتها، ومشـاركتها لمدينة القلعة في القيام بدور العاصمة، إلى أن استولى الموحّدون عليهما.

وتناول ثاني تلك الفصول «تاريـخ بجاية في ظل الدّولة الموحدية» فتعـرّض فـي بدايتـه إلـى «دور بجايَـة السياسـي والعسـكري، أيام الخليفـة عبد المؤمن» فإلى مصيـر واليها الأوّل، أبي عبد الله محمد وولايـة العهد، وإلى أوضاعها في عهد وُلاتهـا: الثاني والثالث والرابع والخامس، وإلى أوضاعها الإدراية عشيّة قيام الدّولة الحفصية.

واهتـمّ الفصـل الثالث :: «تاريـخ بجاية في ظـلّ الدّولة الحفصية» بدءا بظروف قيام هذه الأخيرة، فاسـتيلاؤها على بجاية وتوسيع نطاق



نفوذهـــا، إلى ما كانت عليه في عهد الحماديين؛ ثمّ بوضعيتها الإدارية، منذ وفـــاة واليها الحفصي الأول إلى تعيين الثاني، وهو أبو هلال عِيّاد، ونشاط هذا الأخير فيها فولاية ابنه محمد عليها فنشاطه، هو الآخر بها، ثمّ ولاية أبي فارس بن السّلطان الحفصي، أبي إسحاق، واستقلالها عن الدّولة الحفصية، فتعرُّضها لضغـوط حفصية-مرينية، وإعادة توحيد الدّولة الحفصية تحت سـلطة أميرها، أبي البقاء، وما لعبه بعده واليها الآخر، ابن خلوف من دور في الصراع النّاشب بينه وبين أخيه، أبي يحي أبي بكر، حول السلطنة الحفصية، وما نشب من صراع بين سلطان هذه الأخيرة وبين أمير تلمســان، وتمكُّن ســلطانها، أبي يحــي أبي بكر، من توحيـد الدّولة الحفصية، مرّة أخرى وتعيين ابنه أبي زكرياء، واليا على بجاية، وتخلّص هذا الأخير من وصايته عليه، ثمّ تولية ابنه أبي عبد الله خلفــا له عليها، ونشــوب صراع بين الحفصيين وبنــي عبد الواد حولها آنذاك ثمّ اســتيلاء أبي الحسن المريني عليها، وعلى إفريقية واستعادة أبي عبد الله محمد لولايتها فتنازله عنها لصالح أبي عنّان المريني الذي استعملها قاعدة انطلاق عملياته الحربية على قسنطينة قبل أن يسترد سلطانُها، أبو عبد الله محمد، سيطرته عليها وبعدئذ دخلت تحت نفوذ سلطان قسنطينة، أبي العباس، فولّى عليها، على التوالي، كلاًّ من ابنيه: أبــي عبــد الله وأبي العباس أحمد. وسُــلِّط الضّوء أخيــرا على أوضاع بجاية أيّام الســلطان أبي فارس الحفصي ومحاولة واليها أبي الحســن عليّ الاستقلال بها ثمّ إدارتُها في عهد السلطان عثمان.



أمّا الفصل الرّابع والأخير، فقد خُصّص لبحث: «تاريخ بجاية في ظلّ الغزو الإسباني، أو معركة بجاية»؛ انطلاقا من ظروفها السّياسية عند تعرّضها له، وإلى الحديث عن عملية الغزو نفسه، وعن علاقته بالقرصنة، وعن أهمّية كتاب أبي علي إبراهيم المريني في علاج أحداثه، وخاصة منها جهود السّلطان أبي بكر بن أبي محمد عبد الله في مقاومته، وما شغله عن تلك المقاومة من ثورات داخلية، وما قام به ابن أخيه الأمير موفّق من دور في مساعدته، في مهمّة تلك المقاومة وإجبار الغزاة الإسبان على تقليص مساحتها حتى يَسهُل عليهم الدّفاع عنها، ثمّ كيفية استيلاء الأتراك العثمانيين عليها عام 962هـ/ 1554 - 1555م.

الفصل الأول

تاريخ بجاية منذ ظهور اسمها
إلى استيلاء الموحدين عليها



1 . موقع بجاية وحدودها الجغرافية

تقــع مدينة بجاية علــى الضّفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسّــط، في شــمال شرق المغرب الأوســط، على خط طول 2 درجة و45 دقيقة، شرقا؛ وعلى دائرة عرض 36 درجة و45 دقيقة شمالا[1].

بُنيــت هــذه المدينة على شــكل مــدرّج فوق منحدرات وســفح جبل أمســيون (أومســيون) الشّــاهق[2] (غورايا حاليا). لذلــك كانت تبدو حســب وصف صاحب الاستبصار «معلّقة من جبل قد دخل في البحر يسمّى أمسيول[3]».

---

1) يذهــب ابن ســعيد المغربــي إلى أنّ مدينة بجايــة تقع على «اثنتي وعشــرين درجة، وخمســة عشــر دقيقة»، (أنظــر: كتاب الجغرافيــا، حققه ووضع مقدّمتــه وعلّق عليه إسماعيل العربي، ط. 2، الجزائر، 1982م، ص 142)؛ أو هي على خط طول 5 درجات و44 دقيقة و36 ثانية شــرقا، (أنظــر: Carte topographique de Bejaïa, dessinée et publiée par lInstitut de géographie naturelle, 1965, feuille N° 26, échelle 1/500.000).

2) الــوزان الحســن (بن محمد الفاســي، المعروف بليون الإفريقــي): وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنســية محمد حجي ومحمــد الأخضر، منشــورات الجمعية المغربية للتأليف، والتّرجمة، والنّشر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983م، جـ. 2، ص 50: يبلغ ارتفاعه 680 مترا (أنظر: Féraud, (Laurent- Charles): Histoire de Bougie, Edition Talantikit, Bejaia, 2013, P25).

3) مؤلّف مجهول: كتاب الاســتبصار في عجائب الأمصار، نشــر النّص العربي Alfred De Kremer، ط. فيينة (Vienne)، 1852م، ص 20؛ أنظر الصورة رقم1، ص 367؛ الصورة رقم 2، ص 368.



وقـد أقيمـت في مـكان «صَلداي القديمـة»[1]، بالقرب مـن مصبّ نهر الصّومام، الذي كان يعرف في العصر الوسـيط باسـم الـوادي الكبير[2]، أو وادي السّـاحل[3]. وتشـغل بجاية مساحة على شـكل مثلث، قاعدته البحر. وتُطـلّ على خليـج يمتدّ من رأس كربون إلى رأس بـواك، وبه يوجد ميناؤها الذي يتمتّع بحماية طبيعية، تتمثّل في الكتل الصّخرية العالية التي تمنع عنه الرّياح العاصفة الغربية، والشّـمالية[4]، والجنوبية[5]، بحيث يمكن أن يرسـو به أسـطول بأكمله في أمان. وقـد لاحظ العبدري، في آخر القرن السـابع

---

(1) كانت صانداي ميناء وقرية صغيرة، (ياقوت الحموي أبو عبد الله: معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1957م، جـ. 1، ص 339)؛ أسّسها الفينيقيون، وعرفت باسم «صلدة»، ونزل فيها الرّومان، فعرفت باسم «صلداي»«Saldae»، (أنظر: الوزان الحسن: المصدر السابق، ص 50، هامش 2)؛ أنظر أيضا: الخريطة رقم 1، ص 379. وتطوّرت فأصبحت من أهمّ مدن نوميديا، ثمّ خرّبها الواندال، (أنظرالوزّان: المصدر السابق، ص 50). أو أنّ الواندال اتّخذوها العاصمة الأولى لهم، وهم الذين سمّوها غورايا، (أنظر: Féraud, Op. cit., P. 25, note 1).

(2) أنظر: برنشفيك روبير: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، نقله إلى العربية حمادي السّاحلي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1988م، ص 412.

(3) راجع بعيزيق صالح: بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006، ص 126 وهنا وهناك؛ أنظر الخريطة رقم 2، ص 380.

(4) إدريس هادي روجي: الدّولة الصّنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري، من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1932م، جـ. 2، ص 107؛ برنشفيك روبير، المرجع السابق، الجزء الأول، ص 412.

(5) Féraud, op. cit., P. 28.؛ أنظر الصورة رقم 1، ص 367؛ الخريطة رقم 1، ص 379.



الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أنّها كانت «مدينة كبيرة، حصينة، منيعة، شهيرة، برية، بحرية، سنية، سرية، موضوعَة في أسفل سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما، إشراف الطليعة، متحصّنة بهما منيعة فلا مطمع فيها لمحارب ولا متّسع فيها لطّاعن وضارب[1]» وكان مكان هذه المدينة، إلى غاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عبارة عن مرسى صغير بين مدينتي بونة في الشّرق، وجزائر بني مزغناي في الغرب. وتغير وضعها منذ أن استقرّ به الحماديون[2]، وأسّسوا فيه عاصمة لدولتهم عوض القلعة.

2. تضاريس بجاية

تتميّز أراضي بجاية بالارتفاع، إذْ بُنيت «بين جبال شامخة، أحاطت بها»[3]. وتلتقي في موقعها ثلاث كتل جبلية، هي: جبال جرجرة التي ترتفع إلى الشمال منها، وتنحدر نحو البحر الأبيض المتوسط، وتنتهي بجبل «أمسيون»، وهو جبل «سامي العلو، صعب المرتقى»[4]، «شاهق»[5]،

1 الرّحلة المغربية، تحقيق الأستاذ أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، (د.ت)، ص 23.

2 ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 77.

3 مؤلّف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 20.

4 الإدريسي (أبو عبد الله الشّريف): المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق، حقّقه ونقله إلى الفرنسية محمد الحاج صادق، Office des publications Universitaires, Alger، ص 115.

5 وكتب ياقوت الحموي عن بجاية، «إنّها مدينة على ساحل البحر، بنيت في لحف جبل شاهق، وفي قبلتها جبال»، (معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1957، جـ. 1، ص 339).

وعــر[1]. وتبلــغ أعلى قمّة بها (قمة لالا خديجة) 2328 م؛ وفي شــرقها جبال الرّحمة، وهي تشــرف على البحر أيضا[2]؛ وفي الجنوب الغربي جبــال البابــور، حيث يصل علّوها إلى 2004)، وإلى الشّــرق منها جبال البيبان ويبلغ إرتفاعها 1417م. وهي جزء من سلسلة الأطلس التلي.

وكلّ هــذه الجبــال تعــود إلى عصــر الكريتاســي، ولذلك فهــي كثيرة الإلتــواءات، والأخاديد، والمنحدرات الحادّة. وتتكــوّن من صخور جيرية، وتحتوي على بقايا بركانية. وقد شــكّلت حواجــز أمنية جعلت من المدينة مكانــا حصينا ضدّ من يريد مهاجمتهــا، كما أنّ التقاء هذه الكتل الجبلية في منطقة بجاية، جعل نســبة كبيرة من مســاحتها مثلما لاحظ الحســن الوزان: «كلّها عقبات، بحيث أنّ الماشي لا يستطيع أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل»[3].

وكانــت السّــهول فيها قليلة، ومســاحتها ضيّقة، تأخــذ مكانها بين الكتل الجبلية وفي ســفوحها، وعلى أطراف الواد. ومن أهمّها: ســهل الوادي الكبير أو ســهل وادي السّاحل أو سهل الصّومام[4]. ويبلغ طوله

(1) العبدري، المصدر السابق، ص 23.

(2) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 142.

(3) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، جـ. 2، ص 50؛ أنظر الخريطة رقم 2، ص 380.

(4) العمــري شــهاب الدين: وصــف إفريقية والأندلــس، مقتطف من كتاب مســالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حســن حســني عبد الوهــاب، مطبعة النّهضة، تونس (د. ت)، ص 8؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 116؛ الاستبصار، ص 21.



80 كلـم، وعرضه يصل إلى حوالــي 4كلم. وهو يتوسّــط جبال البيبان وجبال البابور، من جهة الشّــرق، وجبلي أكفادو وأمسيون (غورايا) من جهة الغرب، أي أنّه يقع جنوب غربْ المدينة، ويمتاز بتربة خصبة حتى استحقّ تسمية «بسيط أخضر»[1] دوره نحو عشرة أميال...»[2].

كما أنّ الأراضي التي تحيط بالوادي نفسه، خصبة، تحف به على طول اثنتي عشر ميلا دون انقطاع إلى أن تتّصل بالبحر[3]. وقد وُصفت بالجنات أحيانا، لِمَا كانت تزخر به من نباتات وأشجار مثمرة[4]. ووصف الإدريسي بلادها بأنّها «بلاد زرع وخصب»[5]. وهذا يعني أنّ أراضي المنطقة خصبة، تصلـح للزّراعة. وأضاف أنّ «أمامها (أي بجايــة) في جهة الجنوب أرض سـهلة، متّصلة الانفراج، لا يرى النّاظر فيها جبلا عاليا، ولا شَرَفا مطلاّ، إلاّ على بُعدٍ منها. وعلى مسير أربع مراحل يَرى جبالا لا تبين»[6].

1- البلوي أبو البقاء خالد بن عيسى الأندلسي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق الحسـن السـايح، نشـر صندوق إحياء التّراث الإسلامي المشـترك بين المغرب والإمارات العربية المتّحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1964م، جـ. 1، ص 153.

2- مجهول، ص 21؛ أنظر الخريطة رقم 2، ص 380.

3- أنظر: الخريطة رقم 2، ص 380.

4- أنظـر: العُمري، المصدر السـابق، ص 8؛ أي 20 كلم؛ أنظـر: بعيزيق صالح، المرجع السابق. ص 131.

5- المغارة الإفريقية، وجزيرة الأندلس، مقتبسة من كتاب المشتاق في اختراق الآفاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 162.

6- المغارة الإفريقية، ص 162.



إنّ تعابير الإدريسي هذه غير واضحة، يمكن أن يُفهم منها أنّ الجبال تحيط بالمدينة من الغرب والشّرق والشّمال، فتُكوّن حاجزا بينها وبين المناطق التي توجد خلفها. وهي منفتحة فقط على المناطق الجنوبية، بحيث تبعد المرتفعات عنها من هذه النّاحية، أكثر من أربع مراحل. كما يُستنتج من هذه المعلومات أنّ بجاية تنفتح من ناحية الجنوب على سهل فسيح، لأنّ المرحلة تقدر بأربعين كلم تقريبا، وهذا ما يبرّره قوله: «ولها بَوادٍ ومزارع»[1]. ممّا جَعل Golvin L. يصف سهل بجاية بالواسع (Vaste plaine)[2]، لكن موقع وحدود ومساحة هذا السهل غير واضحة، وقد ذكر Maslatrie أنّ هناك أراضي خصبة حول المدينة دون توضيح[3]. وينفي الوزان خصوبة التّربة، التي كتب عنها الإدريسي، مؤكّدا أنّ: «الأراضي الزّراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا ...»[4]. ويلاحظ، من خلال المقارنة بين النّصّين، أنّ هناك تناقضا واضحا في المعلومات التي تضمنّاها: فبينما يتحدّث الأوّل عن خصوبة التّربة، وصلاحيتها للزّراعة، فإنّ الثّاني ينفي ذلك. ومن الصعب تعليل الخلاف بالفارق الزّمني بين صاحبي النّصين، ويبقى احتمال آخر، هو أنّهما لا يصفان نفس الأرض. وهذا يعني أنّ معلوماتهما أو معلومات أحدهما غير دقيقة.

---

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ص 161.

(2) Le Magrib central à l'époque des Zirides, Arts et Métiers graphiques, Paris, P. 114.

(3) وصف إفريقية، جـ. 2، ص 50.

(4) المصدر السابق، ص 30.



ويتأثّر مناخ بجاية بعوامل عدّة، هي: موقعها المطلّ على البحر الأبيض المتوسّط، وجبالها المرتفعة، والرّياح التّي تتلقّاها.

أمّا البحر فيوفّر لها حرارة معتدلة في فصل الصّيف، ويلطّف من برودتها. وهي تتلقّى في نفس الوقت رياحا شمالية غربية محمّلة بالرّطوبة، وعند وصولها إلى المنطقة تصطدم بالجبال، فيسبّب ذلك تساقط كميات معتبرة من الأمطار الغَزيرَة[1]. تتراوح كمّيتها بين 600 و1000مم في السّنة. وقد تصل في جبال البابور، وسفوحها إلى 1200مم في السنة. وعدد الأيّام المطيرة: 120 يوما في نفس المدّة، غير أنّ هذه الأرقام ليست ثابتة، فقد تزيد أحيانا، وتنقص أخرى. وعلى العموم يمكن تقدير معدّلها السّنوي بين 400 و600 مم، وقد يصل إلى 700 مم[2].

ولعلّ هذا الاختلاف في الأرقام، يدلّ على عدم انتظام التّساقط، وفي بعض الأحيان يكون الفارق كبيرا؛ والأمطار تنزل في فصل الشّتاء، ويسود الجفاف فصل الصّيف الذي، يدوم أحيانا خمسة أشهر، من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، بحيث لا تسقط خلال هذه الفترة الأمطار، وإذا سقطت تكون قليلة وإعصارية[3]، وقد يستمرّ

(1) برنشفيك روبير: المرجع السابق، ص 142؛ .Golvin L.: Op. cit., P. 114.

(2) أنظر: .Despois J.: L'Afrique blanche, T. 1, L'Afrique du Nord, Presses universitaires de France, 1964, P. 16.

(3) أنظر: .Gautier E. F.: L'Afrique blanche, PP. 154-155.

الجفاف بضع سنوات[1]. كما حدث، في بداية القرن السابع الهجري/ الرّابع عشر الميلادي، حيث «أصاب النّاس جفوف عظيم، وقلّت المياه، وجفّ أمسيون، ووصل الزق إلى أربعة دراهم، وكان النّاس يملأون الماء من الوادي الكبير»[2].

تاريخ ميناء بجاية في ظلّ التوسع القرطاجي:

يرى لوسيان غولڤان (Golvin Lucien) أن ميناء بجاية الذي اشتهر في العهد الروماني، عندما كان يسمّى صَلْدَاي (Saldae)، لم يقم الرومان فيه، إلاّ بتجهيز (aménager) محطة تجارية بونيقية (Punique)[3].

وكانت قرطاجة، في عهد ازدهار المستعمرات الفينيقية على سواحل إفريقيا الشمالية، تنشر علاقاتها التجارية نحو شواطئ نوميديا وموريطانيا، فأسست بها مُدُنًا وأنشأت موانئ وقلاعا، شكلت في كل نقاط الساحل الهامة، سلسلة متواصلة، تمتد من سيرت (Syrtes) إلى جبل طارق، وكانت تسمّى قديما (les empories)، أي المحطات

(1) الغبريني (أبو العباس بن أحمد): عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، تحقيق رابح بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص 151؛ المقري التلمساني (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، مج. 2، ص 189.

(2) الغبريني، المصدر السابق، ص 51.

(3) Le Magrib central à l'époque des Zirides, Paris, P. 114؛ عنه أنظر: الخريطة رقم 1، ص 379.



التجاريــة، وهي عبارة عــن مواقع معزولة في ســاحل (Plage) أجنبيّ، لا تتبعه خارج أســواره، سوى أرض صغيرة. ومن المؤكد أن تلك المواقع كانت تُشــترى من أصحابها، في مقابل إيتاوة ســنوية، واســتمر الأمر كذلك مدّة طويلة. وبعدما الْتَمَســتْ قرطاجة، في نفسها، القوة دخلت فــي مواجهات عديدة مع الســكان المحليّين، قصــد التخلّص من فكرة ادعائهم الملكية الحقيقية لتلك الأرض[1].

ويرفــض Féraud فكــرة مَن «ادّعى» أنّ ضرائب بجاية هي نفســها ضرائــب قرطاجة، اعتمــادًا على صــورة المنطقــة (configuration du pays)، بحُجة أن الأبحاث العلمية التي قام بها رجالٌ، معلوماتهم موثوق بها، أمثال السيّدين: Renier Léon و Beulé، اللّذين حدّدا بصفة قطعية موقع كل من (Saldae) وقرطاجة، ولم يبق مكان للشك في هذا الموضوع. إنّ تَرَادُف اسم بجاية مع اسم (Saldae) واضح جدًّا في النقيشة الآتية: Colonia Julia Augusta Col Ivl Avg Saldant saldantium وقد نقلت هذه الكتابة إلى المتحف الجزائري باللّوفر (Louvre) في باريس[2].

وتعــود أقدم إشــارة لمدينة بجاية إلــى القرن الرابع قبــل الميلاد، إذ تشير رحلة المسمّى «ســيلاكس» (Périple du pseudo scylax) إلى مدينة

(1) Féraud (L. Charles): Histoire des villes de la province de Constantine, dans Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 3ème volume de la deuxième série 1869, 13ème vol. de la collection, Alger- Paris 1869, PP. 123.

(2) Féraud (L.Ch.): op.cit., PP. 124-25.



ســاحلية بين Tucca police (سكيدة الحالية) وLoulou police (شرشال الحالية)، وهي Sida police ؛ وممّا لا شك فيه أنها«Silda» أو «Salda» أي بجاية الحالية. وكانت صلداي في عهد الممالك الوطنية تابعة لمملكة الـ Misaessyles، وعاصمتها siga، وقد اســتُعيدت بعد توسُّــعات ماسينيسا (Conquêtes Massinissa)، إثــر الحــروب البونيقيــة الثانية، وربما كانت إحــدى دور الضــرب الثمانيــة التي كانت تســتخدمها أســرة Massyle الحاكمة، إذ برز اسمها على إحدى قطع عُملتها : Aselden= ASLDN [1].

وكانت أرض بجاية، قبل الاحتلال الروماني لشــمال إفريقيا، تابعة إلى نوميدية ماسينيسا الذي كان حليفا للرومان، غير أن ثورة يُوغُرطة ثم هزيمته، فيما بعد، حوّلت روما مَن حليفة إلى مسيطرة (Suzeraine) وتسبّبت في إلحاق نوميديا الغربية بموريتانيا[2].

تاريخ بجاية في ظلّ الحكم الرّوماني:

بعد هزيمة يُوبَا الأول (Juba I) وانتحاره في Thapsus، سنة 46 ق.م.، استولى يوليوس قيصر (Jules César) على أراضيه، ومنها Saldae. وفي ســنة 27 ق.م، أسّس الإمبراطور أُوغُست (Auguste) سبع مستعمرات،

(1) راجــع Hocine Djarmoune : Le librator Nonius Datus et la construction de l'aqueduc de Saldae (Toudja), dans Béjaia, centre de transmission et du savoir; Ministère de la culture, travaux du CNRPAH, nouvelle série N° 4, Alger 2008, P. 35.

(2) Féraud : op. cit., P. 125.



من بينها Saldae التي أطلق عليها اسم Colonia Julia Augusta Salditana Septimana, Legionis imunis. وفي سنة 25 ق.م. ردّ أوغُست إلى يوبا الثاني (Juba II) مملكة والده إضافة إلى مملكة Bocchus[1] تعويضا له عن ولايات أبيه التي استولت عليها الإمبراطورية نهائيا[2]، فصارت القيصرية (Caesariae) عاصمة، و(Saldae) من أهم المستعمرات[3].

وفي سنة 40م. ضمّ الإمبراطور Caligula أرض موريتانيا القيصرية، للمرة الثانية، بعدما قتل Ptolémaeos، وَرِيثَ يُوبَا الثاني، فازدهرت مدينة صلداي بسرعة وزُوّدت بمنشآت كثيرة، ذات منفعة عامة؛ وفي سنة 291م. أسس Dioclitianus موريطانيا ثالثة، عاصمتها Sitifis، وألحق بها مقاطعة Saldae. ويرى بعض الباحثين أنّ المسمى Opos-cupus Salditanus كان يمثل صالداي (Saldae) في مجمع (Concile) قرطاجة سنة 484م؛ مما يدلّ على أنها كانت مقرا لأُسقفية، في ذلك التاريخ على أقل تقدير[4]، في حين يرى البعض الآخر أن الملك Huné-ric جمع في قرطاجة، سنة 484م، الأساقفة الآريّين الكاطوليك لكي يتحاوروا في النقاط التي اختلفت حولها كنيستاهم، وكان Paschasius،

(1) H. Djarmoune: op.cit., P.35.

(2) Féraud: op.cit., P. 124.

(3) Hocine Djarmoune: op.cit., P 35.

(4) Djarmoune: op. cit., P. 36.



أسقف Saldae، الوحيد الذي نجى اسمه من النسيان، هو الذي حضر هذا المجمع (Concile)[1].

ويرفض Féraud صاحب هذا الرأي الأخير الرواية التي انفرد بها Gramaye في كتابه (Africae illustrata)، وتجعل بجاية عاصمة للوندال، والتي نقلها عنه Davity و Dapper و Delacroix وآخرون، بحجة أن Marcus و Yanoski، فيما كتباه عن تاريخ الوندال، لا يشيران إلى هذا الموضوع. ثم إن الوندال كما يضيف، عندما نزلوا بقادس (Gades)، في نهاية شهر مايو تقريبا أو في بداية يونيو 429م.، مرّوا دون أن يتوقفوا في الموريطانيات (الطنجية والسطيفية والقيصرية).

تاريخ بجاية أثناء الفترتين: الوندالية والبيزنطية:

منذ سنة 431 م.، وصل Genséric وذَوُوه أمام أسوار عنابة (Hip-pone)، التي لم يتمكنوا منها إلاّ بعد أربعة عشر شهرا من الحصار، ولم يكن لهم، بدون شك، الوقت الكافي لإنشاء مركز للعمليات أيّ عاصمة في بجاية؛ ووقّعوا في عنابة معاهدة 11 فبراير 435م.، ويرفضFéraud أيضا فكرة افتراض أن يكونوا عادوا إلى بجاية، أرض العدوّ، في حين كانوا يسيطرون على مدينة أنسب (plus commode)، تتحكم في مقاطعة رائعة (admirable)، طرُقُها سهلة إضافة إلى أن

(1) Féraud: op.cit., P. 129.



أســاطيلهم كانت دائما تبحر من عنابة حتى ســيطروا على قرطاجة، وبعد استيلائهم عليها، سنة 439، صارت عاصمتهم الحقيقية[1] .

إن ســكوت المصادر، من نقوش وروايات، لا يسمح بمعرفة أوضاع Saldae، أثناء الفترتين: الوندالية والبيزنطية[2]، ولا يُمكن أيضا التأكد ممّا ذكره عبد الحليم عويس من أن «المكان الذي تقع فيه بجاية (كان) موقعا لمدينة أسســها الفينيقيون تعرف باسم «صلدة» ثم انتقلت إلى الرومانيين وعُرفت باســم Saldaea (صلداي)- ثم خُرِّبت بعد ذلك ولم يُعــرف تاريخ اندثارها. ولكن الشـــيء الثابت أنهــا كانت من أهم مدن «نوميديا» وقد أقام بها الإمبراطور «أوغست جالية رومانية...»[3] .

ومــن الأمور التي يصعب على الباحث التأكد من صحتها، في كلام عويس هذا أنْ تكون تســمية «صلدة» فينيقيــة، وما إذا كانت تعرّضت لتخريــب قوة عســكرية مــا، أم أن اندثارها كان تلقائيا، يعود أساســا إلى خلوّها من الســكان الذين يكونون قد غادروها في ظروف غامضة تاريخيــا؛ كما أنه ليس بالأمر الهيّن التثبّت من أنها كانت من أهم مدن نوميديا، وكلّ ما هنالك أنه بالإمكان افتراض أنها كانت من مدنها، ولا يمكن التأكد من أن الإمبراطور «أوغست» أقام بها جالية رومانية.

(1) Op. Cit., PP. 129-130

(2) أنظر: Djarmoune op. cit., P. 36

(3) دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة 1411هـ/ 1991م، ص 101 - 102.

آثارُ صلداي التي بقيت إلى العهد الفرنسي:

أفـاد (L. Charles) Féraud، حوالـي منتصـف القـرن 19م. أنّـه كان بالإمكان التعرّف على سُـور (l'enceinte) صلـداي (Saldae) القرطاجية أو الرومانية، منذ بضع سنوات، إذ كان موجًّها ضد المفاجآت الأرضية، علـى الخصوص، ولم يتجـاوز محيطـه 3000م؛ كانت تحميـه نقطتان محتلتـان بقوة (fortement occupés) وهـو ما تؤكده خرائبهما، كانتا من جهـة الأرض، وهمـا الموقعان اللّـذان أُطلق عليهما، فيما بعد، موسـى وبريجة. وكان يصل بينهما على ما يبدو سور بسيط، يَفْتقد إلى منشأة دفاعية جيدة، إضافة إلى أنه كان يضمن حدود مرسـى المدينة الحالي (فـي النصف الأول من القرن 19م)، مـن رأس (pointe) عبد القادر إلى القصبة. وكان هذا السور يمتد، بعد ذلك، على طول الصخر الذي يحدّ المدينة جنوبا، إلى موسـى. وهكذا فإن المدينة القديمة كانت مبنية على مَيْل (déclivité) دعامة (contreforts) حائطي: موسى وبريجة، المفصولين بواسطة واد أبزاز، ومن هذا الشكل الطبوغرافي صيغت تسمية Saldae في الجمع، ومفردها Salde [(1)].

ومـن آثـار صلداي الباقية داخـل مدينة بجاية حتـى ذلك الوقت، حسب نفس المؤلف بقايا بناءَات معتبرة، كالمعابد (temple) والمدرّجات (cirques)، وأعمـدة مـن الغرانيـت وتيجـان للأعمـدة (Chapiteaux)

(1) op. cit., PP. 130-131.



وأحجـار نـاذرة وصهاريج واسـعة، وكانـت تُزّودها بالماء عَـيْنُ تُوجَه، الواقعـة على بعد 21 كلم من بجاية. وكانت القنـاة تتّبِع دائما، تقريبا، خـط الطريق المسـمى طريـق القِمـم (Route des crêtes)، وعند الممرّ (Col) الـذي يُطلِق عليه الأهالي (indigènes)، أي الجزائريون تسـمية الحنيّـة (les arceaux)، تظهـر بقايا من صف قناطـر (Arcades) كانت القنـاة الرُّمانية تمرّ فوقها لقطع الممرّ الجبلي (Le col)، فهناك ثمانية عشـر عمـودا (Pilastres)مربعـا، مبنيا بحجارة كبيـرة، لا يقل أكثرها ارتفاعا عن خمسة عشر مترا، ما تزال قائمة(1).

إنّ الوثائـق الأثرية المتوفـرة حول تاريخ بجاية القديم، تُبيّن بوضوح أن هذه المدينة وُجدت منذ العهد الفنيقي، وقد تكون ازدهرت في العهد الروماني، لكنها لا تقدم ما مِنْ شـأنه أن يُسـاعد على معرفة تطوّرها المعمـاري أو العمراني أو السياسـي أو الاقتصادي، قبل عصر الناصر ابن علناس الحمادي، وبالضبط سـنة 460هـ/68 – 1067م، فحتى ذلك

---

(1) Féraud: op. cit., P. 138؛ ويفنّد نفس المؤلف ما ذهبت إليه الرواية المحلية من إسـناد بناء قنوات المياه، وكل الأشغال المائية الخاصة بتزويد مدينة بجاية بالمياه، إلى الأمراء الحماديـن، ويـرى أنـه من المحتمـل أن يكون هؤلاء اسـتعملوا الأشـغال التي نفذها سـابقوهم، وأنهـم أصلحوا ما قـد يكون أتلفه الزمن أو يد البشـر. وقد حسـم هذه المسـألة العثور على نقيشـة بـ Lambèse، نُشرت في Recueil archéologique de Constantine, 1968 وتبيّـن مـن هذه الوثيقة أن إتمام قنـاة Saldae (بجاية) تطلّب حضور حِرَفيّ قديم (Vétéran) من الفرقة الثالثة (3ème légion Auguste) يسمى Nonius Datus من Lambèse للإشراف على تنفيذ مخططه في حفر نفق من جهتي جبل لينقل منه الماء (Ibid, PP.131-132).

الوقت لم تكن بجاية محل اهتمام المصادر التّاريخية، بل لم تقع الإشارة إلى اسمها بتاتا في ثنايا صفحاتها، باستثناء ابن حوقل (ق. 4 هـ/10م.) الذي ذكرها ضمن المراسي الواقعة بين مدينة بونة (عنابة) وبين جزائر بني مزغّناي، وبالضبط بين مرسى جيجل ومرسى بني جناد[1].

تاريخ بجاية في ظل الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب:

يمكن القول: إن Féraud أصاب فيما لاحظه من أن بعض الكتاب الأوربيين ذكروا، اعتمادا على وثائق غير معلومة، أن عقبة (بن نافع) سنة 670م، وبعده موسى بن نصير سنة 700م، استوليا على بجاية، مضيفا أن المؤرخ ابن خلدون و صاحب كتاب فتوح إفريقية (ابن عبد الحكم) لم يشيرا، بصفة خاصة، إلى هذا الحدث، مع ملاحظة أن كليهما كثيرُ الشّح في ذكر تفاصيل المعلومات، لأنهما بعدما تحدثا عن مآثر المسلمين في مقاطعة قسنطينة (الشرق الجزائري) جعلاهم يَصِلُون، بقفزة خارقة، ودون أي انتقال (transition)، إلى سواحل المحيط (الأطلسي)[2].

وحسب أبي الفداء، كما يضيف Féraud، فإن كتلة الجبال المحيطة ببجاية، خلال القرون الأولى من السيطرة (domination) العربية على

(1) أنظر: كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، بريل 1967، ص 75، 76.

(2) op.cit., PP. 137-38.



إفريقية، كانت تسمى العَدَوّة، أي أرض العدوّ، وهو نَعتُ يشبه إلى حدّ ما اسم Monts Ferratus، أي الجبل المصفّح بالحديد (Montagne bardée de fer) الذي أطلقه الرومان على هذه الناحية (Région) المستقلة. إن التاريخ، كما يرى Féraud، لا يسلّط إلاّ ضوءا قليلا جدًّا على مصير بجاية خلال هذه القرون الثلاثة الأولى، وقد يكون مَدّ (Flot) الفتح (L'invasion) العربي توقّفَ عند سفوح الجبال التي تحميها[1]. وإلى حين إثبات عكس هذا الرأي فإنه يبقى مقبولا.

ويتوقع Féraud أن يكون دافع الكُتّاب الأوربيين، المشار إليهم، إلى ما ذهبوا إليه، يعود إلى أن تعبير فتح إفريقية (Conquête de l'Afrique) جعلهم يفترضون أن البلاد بكاملها، دون استثناء، خضعت للمسلمين آنذاك[2].

وهنا تنبغي ملاحظة أنه إذا كان Féraud يعني، بملاحظته هذه، أن العرب آنذاك، لم يسيطروا على كامل إفريقية أي بلاد المغرب، فالأمر يحتاج إلى بعض التوضيحات:

إنّ ما فعله العرب المسلمون هو كسر شوكة كلّ القوى السياسية البارزة في المنطقة، سواء كانت بيزنطية أو بربرية، لكن هذا لا يعني

(1) op.cit., P. 13.

(2) Ibid, P.137, note 1

أن نفوذهـم وصل إلى كل المناطق النائية، سـواء كانت الجبلية منها أو الصحراويـة طالما لم تكن هناك قوى سياسـية بـارزة متمركزة فيها، كما هو شـأن قبيلة جراوة المنتشـرة بجبل أوراس والتي كانت تشـكل قوى سياسـية بزعامة الكاهنة، وعدم وصولهم إلى بجاية وسيطرتهم عليهـا إنما يدلّ على عدم بروز قوى سياسـية مماثلة لقوى جراوة في منطقتها.

تأسيس مدينة النّاصرية، أي بجاية الحالية:

صارت المصادر تتداول اسم بجاية مباشرة بعد موقعة سَبِيبَة، التي دارت رحاها سـنة 457هـ./ 1064م.، بين الناصر بن علناس الحمادي، صاحـب القلعة «ومن معه من رجال المغاربة، من صنهاجة وزناتة، ومِنْ العرب عُديّ والأثبـج»[1] من جهة، وبين تَمِيم بن المعزّ الزيري، صاحب المهدية ومَنْ مَعه من عرب رياح وزُغبة وسُـليم والمُعزّ بن زيري الزناتي، من جهة أخرى. وذلك بسـبب العداء التقليدي الذي استمر قائما بين

(1) النّويري (أحمد بن عبد الوهاب) (ت. 732هـ/1332م): المغرب الإسلامي في العصر الوسـيط، مـن كتاب نهاية الأرب في فنـون الأدب، تحقيق وتعليـق الدكتور مصطفى أبـو ضيـف أحمـد، ط. دار النشـر المغربيـة، الـدار البيضـاء، ص 349؛ Ibn el Athir: Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduites par E. Fagnan, dans Revue africaine, année 1900, N° 237, PP. 184-185.؛ قـارن ابن عـذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س. كولان و إ. ليفي بروفانسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، جـ.1، ص 299.



الطرفين، منذ أن انفصل حمّاد بن بُلكين، جدّ الناصر، عن ابن أخيه باديس بن المنصور، جد تميم[1].

وقد تكبّد الناصر هزيمة نكراء في تلك المعركة، وتقاسم المنتصرون غنائمها «إلاّ الطبول والبوقات والرايات والفازات (خيّم) بأبغالها، فإنهم حملوها إلى تميم، فردّها ولم يقبلها فقال: إنّني لا أرضى أخذ سلب ابن عمي، وظهر عليه من الحزن بقوة العرب ما لم يوصف»[2].

وبعدما بلغت أخبار تصرّف تميم هذا إلى الناصر، أشار عليه وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح أن يتصالح معه، عسى أن يتمكنا من هزيمة الأعراب، فوافق الناصر على الفكرة وطلب منه أن ينفّذها، فأرسل الوزيرَ رسولا إلى تميم يقدّم له الاعتذار ويعرض عليه الصلح فوافق واختار، بمشورة أصحابه، محمد بن البَعْبَع فأرسله بصحبة رسول الناصر، فسارا معا إلى أن وصلا «بجاية، وهي حينئذ منزل ينزله رعية البربر، فنظرها ابن البَعبَع وتأملها وقال في نفسه: هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن...»[3].

ولما وصل إلى الأمير الحمادي أخبره بتلك المرافق، من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة...، يكون فيها دارُ ملك، وتَقرُب من

---

(1) أنظر النويري: المصدر السابق، ص 349 – 350؛ Ibn el Athir : op. cit., P. 185-186 .

(2) نفس المصدر، ص 352؛ قارن Ibn el Athir: op. cit., P.189 .

(3) النويري: المصدر السابق، ص 352؛: Ibn el Athir, op.cit., P. 189 .



جميع بلاد إفريقية... وخرج الناصر... ومعه ابن البعبع إلى بجاية...، فوصلا إليها، ورسم ابن البعبع المدينة والصناعة والميناء وموضع القصر واللؤلؤة، وأمر الناصرُ من ساعته بالبناء والعمل...»[1]. ويبدو أن فكرة ابن البَعبَع جاءت في الوقت المناسب.

ذلك أن الأعراب، بعدما هزموا جيوشه بِسَبيبة، لم يتوقفوا عن مطاردة فُلُولِها إلاّ أمام أسوار القلعة، فحاصروها بعض الوقت وخربوا ضواحيها بأسلوب منظّم؛ ثم راحوا يَنْقضّون على مدن الإمارة الحمادية، ومنها: المسيلة التي كانت سهول حدائقها تمتد على سفوح جبال القلعة وطُبنة، إحدى عواصم الزاب، وينهبون الفنادق والمزارع ويقطعون الأشجار، ويَردمون الآبار، ويُخرّبون مزارع القطن والحبوب، قبل أن يعودوا إلى إفريقية[2]. وهو ما يعني، بكل وضوح، أنه لم يبق ما يشدّ الناصر إلى قلعة جَدّه حمّاد. هذه هي رواية الأحداث التي انبثق عنها تأسيس مدينة بجاية، ويتفق في مضمونها، كما تبيّن، كلّ من ابن الأثير والنويري.

وهناك رواية أخرى أوردها ابن خلدون، مفادها: أن الناصر بن علناس، الذي وصل إلى الحكم سنة 454هـ./1062 - 1063م.، عزّز

---

(1) النّويري: المصدر السابق، ص 352-353؛ Ibn el Athir: op.cit., P. 189.

(2) أنظر G. Marçais: op. cit., PP.137-38؛ (L.) Golvin, Le Marghreb Central à l'époque des Zirides, Paris, P.113.



نفـوذه علـى كل أنحاء الإمارة[1]، ثـم وقعت بين العـرب الهلاليين فِتَن فاسـتنجد به الأثبج ضـد رياح، فلبّى طلبهم وزحـف على رأس جيش مـن صنهاجة وزناتـة إلى الأَربُـس، وخاض مع هؤلاء معركة بسـبيبة فهُزم، بسبب دسيسة زيري بن عطية الزناتي، وإغراءات تميم بن المعز الزيري، ولحق بقسـنطينة ثم بالقلعة مع أقل من مائتين من أصحابه، فبعـث وزيره ابن أبـي الفتوح، فعقد بينه وبينهم صلحـا، ثم وفد عليه رسول تميم وسعى عنده بالوزير بن أبي الفتوح فقتله[2].

والملاحـظ هنـا أن رواية ابن خلدون تختلف عـن رواية كل من ابن الأثيـر والنويـري، في كوْنها لا تشـير إلى دور تميم في رسـم طَكتيك معركة سبيبَة، وبالتالي، في هزيمة الناصر، كُما فعلت الرواية الأولى، ويُسـتنتج منها أن الصلح وقع بين الناصـر وبين رياح، وليس بينه وبين تميـم، مثلما هـو واضح في الروايـة الأولى، ثم إنها لا تشـير إلى ابن البَعْبَع الذي تجعله الأولى وراء فكرة تأسيس مدينة بجاية.

فتأسيس هذه المدينة، حسب ابن خلدون، إذًا، لم يكن بعد تلك المعركة مباشـرة، وإنما كان فيما بعد، وبالضبط سـنة 460هـ./1067 – 1068م. عندما افتتح الناصر «جبل بجاية، وكان له قَبِيلٌ من البربر يسمون بهذا

---

1. أنظـر: ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني 1959، المجلد 6، ص 353 فما بعدها.

2. نفس المصدر، ص 355.



الاسـم... وهذا القبيل من صنهاجة...»[1]: ذلك أن بني هلال سيطروا، بعد معركة سـبيبة، على كامل المغربين: الأدنى والأوسط، بحيث سيطر منهـم بنو رياح على الأول والأثبج على الثاني[2] وفَقَد الناصر، المحاصر فـي عاصمته (القلعة)، السـيطرة على المقاطعات التـي كانت تابعة له، وكان عليه أن يتفاوض باستمرار معهم: إذ أصبحوا معنيين، أكثر فأكثر، بحيـاة القلعة السياسـية، فصارت وضعيّتها مُزعزعة، وصـار كُلُّ تَنَقُّل منها أو إليها شـبيها بحملة عسـكرية خطيرة؛ وفي هذا الوقت الحَرِج، فَهـم الخطـر الكامل علـى عاصمة مسـجونة داخل البلاد، لا سـبيل لتخليصهـا، فحـوّل أنظارهُ، بطبيعـة الحال، نحو السـاحل، مثلما فعل الفاطميون، قبل أكثر من قرن بقليل، عندما أسسوا المهدية، ذلك الميناء الـذي تبيّنت قيمته الكبيرة، بالنسـبة لابن المهدي (عبيـد الله)، عندما حاصره أبو يزيد، وبالنسـبة للزّيريّين الذين اكتسح الأعراب بلادهم[3]؛ فإذا تمّ التسليم بهذه المعطيات سيكون من الصعب موافقة هادي روجي إدريـس في قوله «ومن بـاب الصُّدفة وقع اختيـاره (أي الناصر)، أثناء المفاوضات التي أجراها مع تميـم، على بجاية»[4]، علما أن إدريس هذا

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، 6، ص 357.

(2) أنظـر: إدريـس (هادي روجـي): الدولة الصنهاجية، تاريـخ إفريقية في عهد بني زيـري، من القرن 10 إلـى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي السـاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1992، ج.1، 309.

(3) أنظر: Golvin (L.): op.cit., PP.113-114.

(4) المرجع السابق، ص 315.



يناقض نفسه، في مكان آخر، بقوله: «كانت بجاية تمثّل طريقا هاما، من طرق المواصلات، وتمتاز بمرفأ محمّي على أحسن وجه. وقد لَفَت انتباه الناصر بن حماد، الراغب في الاقتراب من ساحل البحر... ولا شك، أنه قد بنى في آخر منحدرات جبل أمسيون (جبل غورية) مدينة بجاية الجديدة التي سماها الناصريّة، في سنة 457هـ/1064 - 1065م، وذلك لا محالَ، إثر هزيمة سبيبة...»[1] واللاّفت هنا، أن هذا المؤلف وصف بجاية بالجديدة، وهو إقرار منه أن الناصر اختار موقعا آخر قرب بجاية القديمة وبني فيه الناصرية التي صارت، فيما بعد، تسمى بجاية، أي أخذت التسمية القديمة. المهم أنّ لوسيان جولفان (Golvin. L) تَوقّع أن هذا الميناء كان معروفًا خلال القرن الحادي عشر الميلادي، أي قبل تأسيس الناصرية، وكان يشكل منفذا للقلعة على البحر، وإنْ كان الحماديون الأوائل، كما لاحظ، لا يبدو أنهم اهتموا كثيرا بالساحل[2].

مع ملاحظة أن هذين الباحثين، Golvin وIdris أخذا برواية ابن الأثير التي يوافقه فيها النويري، في هذا الموضوع، وحاولا المزج بينها وبين رواية ابن خلدون[3]، دون محاولة المقارنة بينهما واستنتاج ما يبدو لكل منهما صوابا.

1) إدريس المرجع السابق، جـ. 2، ص 107؛ أنظر الصورة رقم 1، ص 367.

2) op.cit., P. 114.

3) أنظر: Ibid, PP.114-115. ؛ إدريس: المرجع السابق، جـ.1، ص 315 فما بعدها.



وممّـا يفيد به Féraud أنه نقل رواية عن مثقفين (lettrés)، من بلاد القبائـل (Kabiles)، تعطـي معنى جديـدا لكلمة العَـدَوَة(el-Adaoua) وتفيد: أنّه «عندمـا فَتَحت (envahi)الجيوش الإسـلامية كلّ المنطقة، الواقعة بين قسـنطينة وسـطيف، فإنّ السّكان المسـيحيّين، من هاتين المدينتين، وسـكان السهول المجاورة، الذين رفضوا الاعتراف بالسلطة الجديدة واعتناق ديانتها، لجأوا إلى الجبال بنواحي بجاية. وقد وحّدت هـؤلاء المهاجرين، ذوي الأصـول المختلفة، محنـةٌ (adversité) واحدة، فانصهروا في شـعب واحد، واحتُرم انسحابهم إلى وسط هذا الركام (Fouillis) مـن الوهـاد والصخـور، لأن هذه الناحية، بالنسـبة للعرب الذين كانت قوّتهم تعتمد على الفروسية، كانت منيعة (inexpugnable)، وعندئـذ أطلق الفاتحون (Conquérants) المسـلمون على هذه الناحية تسـمية العَدَوّة، الأرض العَدَوّة، كما أطلقوا على سـكانها: من أصليين وَرُمـان الذيـن ابتعدوا إلى أهـم مدينة بهـذه الناحية، وهـي Saldae، تسـميّة بَقَايَا (Bekaia) ونجايا (Nedjaia) ، بمعنى البقايا (Survivants) الناجون من السّـيف أو الذين فرّوا، وهـي مصطلحات مترادفة. وقد رُجّح(Prévalut) اسـم بقايا (Bekaia)، والأعراب يُغيّرون بسـهولة نُطق الْـقَ (Ka) بالجا (Gua) الـذي يُكتَبُ جيما (djim)، وهكذا صار اسـم بقايا (Bekaia) بجاية (Bédjaia)[1].

---

(1) Féraud : op.cit., PP. 138-139 .



ومـن الواضح أن Féraud هنا يقرّر أن منطقة بجاية كانت عامرة بهؤلاء البقايـا أو النجايـا، ونِصْفُهم من السـكان الأصليين والنّصـف الآخر من الرومان النصارى. وبناء على ما ذكره ابن خلدون، من استيلاء الناصر على جبل بجاية سـنة 460هـ/ 1067 - 8 م، وتأسيس مدينة، حاول عبثا إغطاءها اسمه، ويعتقد Féraud أن الأمر لا يتعلق بتاتا بـ Saldae القديمة، مما يُفترض أن هـذه المدينة كانت آنذاك قـد خُرّبت أو لم تكن لها أية أهمية[1]. علما أن ابن حوقل الذي أشـار إلى اسـمها في القرن 4 هـ./ 10م؛ ضِمّن المراسـي الواقعة بين بونة، وبين جزائر بني مزغناي، لم يُضف ما من شأنه أن يوضح وضعها الديمغرافي[2]، لكن أبا عبيد البكري (ت.487هـ/1094م.) الذي كتب مُؤَلّفه «المسـالك والممالك» سـنة 460هـ/8 – 1067م[3]، أي في نفس السنة التي فتح فيها الناصرُ بن علناس جبلَ بجاية وأسس مدينتها، حسبما أورد ابـن خلدون، يصف (البَكري) مرسـى مدينة بجاية علـى أنّها أزلية، آهلة، عامرة بأهل الأندلس، بشرقيّها نهر كبير تدخله السفن محمّلة، وهو مرسـى مأمون مشـتى... ومرسـى بجاية هو سـاحل قلعة أبي الطويل، وعلى هذا المرسـى، في تلـك الجبال قبائل كتامه، وهـي شـيعة يُكرِمـون مَن مال إلى مذهبهم ويُبرّون من وافق اعتقادهم...»[4].

---

1) op.cit., P. 143.

2) أنظر: صورة الأرض، ص 75 - 76.

3) (Le Baron) De Slane، في Description de l'Afrique septentrionale, Alger: Abou-Obeid-El- Bekri 1857, P.9.

4) البكري: المصدر السابق، ص 82.



ومـع أن البكـري كان معاصرا للناصر بن علناس وتأسـيس مدينة بجاية إلاّ أنّ المعلومات التي سـجلها عنها كانت، على ما يبدو، سـابقة لفترة ذلك التأسـيس، فهو يتحدث عن بجاية أزلية أي قديمة، عامرة بأهل الأندلس، ومرساها سـاحل قلعة أبي الطويل (قلعة بني حماد)، اعتمادا على معلومات سبق وأن جمعها عن بلاد المغرب، قبل ذلك.

وإذا كان الأمـر كذلـك، ما معنى مـا اتفق عليه كل مـن ابن الأثير والنويري من أنها كانت منزلا ينزله رعية البربر، قبل أن يقترح محمد ابن البَعبَع على الناصر، تأسـيس مدينة ومرسـى بهـا، كما تبين فهل معنى ذلك أن ابن البعبع، في حالة التسليم بصحة هذه الرواية، اقترح عليـه تغيير موقع المدينة القديمة؟ هذا مُمْكن بطبيعة الحال، إذ كثيرا ما كانت تستبدل مواقع مدن قديمة بأخرى تقوم فيها مدن أحدث وهو مـا كان يعنيه ابـن خلدون بقوله: إن الناصر عندمـا افتتح جبل بجاية «اختط المدينة وسـمّاها الناصرية، وتُسـمّى عند الناس باسم القبيلة (بجايـة)...»[1] وهو ما يقصد به، ولا شـك، أن الناصر أسـس مدينة الناصريـة الجديـدة، قرب مدينـة بجاية القديمة، ومع مـرور الوقت اختفى الاسـم المستحدث وبقي الاسم الأصلي، على الرغم من انتقال نشاط القديمة إلى الحديثة.

وفي رأي رُوبَارْبرنشـفيك، أن بجاية منتصف القرن الحادي عشر (م.)، لم تكن، حسـب البكري، سـوى ميناء صغيرا محتشـما، يسكنه

(1) المصدر السابق، المجلد 6، ص 357.



الأندلسيون ولكن في نفس السنة التي انتهى فيها البكري تأليف كتابه، أي سنة 1067 – 1068، شهدت تلك البلدة المغمورة انبعاث حياة جديدة، لأن اختيار موقعها لتأسيس مدينة جديدة سيغيّر مصيرها إلى أمد بعيد، إذ عَوّضت، منذ عهد المنصور بن الناصر وخليفته، نهائيا القلعة كعاصمة لمملكة بني حماد (سنة 1090)، وقد مكّن هذا التراجع، نحو الساحل، بني حماد من البقاء حتى الغزو الموحدي سنة 1152م؛ وستستمر بجاية، فيما بعد، حتى قبيل العصر التركي في الظهور بمظهر المدينة الكبرى، كميناء تجاري وكقاعدة للقراصنة وكمركز ديني وثقافي، مما جعلها تتبوّأ منزلة مرموقة، مَرّات متتالية، باعتبارها عاصمة من بين العواصم المغربية الأخرى، بحيث أنها كانت تمثّل، إلى جانب تلمسان، قُطبا من أقطاب البلاد الجزائرية الحالية، من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين[1].

وتفيد رواية ابن خلدون أن الناصر بعدما اختط الناصرية، بجبل بجاية، بني بها قصر اللّؤلؤة، ونقل إليها الناس، قبل أن ينتقل إليها، هو نفسه، سنة 461هـ[2]/ 1068 – 1069م.، وكان تأسيس بجاية (الحديثة) قرب مصب نهر الصُّومَام المعروف في العصر الوسيط بالوادي الكبير، وهو من أهم طُرق المواصلات في تلك الناحية، وتوجد خلف موقعها

1) تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1988، جـ.1، ص 410.

2) المصدر السابق، المجلد6، ص 357؛ عن موقعه أنظر الخريطة رقم 1، ص 379.

منطقتا القبائل: [الكبرى والصغرى]، ويختفي مرسـاها وراء الرّعن(*) الممتـد من رأس كربـون إلى رأس بُوّاك، وهو محمـيّ جيّدا من الرّياح الغربية والشمالية[1]. والمشكل الذي يبقى مطروحا فعلا هو ذلك الذي يتعلق بهُوية سـكان جبل بجاية، أي بنسبهم، فهل كانوا كُتاميّين شيعة، كما يقول البكري؟ أم أن بجاية كانت قبيلة من بربر صنهاجة، كما يقول ابن خلدون؟ أم أنهم أخلاط من البربر والرمان، لجأوا إلى ذلك الجبل، خوفا من الفاتحين المسلمين، وصاروا يسمّون بقايا أو نجايا، كما تذكر الروايـة التي يقول Féraud إنه نقلها عن مثقّفين ببلاد القبائل؟ إنّه لمن الصّعوبة بمكان حسم هذه المسألة.

عمارة مدينة بجاية

نَقلَ Féraud رواية محلية (tradition locale) أخرى، لم تسـجلها الكتب التاريخية، وقال عنها بأنها ذكريات ما تزال شـائعة جدًّا، في الأوسـاط الشعبية، ومفادها: أن «المولى الناصر (Moula en-Nacer)، هكذا يُسمّى، اختار في الواقـع، بجاية لجعلها عاصمة ولاياتـه (ses Etats)؛ واعتكف آلاف العمـال علـى البناء، وبنوا في عدة أشـهر السّـور العظيم المحيط

(*) أو الشـناخ، وهـو أنـف الجبل الداخـل في البحر (برنشـفيك: المرجع السـابق، ص 412، هامش 1).

(1) برنشفيك: نفس المرجع، ص 411 – 412.



بالمدينة، مدَعّما بحصون»[1] ولاحظ نفس الكاتب أنه استمرّ يرتفع من شاطئ البحر، متدرّجا (en gradin)، وذهب ليختفي في صخور جبال غورية (Gouraia)(*) الوَعرة. وكان امتداده يتبع تعرّج (sinuosité) الخليج الذي كان يغلق (qui fermait) المدينة من جهة البحر كذلك. وفي جنوب غرب بجاية، بين القصبة وبين منتزه أعلاف الفرنسيين، [أيام Féraud [2]] كان يوجد حَيّ يُسمَّى دار الصناعة (darse)، (وهي ترسانة بحرية (arsenal maritime)، وَرَشة بناء البحرية البجاوية). وكان يمتد، من هذه النقطة رصيف (môle) واسع يحيط بأسس (assises) القصبة ويمرّ أمام موقع المدينة الحالية ليصل، أخيرا، إلى مستوى حصن (fort) عبد القادر»[3].

المهم أن انتقال الناصر إلى القلعة سنة 461هـ/1068م، لم يكن نهائيا، إذ استمر، في غالب الأحيان، يسكن القلعة التي احتفظت بدورها كعاصمة[4] وهذا عكس ما تذكره الأسطورة التي أوردها Féraud في مدى ما كرّسه

---

(1) Féraud: Op.cit., PP. 148.؛ أنظر الخريطة رقم 1، ص 379.

(*)حسب Férau فإن اسم غورية قد يكون الوندال، الذين جعلوا بجاية أوّل عاصمة لهم، هم الذين أطلقوه عليها، وتعني قورة في لغتهم الجبل. وحسب الأهالي فإن اسمها مأخوذ من وَليّة (مرابطة) لالّة غورية، التي دُفنت بها، وقد يكون اسمها مأخوذ من القبر (sépulture) (op.cit., P.99, note1).

(2) في الأصل بين القصبة وبين مُنتزه أعلافنا (entre la kasba et notre parc à fourrage) (op.cit., P.148) لأن Féraud كان يكتب لبني قومه الفرنسيين، في منتصف القرن التاسع عشر.

(3) Ibid, PP.148-49؛ عن هذا الحصن أنظر: الخريطة رقم 1، ص 379؛ الصورة رقم 2، ص 367.

(4) أنظر: Golvin: op.cit., P.115.



الناصر من جهد لبنائها، وعلاقته بها، إذ جاء فيها: «أن ذوق الإبداع أصبح عند هذا الحاكم هِوَايةً شَغَلَتْه تماما؛ لم يعُد يفكّر في فتوحات (Conquêtes) جديدة، بل أهمل الإدارة الهامة (l'administration importante) في بقية دولته، مكرّسا كل وقته لمراقبة تنفيذ الأشغال التي صمّمها ونظّمها. وكان، زيادة على ذلك، يُجْبر كلّ رعاياه على بناء المنازل، ولكي لا يَبقى نقص مواد البناء حُجّة لبطء الأشغال، اتخذ قرارا صُمِّم بالطريقة التالية: «على كلّ شخص يريد الدخول إلى المدينة، أن يحمل معه حجرًا؛ ومن لم يَمتثل إلى هذا الأمر سيدفع رسما بنقْد ناصري. (وكان الناصري عبارة عن قطعة نقدية صغيرة من الذهب تضرب في سكة الأمير...).

«هذه الوسيلة نجحت جيّدا، وبفضل دفع هذا الأمير، المَوْهوب والمنظم، بنبوغ جَسُور، لم تتأخر بجاية لتصبح المدينة الأكثر ازدهارًا، في بلاد المغرب (Maghreb) . كان سورها الهائل وأرصفتها، وبناياتها العمومية ومدارسها محل إعجاب الغرباء (Étrangers)؛ وكان العديد من الطلبة يتسارعون من كل الجهات لتعلّم الشريعة (théologie) والرياضيات والفقه (Jurisprudence)، والطب والفلك، على يد أكثر العلماء شهرة في ذلك العصر. وصارت بجاية، في النهاية، مكانا يحج إليه أتقياء المسلمين، حتى أنّها لُقّبت بمكّة الصغيرة.

«وكان السّلطان الناصر يصعد كل مساء في سفينة، متبوعا بأكابر رجال بلاطه وبالعديد من الموسيقيين، فيقصد وسط الخليج، ليتأمل



مـن هناك، تقدّم عملـه الحضاري. وقـد يكون جمال المشـهد، الذي يتجلـى حول بجاية، سـاهم كثيرا في إلهام وتهييـج خيال هذا الحاكم الذكـي. إن الخليـج الذي ترتفع علـى ضفّته المدينة، في شـكل مدرّج يَعْـرِض، في الواقع، شـكل بُحيرة واسـعة، محاطة بِسِـتار من الجبال بجانبياتهـا (profils) المتقلبـة (Capricieux)، لا تتخلـى عنها لغيرها، بفضـل مَقاطعهـا الرائعـة (découpures pittoresques)؛ فـي البداية قمّة الغورية (Gouraia) التي تشـرف على المدينـة؛ وعلى يمينها، قمّة توجـة (Toudja)؛ وفي المقابل، عند اتّباع مقطع السـاحل تأتي رؤوس (les cimes) بوأنـداس (Bou Andas)، وتسـنّنات بني تيزي الصخرية، وجبل تاكُوشـت، وأدرار أمـلّال، وتيزي أوزرزور وتلـة (Croupe) بابور الواسعة، وهي كثيرا ما تكون مُتوّجة بالثلج، بجانب خط قمّة تابابورت (Tababort)؛ وفـي نهاية المطاف، الصـورة الظلية (silhouette) المزرقة (bleuâtre)لمنطقـة جيجيـل. إن صفـاء الجـوّ الإفريقي، الـذي يقرّب المسـافات، على ما يبدو، يمكّن من متابعة أدنى تفاصيل هذا المشـهد الفاتن الذي يتغيّر فيه مفعول مظهر الظل والضوء مع مختلف ساعات النهار. وعند اختفاء الشـمس في الأفق تاركة وراءها سُـحبًا متطايرة من ذهب، تكون كل هذه الجبال مبرقشة (diaprées) بأكثر الألوان جدّة، فتعكس بوضوح هائل على غطاء البحر الشـفاف والمتحرك؛ ثم يُكدَّر (se ternit) هـذا المنظر الفخم، تدريجيا، تحـت تأثير البُخار الرطب، مرورا بالفروق (nuances) الأكثر روعة.

« وكانت بجاية مقرّا لأولياء كثيرين (marabouts) معروفين بزهدهم وبعلمهم، على مستوى العالم الإسلامي. وكان الناس يتسارعون إليهم من أقاصي البِقاع لاستشارتهم. وقد لُوحظ، على رأس هؤلاء، ولِيّ تقي (un saint personnage)، كان يعيش في زهد تام: إنه سيدي تواتي، مؤسس الرباط الذي بقي، مدة طويلة، محلّ إجلال كبير.... وقد تمكّن السلطان الناصر من إخراجه، من تأملاته، ذات يوم، فأخذه معه في جولته وسط الخليج.

«فقال له: تَأمّل تطوّر مشروعي وروعة لمعان عاصمتنا اليوم، والتي يرتفع، من داخلها، بِعَظمة مآذن عدد غير محدّد من المساجد. أليست بجاية أجمل مدن العالم، أَوَ لا تستحقّ أن تُسمّى مكة الصغيرة ؟».

«لم يتحمّس سيدي تواتي قط، أمام هذه الصورة الرائعة، بل وجّه، عكس ذلك، عتابا شديدا للسلطان، ووبّخ طموحهُ وهوايته العمياء للبذخ، وهَوَس (manie) الإبداعات. وأجابه: «أنسيتَ عدم استقرار أمور الإنسان، اِعلم إذاً، أنّ البناءات التي تتشبث برفعها، بتكاليف كبيرة ستتهدم، وتتحوّل إلى غُبار وأَنّ الشهرة التي تنوي تأسيسها على طول مدّتها ستنهار، مثلها، مع الوقت!».

«كان الأمير يبدو أَصمّا لكل نصيحة.

« عندئذ لجأ الولي (le saint marabout) إلى القُدرة الإلهية، حتى يُقنع سيّدهُ (son maitre) بحجة خارقة لِمَا يتنبأ به. وبفضل إلْهام ربّاني،



وما وُهِب به من إنارة مفاجئة، خَلع بُرنُســه، وبســطه أمام الســلطان، وهكذا أخفى عليه منظر بجاية. ومن خلال هذا السّتار المرتجل الذي صار شــفّافا، رأى الناصر مدينة، لكنها لــم تكن مدينته، كانت الأرض منثورة بالخرائب في كل الجهات، واختفت المساجد والقصور والمباني الخلابــة؛ وباختصــار، يُضيــف القصّــاص (légendaire)، رأى بجاية العصر الحديث، خَرِبة وغير مأهولة تقريبا[1]».

وهنــا يتدخل Féraud معلقا: «لقد تحقّقتْ نبــوءة الولي. ومن المُمكن أن يقــال: ألم يتخيّلها، بعد فوات الأوان، معلّــمٌ للقرآن (un taleb) مَاكر؛ لكن أين هي، في الواقع، هذه القصور المغطاة بالرخام والطلاء الخزفي العائدة إلى عظمة الأمراء الحماديين؟ ما مصير المساجد العديدة، ذات المآذن الرفيعة التي يُنادي المؤذن، من أعلاها، المؤمنين إلى الصلاة، وكان يقذف اســم الله والرســول إلى أقطار العالم الأربعة؟ اختفى كل شيء. يتــم البحث عبثا، عن آثارها وســط أرض وَعْرة، مُغطّاة بِحُطام تغزوها الأشــواك، وبعض الأســوار المتزعزعة شــاهدة على هجومات فضيعة، ودفاعــات بطولية، وبعــض الرّبوات المرتفعة التي تبيّــن مكان البناءات المختفية، تدلّ وحدها على فخامة المدينة القديمة[2]، وبعد إشارة Féraud إلى موت الناصر، ســنة 481هـ/9 – 1088م، حســب روايــة ابن خلدون،

1. Féraud: op.cit., P.94 sqq.

2. Féraud: op.cit., P.97.



وَاصَل عَرْض أسطورة سيدي تواتي، فأضاف أنه «بعدما أظهر له الولي، بجاية العصر الحديث، بمعنى خربة وغير مسكونة تقريبا، بقي متأثرا بشدّة وكأنّه أصيب بخلل عقلي. فتنازل عن الحُكم لصالح ابنه المنصور، متخليا عن الأمجاد، وبعد وقت قصير، اختفى ليلا. واستمرت الأبحاث الأكثر دِقّة، مدّة أربع سنوات لاكتشاف خُلْوَته. وفي النهاية وصل زَوْرق للصيادين، ذات يوم، بالصُّدفة، إلى جزيرة جَرِيبِّية الصغيرة(*) (L'ilot de djeribia). فوَجد البحارة البجائيّون، على هذا الصخر، ناسكا عَاريا تقريبا، ومُصغّر إلى حالة مُدهشة من الهُزال؛ كان ذاك هو السلطان المولى الناصر. كيف عاش أربع سنوات، وَحيدا، على هذه الصخرة القاحلة؟ هذا ما تفسّره الأسطورة، مضيفة، أن السلطان كلّما أدخل يده في البحر، عَلِقت بكل واحد من أصابعه سمكة.

« لم يتأخّر السّماعُ بخبر هذا الاكتشاف في بجاية، فهب المنصور وكلّ أكابر دولته بسرعة كبيرة، في موكب، إلى جزيرة جريبِّية لإحضار السلطان الهارب. وصمّم الناصر على موقفه، وأصر على البقاء في عزلته ومات أخيرا فوق صخرته.

« وتدعي رواية أخرى أن كلمات سيدي التواتي وحدها هي التي جعلت الناصر يُقرّر الدخول إلى العالم، ويعيش طويلا، بعد ذلك، من

(*) يسميها العرب جريبية، ويسميها الفرنسيون جزيرة البيزيين (L'ilot des Pisans). تقع قرب الساحل، شمال غورية (Féraud: op.cit., P.154, note 1).



أجل المجد والإسلام. تاركا مقاليد الحكم دائما بين يدي ابنه المنصور. وقد يكون ذهب من بجاية مع جيش كثيف، ويكون قد وصل إسبانيا، وكانت آنذاك مسرحا للصراعات الكبيرة، بين الأندلسيين والمسيحيّين. وقد تكون هذه الفرقة (contingent) ساهمت كثيرا في فتح(conquête) الأندلس. وتميّز المولى الناصر بمآثر كثيرة، بِسَيْره في سبيل الله، وقد يكون، في النهاية، قدَّم أَمْثلةً جديدة من مهارته التنظيمية»[1].

ويقول Féraud إنّه «ترجم هذه الأسطورة بأمانة، حسبما أوردتها الرواية المحلية، لكن المقطع الأخير يتضمن خطأ تتوجّب الإشارة إليه: فالناصر، مؤسس بجاية، لم يذهب أبدًا إلى الأندلس، إذ وقع خلط بينه وبين الناصر الموحدي، الذي وصل، في الواقع، إلى إشبيلية، سنة1211 تَقريبا[2].

وتولى الأمر، بعد الناصر بن علناس، ابنُه المنصور فانتقل إلى بجاية سنة 483هـ/ - 1090م بعساكره، واتخذها معقلا، وصيرها دار المُلك: ذلك أنّ الأعراب كانوا يعيثون فسادا في نواحي القلعة ويختطفون الناس من حولها، ولما اقتنع أن الذي شجعهم على ذلك هو سهولة السير في طُرقها على رواحلهم، اختار الرحيل إلى بجاية، لأنّ صُعوبة مَسالكها وأوعارها ستحول بينها وبينهم[3]. وحسب ابن خلدون، فإنه

1 Féraud: Op.cit., PP. 154-155 .

2 Ibid, P.155 .

3 ابن خلدون: المصدر السابق، 6، 358-357؛ Féraud : op.cit., PP.155-6 .



بعدما استقر بها جدّد قصورها، وشيّد جامعها، وكان... مولعا بالبناء، وهو الذي حضّر مُلْك بني حماد، وتأنّق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع، واتخاذ القصور، وأَجرى المياه في الرياض والبساتين. فبنى في... بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون»[1].

فكلام ابن خلدون هذا يحتاج إلى بعض التعديل، فقوله «جدّد قصورها» لا يبدو دقيقا، فهو نفسه لا يذكر سوى قصرا واحدا، بناه والده الناصر، هو قصر اللؤلؤة، وبالتالي كان عليه أن يقول وجدّد قصرها، أو قصر اللؤلؤة، اللهم إلاّ إذا كان يعني قصور القلعة أو قصور الإمارة، وكلامه لا يفهم بهذا المعنى.

كما أنّ قوله: وبنى المنصور في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون غيرُ دقيق هو الآخر، لأن قصر اللّؤلؤة، كما تبيّن، من إنجاز والده الناصر. فممّا لا شك فيه أن ابن خلدون كان يعني قصر أميمون وقصر الكوكب، والمهم أن بجاية كانت تَضُم، في عهد هذا الأمير، ثلاثة قصور، هي: قصر اللؤلؤة، الواقع في ناحيتها الشرقية، وقصر الكوكب، الواقع في ناحيتها الغربية، وقصر أميمون، الواقع في الناحية الشمالية، ويشرف عليه منار[2]، وكانت تلك القصور تشبه في هندستها قصور

(1) ابن خلدون: العبر، 6، 358.

(2) أنظر إدريس: المرجع السابق، جـ.2، ص 108 – 109؛ عن مواقع هذه القصور، أنظر: الخريطة رقم 1، ص 379.



القلعة ولها نوافذ مطلة على البحر، ومُزيّنة بمُشبّكات معدنية، أبوابها مُخرّمة ومزوّقة، وقاعاتها ذات مقاطع، وأطراف مكسوة بالمرمر المنقوش والمطلي بالذهب واللاّزورد، ونقائش ورسوم زيتية حائطية[1].

ويحدّد برنشفيك موقع قصر اللّؤلؤة في الناحية الشرقية من المدينة، فوق قمّة بريجة العليا وكانت له، أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، نوافذ مُشبّكة وأبواب مزخرفة، وكانت لقاعاته جدران مكسوة بالمرمر المُذهّب، وله نقوش ورسوم زيتية حائطية، وحافظ عليه الإسبان، عندما احتلوا بجاية، دون غيره، واكتفوا بتهديم البرج الذي كان يعلوه، واستُعمل، في أواخر القرن السادس عشر مقرًّا للحكومة التركية؛ وموقع قصر الكوكب في الناحية الغربية وبالضبط في المكان الذي بُني فيه، فيما بعد، البرج الإمبريالي الإسباني، الذي صار يُسّمى برج موسى، وقد كان مقرا لسلطان تونس الحفصي المخلوع سنة 1283م.، أمّا موقع قصر أَميمون ففي الناحية الشمالية، ولم يَحتفظ بتسميته في العهد الحفْصي، وقد يكون ذلك «البرج الصغير المحاط بسور، والمزخرف في كل مكان بالفسيفساء والخشب المنقوش» والذي شاهده الحسن الوزان من جانب الجبل[2].

---

(1) حريص، المرجع السابق، ص 109؛ أنظر: الصورة رقم 3، ص 369.

(2) برنشفيك روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، جـ.1، ص ...: عن مواقع بعض تلك القصور، أنظر: الخريطة رقم 2، ص 380.



وقد هيأ الحماديون، أيضا، ريّاضين بديعتين متقابلين، على ضفتي نهر الصومام، وقام الوالي الموحدي أبو الربيع، حفيد عبد المؤمن، بترميمهما، وهما: القصر البديع، في الجهة الغربية، وقد نُهبَ سنة 1302م.، بأمر من الأمير المريني الذي غضب لعدم تمكّنه من الاستيلاء على بجاية؛ والقصر الرَّفيع، في النّاحية الشرقية، وهو عبارة روضة غنّاء، مُلاَصِقة للسور الغربي من المدينة، في أسفل قصر الكوكب والقصبة، وأقام فيه السلطان أبو إسحاق سنة 1283م.، وقد لفت القصران نظر الرحالة الأندلسي، خالد البلوي، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وبقي القصر الرفيع محفوظا، على أحسن وجه، في بداية القرن السادس عشر[1].

ويفيد Féraud أنّ أحد البجاويّين أطلعه «على مُلخّص (notice) باللّغة العربية، مقتبس، على ما يبدو، من كتب تاريخية محلية قديمة. توجد فيه معلومات أخرى عن الأعمال المنجزة أثناء حكم المنصور. ورد فيه «أن هذا الأمير الذي كانت له صَداقة مع ملك بلاد الروم (البابا)، طلب منه تزويده بمهندسين معماريين (architecte) وعمالا لمواصلة تَزْيين عاصمته. وقد أرسل له البابا ألفًا ومائة حرفي، خبراء في مختلف صناعاتهم.

«فأقام هؤلاء العمال، في الجهة المقابلة للغرب والجنوب من المدينة، بُرجا (une tour) عظيما أُطلقت عليه تسمية شوف الرّياض

(1) أنظر برنشفيك: نفس المرجع، ص 416.



(L'observation des jardins)؛ كان هذا البُرج يحمي ثلاثة أبواب، أهمها: باب البنود(Porte des armée) ، وكانت ضخمة، مرصّعة بصفائح حديدية كبيرة ومحاطة بِحِصْنَين بارزين (deux bastions)، كانت تفتح من جهة البساتين(Jardins) والواد الكبير[1]. وفي قمّة هذا البرج كان يُوجد جهاز للمرايا شبيه بأجهزة أخرى، موضوعة في مختلف الاتجاهات، كان يمكن الاتصال بواسطتها، سريعا، من مكان إلى آخر، بين كلّ مُدن الدّولة (empire)، مثل قسنطينة وتونس والقلعة، وكانت تُصدِر، أثناء الليل، إشارات بِنيران(feux) مُعَدّة بطريقة مُتّفق عليها، ولهذا كان بُرجُ شُوف الرياض يسمّى أيضا المنارة(*) (La tour des feux).

وقد بنى الأمير قصر أميمون، وقصر النجوم، وأكمل قصر اللّؤلؤة الذي بدأه أبوه. وأثناء إنجاز العمال لهذه الأشغال المختلفة عَثروا، في خرائب إحدى الكنائس المسيحية القديمة، على عمودين (deux colonnes) أُحاديي الحجر (monolithes)، من حجارة ناذره جدًّا، ومن المؤكد أن البابا عندما علم بخبرهما اقترح شراءهما بمبلغ كبير، لكن المنصور رفض العرض، مفضلا استعمالهما في زخرفة قصر اللؤلؤة. وقد أكّد كل الذين رؤوا هذين العمودين أنهم لم يروا مثلهما في أيّة جهة من العالم.

1 يلاحظ Féraud أن هذا الباب مازال موجودًا باسم الفُوقَة (el- Fouka)، وهو مجهّزٌ من اليسار واليمين، ببُرجين صغيرين، وظيفتهما حماية المنافذ (op.cit., P. 157, note 1)؛ عن هذا الباب، أنظر: الصورة رقم 4، ص 370؛ الصورة رقم 5، ص 371.

(*) أنظر الخريطة رقم 1، ص 378؛ الصورة رقم 6، ص 372.



وكان الجامع (La grande mosquée royale) ، الواقع قرب قصر اللؤلؤة من أكثـر الصُّروح (monuments) إلفاتا للنظر، يبلغ علوّ مئذنته ستون ذراعـا، وعرض قاعتها عشـرون، وكان دخوله من بـاب كبير تُحيط به صفائح من الرّخام مكسـوّة (revêtus) بكتابات منقوشـة بطريقة فنية. ويشـدّ قلبَـه (Vaisseau)، ذا المائتين والعشـرين ذراعا طـولا، في مائة وخمسـين ذراعا عرضا، اِثنا وثلاثون عمودا من الرّخام. وكانت واجهته مزيّنة بسـبعة عشر رواقا (portiques)، وكانت تعلوها قبة ضخمة. وكان الداخـل مبلط كُليّة بالرّخام. وحول الأسـوار الجانبية المغطاة بالخزف المزخـرف، كان يمتـدّ (couraient) حبـلان صغيـران (cordons) كُتبت عليهما آيات قرآنية، ليس له مثيل في مكان آخر.

«وكان للجامـع، زيـادة على ذلك، إثنتان وعشـرون بوابة صغيرة، منها واحـدة خاصة، تفتح على النطاق الخاص بالنسـاء، تحت حراسـة أحد الشيوخ.

ويضيف Féraud «أنه عند تصوّر ثـلاث خواصر جبلية (Contreforts) متوازية تقريبا، منحدرة من نفس السلسـلة، يَفصل الواحدة عن الأخرى مضيقان (deux gorges) يصبّان في البحر. وعند إلصاق سُورين مرتفعين مبنيين بالآجـرُ، ومدعمين بأبـراج صغيـرة (tourelles)، تخترقها كُوات رمـيٍّ (meurtrières) وتعلوهـا قُبيبـات (clocheton)، طبقـا لاحتياجات وعَـادَات القـرون الوسـطى العسـكرية، وعنـد إلصاقهما علـى قمتي



الخاصرتين(Contreforts) القاصيتين؛ وعند تغطية المساحة المحصورة بين هذين السورين بعشرين ألف مسكن صغير، من طابق واحد، يعلو في شكل تعريشات (espaliers) على منحدرات (pentes) الجبل ومزخَرفة بممرّ(Galerie) مُغطى، يمتدّ منه النظر على البحر؛ وعند إدراج مجموعة من البساتين، داخل هذه الكتلة (massif)، تغلب عليها أشجار البرتقال والرمّان والكروم، المكوّرة في أشكال نصف أسطوانية؛ وعند توزيع حوالي خمسين مسجدًا، على هذه الخلفية، بقببها ومآذنها البيضاء، عندئذ يمكن تكوين فكرة عمّا كانت عليه بجاية، عاصمة الحماديين»[1].

وكانت بجاية مبنية على عدة مستويات، مُتسلّقة من جانبي وهد(*) عميق المرتفعات الأخيرة من جبل غورية الذي كان يُسمّى آنذاك أمسيون، وكانت غزارة الأمطار تساعد على نموّ نباتات متنوعة في ضواحيها، كما كانت مزارع وبساتين الحقول المتتابعة بدون انقطاع، في وادي الصومام الأسفل، تُزوّد بمنتوجاتها سوق المدينة بما تحتاجه من حبوب وفواكه[2].

وفي اعتقاد روبار برنشفيك، فإن عاصمة بني حماد، كانت «تغطى مساحة أكبر، بشكل ملموس، من مساحة مدينة بجاية الحالية»[3] أي

---

1) Op.cit., PP.13-14.

(*) الوهد هو الأرض المنخفضة (برنشفيك: المرجع السابق، ص 412، هامش1).

2) أنظر: برنشفيك: المرجع السابق، ص 412.

3) المرجع السابق، ص 412.



في الأربعنيات من القرن العشـرين[1] بدليل آثار السـور القديم الذي يصعد، في اتجاه الشـمال إلى أن يصـل إلى هضبة الأطلال[2] ويتوقع برنشـفيك أن يكون هذا السـور مقتبسا من سـور المهدية، وأن بجاية نفسـها قد تكون أسست لمنافسـة عاصمة بني زيري، أي المهدية، كما وُجد بعد ذلك بقليل، سور مثيل له في مدينة سَلاَ المرينية[3].

ويضيف نفـس المؤلف، في مكان آخر، أن عدم وجود سـور دفاعي فـوق باب اللّوز في العهد الموحّدي، سـهّل على بنـي غانية المَيُورقيين الاسـتيلاء على القلعة، ثم على المدينـة، وأن المصادر أكّدت بعد ذلك، ببضع سـنوات، لياقتها: ففي سـنة 659هـ/ 1261م. أمـر القاضي ابن الغَمّاز بترميم السّور كلّه، وأضاف إليه خندقا، وبعد ثلاثين سنة لاحظ العبدري أن المدينة محمية على أكمل وجه. وفي منتصف القرن الثامن (14م.) جدّد أبو الحسن المريني تحصيناتها[4].

وممّـا أضافه Féraud مـن الملخّص الذي أفاده بـه أحد البجائيين، كما سـلف، أنّه «في السـنة الثامنة من حكمه، بنى السـلطان المنصور

(1) أنظر: نفس المرجع، ص 5.

(2) نفس المرجع، ص 379.

(3) أنظر: المرجع السـابق، ص 412 – 413؛ عن سـور بجاية الحمادي أنظر: الخريطة رقم 1، ص 447.

(4) نفس المرجع، ص 413.



سورا كبيرا يحيط بالبستان (Jardin) المسمى الرَّفاء (Er-Rafâ)، الواقع أسفل قصر الكوكب (le chateau de l'Etoile)، حتى يحجب الأنظار المنحرفة عن نساء الحريم اللاّئي يقصدنه للتّرفيه عن النفس وكان ذلك البستان يُسقى بمياه المواجل الواسعة التي تتزوّد من مياه جبل الزّان عن طريق القنوات(*).

و«كان بستان الرفاء مغطّى بالأشجار، من كل الأنواع: نخيل، رمان، عُنّاب، برتقال وغيرها، وهي ذات فواكه عُصاريّة؛ وكانت تظهر أيضا شُجيرات الأزهار، مثل العنبر والورد والياسمين(**).

«وكان السلطان المنصور تعوّد الجلوس فوق سطح باب البنود، حيث كان نظرهُ يمتد إلى البساتين، ويلاحظ، فوق ذلك، كل الذين يدّخلون المدينة أو يغادرونها.

«وكانت بناءات بجاية تتفوّق على كل التي سبقتها في المدن الأخرى؛ ولمّا صارت عاصمة للدولة الحمادية قصدها سكان كثيرون، من كل الجهات، واستقروا فيها. وإذا كانت مدينة بجاية الأجمل في العالم، بسبب قصورها العديدة وبناءاتها العجيبة، فإن العلم الذي يتمتع به

(*)حسب Féraud فإن المياه التي تحملها القنوات إلى بجاية، كانت تأتي من جبل توجة، وليس من جبل الزان، الذي يبعد بضعف المسافة (op.cit., P.158, note 1).

(**) تدّعي الرواية المحلية أن خمسة شوارع كبيرة، تحدّها نباتات النخيل التي جلبها الأمير من واحات الزاب، كانت تخترق المدينة (Op.cit., P.150, note 1 : Féraud).



مثقفوها (ses gens de lettres) ليس أقل شهرة، فقد أجاب أحد علماء بجاية، عند مروره ببغداد، مَنْ سألوه عن موطنه (sa patrie)، قائلا:

«إن بغداد والقاهرة وكل مدن المشرق، هي اليوم فاترة؛

«لا توجد منها واحدة تشبه اليوم الناصرية؛

«والتي تتمتع، مثلها، في آن واحد، بلذّة البحر والأرض ومياه العيون الكثيرة.

«يشبه نهرها، بتموّجه، ثعبانا من الفِضّة.

«من يعيش فيها يكون سعيدا.

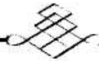
«إذا نَظَرْتَ ريفها (Sa campagne) رأيته مزخرفا بالإخضرار، بالورود وبالفواكه.

«إذا تأملت (si tu considère) البحر، فإن منظر الأمواج، التي يدفع بعضها البعض لتَغمُرها، يَسْحَرُك.

«يا من طلبتم وصف هذه المدينة تَمنّوا أن يُثَبِّت الله فيها إقامة عائلاتكم وأبنائكم»[1].

ويُلاَحَظ هنا أنّ Féraud الذي ترجم نص هذه الوثيقة من العربية إلى الفرنسية، لم يقدّم نصها الأصلي، أي العربي ومن هنا جاءت فكرة

(1) Féraud: Op.cit., P.156 Sqq.



ترجمتها إلى لغة الضاد حتى يتمكن الناطقون بها من الإطلاع عليها، لأنها تتضمن معلومات غير واردة في المصادر العربية.

واللاّفت أنّ Féraud لم يحاول التعليق عليها لكن الحماديين في عهد الناصر والمنصور لم يكونوا، على ما يبدو، في حاجة لمساعدة أجنبية لتشييد منشآتهم المدنية والدينية: ذلك أن عاصمتهم الأولى كانت استقبلت عددا كبيرا من الهاربين، من مدن إفريقية، بسبب مضايقات الأعراب لهم، وكان من بينهم حِرَفيّون وعلماء، لم يُقصّروا في إعطاء سمعة كبيرة ومشرّفة للعاصمة الحمادية الأولى[1]، أي القلعة، ولا شك أن الكثير من هؤلاء انتقلوا إلى بجاية، بعد تأسيس الناصرية، وخاصة في عهد المنصور، ولعبوا نفس الدور، ولاشك أيضا، أن لجوء الناس، من الفئتين المذكورتين، تواصل بعد تأسيس الناصرية، من مختلف مدن إفريقية، وأن دورهم في تشييد منشآتها لم يكن أقل من دورهم في تشييد منشآت القلعة، ويعزّز هذه الأطروحة ما لاحظه بعضُ المؤلفين من كتابة في نمط بناء قصورها[2].

إضافة إلى ذلك فإن عدد الأندلسيين الذين كانوا متواجدين هناك، قبل الشروع في عملية التأسيس، لابد وأن يكون قد تزايد بعده، ولابد أيضا أن يكون هؤلاء، قد تركوا بدورهم بَصمَاتهم في عمران المدينة.

1) أنظر : .Op.cit, P 119: Golvin.

2) Op.cit., T.2 P.109 :Idris



وقد حاول هادي روجي إدريس وصف قصور بجاية، والمنتزَهَيْن اللّذين يمتدان على ضفة الواد الكبير، ويسمى أحدهما البديع، ويقع على الضفة الغربية، ويسمى الآخر الرفيع، ويقع على الضفة الشرقية. وبعدما أشار نفس المؤلف إلى الخزانات التي كانت تزوّد المدينة بالماء، راح يشير إلى اندثار الجامع الأعظم، وإلى تأسيس القصبة في العصر الموحدي[1].

ويرى برنشفيك أن حكام بجاية الأوائل، أمراء القلعة المتعوّدين على الحياة فوق المرتفعات، كان يروق لهم تأمّل المناظر الطبيعية عن بُعد، ولو كانت بَحْرية، ولم يجرؤوا على الإقتراب من البحر، ولذلك فهو يُرجّح أن يكون الموحدون هم الذين شيّدوا القصبة، في الزاوية الجنوبية الغربية من بجاية، على رَبْوة قليلة الارتفاع، سبق تحصينها في العهد الرماني، وكان من عادة الموحدين إقامة قلاع حكومية ملاصقة للمدن، وكانت لتلك القلاع مَرافقُها المستقلة: فقد كان للقصبة جامع خطبة خاص بها (جامع القصبة)، كما كان للمدينة جامعها (الجامع الأعظم)، واندثر الإثنان[2].

وقد اختار هـ. ر. إدريس الاقتصار على المعلومات التي بدت له معاصرة لعهد بني حماد، لعدم وجود طبوغرافية بجاية، إلاّ في بعض

(1) أنظر: المرجع السابق، جـ.2، ص 109.

(2) أنظر: المرجع السابق، جـ.1، ص 414.



الروايات التي يعود تاريخها إلى ما بعد العصر الصنهاجي، وبناءً على ذلك، راح يحاول تحديد بعض معالمها، بدءًا بأبوابها، فحدّد موقع باب البحر في الناحية الجنوبية من بجاية، وسط الواجهة البحرية، في مصرف الجسر، وهو ذو أقواس قوطية، وعن طريقه كان يُسمح للسفن بالدخول إلى مدرج داخلي يشبه مدرج البحرية(*)، وأن باب المرسى وباب أمسيون وباب تاطنت، الذي عرفه كلّ من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، هذه الأبواب الثلاثة تقع في ناحيتها الشرقية؛ وأمّا باب اللّوز، الذي دخل منه عليّ بن غانية، القادم من جبل الخليفة، فيقع جهة الغرب تقريبا، ويتردّد إدريس في نسبة كل من باب البنود، الواقع في الناحية الشمالية الغربية، وباب باطنة والباب الجديد إلى العهد الحمادي[1]. ومع ذلك فهو يذكر باب البنود، ضمن الأبواب التي حدَّدَ مقابر الفترة الحمادية خارجها، وهي باب أمسيون وباب المرسى[2].

وقد حاول برنشفيك تحديد مواقع بعض أبواب سورها، فاعترف أنه لم يتمكن من تحديد موقع باب تاطنت الذي عرفه كل من ابن تومرت

(*) أنظر: الصورة رقم 7، ص 373؛ الصورة رقم 8، ص 374.

(1) أنظر: المرجع السابق، ص 109 – 110؛ عن مواقع بعض هذه الأبواب، أنظر الخريطة رقم1، ص 379.

(2) نفس المرجع، ص 110.



وعبد المؤمن، لكنه تمكن، من خلال كتاب عنوان الدراية، المؤلَّف في القرن الثالث عشر، من تحديد مواقع العديد منها، مثل: باب البحر المبْني بالطوب والحجارة الصغيرة، في الجنوب، تجاه الجبهة البحرية، وفي منفذ الوهد، وقد بقي قائما، وكانت تمر تحت قوسه، القوطّي الشكل، المراكب الراغبة في الوصول إلى جون (خليج) داخلي أصبح، فيما بعد، مَرْدُومًا؛ وباب أمسيون، في الناحية الشرقية، في الطريق المؤدي إلى واد القردة، حيث بقيت بعض آثاره؛ وباب المرسى، وربما كان موجودًا في منطقة بريجة السفلى؛ وباب البنود، في الناحية الشمالية الغربية، في موقع باب الْفُوقة، ويُعتَقد أنه كان يمثل المنفذ الرئيسي للمدينة من داخل البلاد، في غالب الأحيان، كما تجتازه المواكب الملكية؛ وباب اللّوز، في الناحية الغربية، أسفل من باب البنود إلى حدّ ما، وكان عليّ بن غانية دَخَل منه إلى القصبة انطلاقا من الرّبوة المسماة «جبل الخليفة»؛ وباب باطنة، وليس هناك من المعلومات ما يُمَكّن من تحديد موقعه، وكذلك الأمر بالنسبة للباب الجديد؛ وباب البرّ وربما كان موجودًا في اتجاه الشمال، وقد أشار إليه ابن خلدون في منتصف القرن الرابع عشر[1].

ومن أحياء بجاية: حومة باب البحر القريبة، ولاشك، من الباب الذي تنسب إليه، واشتهرت ببيع الخمور فيها؛ وحومة باب أمسيون؛ وحومة باب باطنة التي وُجدت بها دار المَقْديسي المعروفة بدار الفقيه

(1) برنشفيك: المرجع السابق، ص 412 – 413؛ أنظر: الخريطة رقم 1، ص 379.



هِلَال؛ وحومة اللّؤلؤة القريبة، ولاشك، من القصر الذي نسبت إليه؛ وحومة المذبح الواقعة في ناحية الربض، وبها كان القراصنة يبيعون أسراهم، ويسدّدون إيتاوة الخُمس المطلوبة منهم مقابل ذلك[1] وكانت حارة مَلاّلة التي بنى فيها أبناء العزيز مسجدًا للمهدي بن تومرت ليدرّس فيه، تقع في ضواحي بجاية[2].

ومن الأحياء التي وُجدت خارج سور المدينة: حَوْمة ساباط الأموي، وحارة المقدسي الواقعة بعد منحدر، ولا يعرف ما إذا كانت هناك علاقة بين هذه الحارة وبين دار المقدسي الواقعة في حومة باطنة؛ وحومة رابطة المتمنّي؛ وحومة بئر مسفر القريبة من مقبرة أبي علي زميمة، خارج موقع باب البنود[3].

ويعترف برنشفيك أنه لا يعرف بالضبط مواقع الكثير من أحياء بجاية، في أواخر القرن الثاني عشر، وخلال القرن الثالث عشر الميلاديين، ومن ثَمّ راح يتساءل عن مكان حومة السَّاباط الأموي وحومة المذبح، مفيدا أن هذه الأخيرة كانت تمتد إلى الربض، وأن القراصنة كانوا يبيعون فيها أسراهم. ولاشك أن حومة اللؤلؤة كانت هي نفسها الحيّ الذي كان به القصر المعروف بذلك الإسم، وكان فيه

(1) برنشفيك: المرجع السابق، ص 110.

(2) نفس المرجع، ص 111.

(3) نفس المرجع، ص 110 – 111.

مسجد المرجاني، ومسجد أبي زكرياء الزواوي، قرب باب المرسى؛ وكانت بعض الأحياء منسوبة إلى أبواب تقع بالقرب منها كحي باب البحر، وحي باب أمسيون، وحي باب باطنة؛ وكان حي بئر مسفرة يقع خارج باب البنود؛ وحيّ رابطات المتمني يقع خارج المدينة؛ أمّا حارة المقدسي فكان الوصول إليها يحتاج إلى تسلّق منحدر[1].

ويتوقع برنشفيك أن يكون موقع رباط أبي زكرياء الزواوي(*)، هو النظير المتواضع للقصبة، والذي كان قائما خارج باب المرسى وهو نفسه البرج الذي رمّمه الإسبان وأطلقوا عليه إسم برج البحر ثم صار يُعرف، فيما بعد، ببرج عبد القادر[2].

ومن المعالم التي وقعت الإشارة إلى وجودها سنة 1300م. تقريبا، رابطة مؤقتة، في حالة خراب، بالناحية الشرقية من المدينة، خارج باب أمسيون، في حين كانت، داخل تلك الباب، في أعلى البريجة، رابطة ابن ييكي. وأخيرا يمكن الإشارة إلى مَصلّى كان ببجاية لكن موقعه غير معروف[3].

---

(1) برنشفيك: المرجع السابق، ص 414 - 415.

(*) هو فقيه توفي في 14 رمضان 611هـ/17 جانفي 1215م ويعرف محليا باسم سيدي يحي، ويوجد قبره على مسافة قريبة من المدينة، في اتجاه الشمال الشرقي، على حافة الجون الذي يحمل اسمه (برنشفيك: نفس المرجع، ص 415).

(2) نفس المرجع، ص 415؛ أنظر: الصورة رقم 2، ص 368.

(3) نفسه.



وكان دفن أموات بجاية يقع عادة في أماكن قريبة من سورها، وفي غالب الأحيان في المقابر الممتدة خارج الأبواب، مثل مقبرة ابن سُمية التي كانت خارج باب البنود، وكانت هناك مقبرة أخرى خارج باب أمسيون، وكان الناس يزورون قبور الأولياء الصالحين خارج باب المرسى[1].

ومن مساجد بجاية: المسجد الجامع؛ ومسجد الإمام المهدي، أي مسجد الريحانة، وهو المسجد الذي درّس فيه المهدي بن تومرت؛ ومسجد النطاعين (أي صانعي السجّادات الجلدية)[2]، أو النطائين؛ ومن الصعب تحديد مواقع هذه المساجد بالضبط[3].

ومن أسواقها: الشريعَة، أي البطحاء وتقع، في غالب الظن، بالواجهة البحرية، وتقام فيها سوق أسبوعية متنقلة؛ وسوق باب البحر، وقد تكون سوق القَيصرية وسوق الصوف اللّتان أشار إليهما الغبريني، وُجدتا من قبل، أي في العصر الحمادي، ويبدو أن سوق الصوف هي نفسها سوق الصوّافين[4].

ويتأسف برنشفيك لكونه يكاد يجهل كل شيء عن حيّ الأعمال، حيث كانت تزدهر التجارة والصناعة لكنّه يفترض أن مركز الحركة والنشاط البشريين، كان موجودا في قسم المدينة المنخفض، قرب

---

1. برنشفيك: المرجع السابق، ص 415.
2. نفس المرجع، ص 111.
3. نفس المرجع، ص 415.
4. نفس المرجع، ص 111.

الميناء، بدليل أن أحد النصوص أظهر ازدحام الجمهور في «سوق باب البحر» ملاحظا أنه كان غفيرا إلى الحد الذي يُمكّن من اختلاس سلّة الغسيل من فوق رأس الغاسلة التي تحملها. وقد اقتصرت المصادر على ذكر سوقين، هما: سوق الصوف والقيصرية[1].

المشاركة بين بجاية والقلعة في دور العاصمة الحمادية:

أ) في شؤون الإمارة الداخلية:

كانت المناطق التي سيطرت عليها الدولة الحمادية، بعدما تولى الناصر مقاليد حُكمها[*]، هي: المغرب، أي القسم الغربي من إمارته[2]، وعيّن على ولايته أخاه كَباب، ومقرّ ولايته مليانة؛ وحَمزة، وعين عليها أخاه رُومان؛ ونقاوس، وعين عليها أخاه خزر؛ وقسنطينة وعين عليها أخاه بَلبَار؛ والجزائر ومرسى الدجاح، وعين عليها ابنه عبد الله؛ وأشير وعين عليها ابنه يوسف؛ وبسكرة وولى عليها وزيرهُ خلف بن أبي حيدة ثم قتله بسعاية من رجالات صنهاجة فيه، وولّى مكانه أحمد ابن جعفر بن أفلح[3]؛ فبعث جيشه «إلى بلد واركُلان (ورقلة) وولّى عليها، وقفل بالغنائم والسبي»[4].

---

(1) برنشفيك: المرجع السابق، ص 416.

(*) عن مناطق نفوذ بجاية في أقصى اتّساعه، أنظر: الخريطة رقم 3، ص 381.

(2) أنظر، إدريس: المرجع السابق، جـ.1، ص 303.

(3) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ.6، ص 353 – 354.

(4) نفس المصدر، ص 356.



كما دخل في طاعة الناصر، أيضا، حَموّ بن مَليل البرغواطي، صاحب صفاقس، ووفد عليه أهل قسطيلية برئاسه يحي بن واطاس وأعلنوا طاعتهم، فولى على بلادهم يوسف بن خلوف الصنهاجي. وانضم إلى هؤلاء، كذلك، أهل القيروان وأهل تونس[1].

وكانت عاصمة هذه الأقاليم كلّها، قبل تأسيس مدينة بجاية هي قلعة بني حماد، ولكن بعد تأسيس بجاية سنة 460هـ./ 1067 – 1068م.، وإلى انتقال المنصور بن الناصر إليها نهائيا سنة 483هـ./ 1090 – 1091م.، صارت تتقاسم معها هذا الدّور: ذلك أن مؤسسها وصاحب أعلى سلطة فيها، الناصر بن علناس، كان يقيم، كما تبيّن سابقا، أحيانا فيها وأحينا في قلعة جدّه حَمّاد، ولاشك أن ابنه وخليفته المنصور كان يفعل مثله في السنوات الثلاث الأولى من حكمه، قبل أن ينتقل إليها نهائيا سنة 483هـ./ 1090 – 1091م.، وبالتالي فإن المدينتين كانتا، لا محالَ، تشتركان في اتخاذ القرارات الخاصة بإدارة شؤون الدولة.

وممّا يؤيد هذا الطرح أن المستنصر(*) بن خزرون الزناتي، عندما ثار بالمسيلة وأَشِير، ثم قُتل في بسكرة، أُرسِل رأسُهُ «إلى الناصر فنصَّبه ببجاية وصُلب شِلْوُه بالقلعة...»[2] حتى يكون عِظه لغيره، ألاَ يدلّ نَصْب

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 354.

(*) يسميه ابن خلدون، مرة، المستنصر (نفس المصدر، ص 355)؛ ومرة أخرى المنتصر (نفس المصدر، ص 356).

(2) نفس المصدر، ص 356.

الرأس هنا، وصَلب الشّلْوِ هناك على إبـراز دور كلّ منهما في تحقيق النصر على هذا الثائر علما أن ظاهرة تقسـيم جُثمان القتلى، ونَصب أو صلـب بعض أجزائها هنا والبعض الآخر هناك لم تكن شـائعة في تلك الفترة، ويبقى مُبرّرها الوحيد، هنا، هو تقسـيم فضل النّصر بين المدينتين، وتأكيد دور كلّ واحدة منهما كعاصمة للبلاد.

واللاّفت هنا أن ابن خلدون سـجل وقوع أحداث ثورة المستنصر في سـيّاق كلامه عن مجموعة من الأحداث ذكرها، بعد حديثه عن معركة سبيبة سـنة 457هـ./ 1064م، وقبل تأسيس بجاية سنة 460هـ/1067م. ومن بينها ثورة المستنصر بن خزرون هذه، ويحدّد هادي روجي إدريس تاريـخ حدوث هذه الثورة ما بين سـنتي 460 – 470هـ/ 1067 – 1078م. بدليل أن رأس صاحبها نُصب ببجاية التي كان تأسيسها سنة 460هـ.. إضافـة إلى قتل أبي الفتوح بن حبوس، أمير بني سـنجاس المغْراويّين الزناتيين، في بلد لَمْديّة(*) وكذلك مُعْنَصر بن حمّاد، المغراوي الزناتي، وكان ينشـط بنواحي شـلف، و«قَتَل شـيوخ بني وُرَيسِفان، من مغراوة» أيضـا، ولما طلبوا النجدة مـن الناصر لم يُلبّ طلبهم، لانشـغاله بأمر الأعراب، واكتفى بتحريضهم عليه فتصدوا له وقتلوه وبعثوا له برأسه، «فنصبه على رأس القصر»[1]؛ وأنجد أهل الزاب بِابْنه المنصور، عندما

(*) لمدية قبيلة من بطون صنهاجة سميت البلد بهم (ابن خلدون: العبر، 6، ص 356).

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 356.



أخبره أنّ قبيلتي: غَمْـرَت ومَغْراوة قد ظاهرتا الأثبج، من العرب على بلادهـم، فنـزل المنصور وغَـلاَن، بَلَـدَ المنتصر بن خـزرون المغراوي، وهدّمها؛ كما أخرج الناصر جيشه إلى وارْكلا (ورقلة) فغنم فيها وسبى ثـم عاد، بعـد أن عيّن عليها واليـا؛ ولما علم أن بنـي توجين الزناتيين، ظاهـروا عرب بني عَديّ على الفسـاد وقَطْع الطرق، أخرج إليهم ابنه المنصور فتقبّض على أمرائهم وقتلهم جميعا[1].

وعند التّمعّن في أول الأحداث المشار إليها هنا، وهو ما يتعلق بثورة المـستنصر بن خزرون، فإن مسـألة نصب رأسـه بمدينة بجاية تُعتبر دليـلا قاطعا علـى وقوعها جميعا بعد تأسيسـها، لا قبلـه، بل يمكن تحديـد مدّة حدوثها مـا بين تاريخي تأسـيس الناصر لبجاية، سـنة 460هـ/1067م، وبين وفاته سـنة 481هـ/ 1088 - 1088م.، وبالضبط فـي الوقـت الذي كانت تتقاسـم فيه كلٌّ مـن مدينتي: بجايـة والقلعة دورَ العاصمـة الحماديـة وتُسـاهمان معا في بسـط سـيطرة الدولة علـى مختلف أنحائها، بقضائها علـى التمرّدات التي كانت تظهر، هنا وهناك، والتي كانت تُغذّي غالبيتَها القبائلُ الزناتية، وخاصة المغراوية منها وبعض القبائل الهِلالية.

ويبـدو أن المدينتين: القلعة وبجاية اسـتمرتا فـي لعب نفس الدور، في السـنوات الأولى مـن حكم المنصور الذي خلف أبـاه الناصر، ومع

---

(1) ابن خلدون: العبر، 6، ص 356 - 357.



أنه «نزل بجاية سنة ثلاث وثمانين (483هـ/ 1090 - 1091م.) وأوطنها بعساكره»[1] فإنّ المدينتين بقيتا تقومان، جنبا إلى جنب، بعبء إدارة شؤون الإمارة: فعندما ثار عليه أخوه يلبار، الذي كان واليا لأبيهما على قسنطينة، في أوّل عهده، وتقبض عليه قائدهُ أبو يُكنى، بعث به إلى القلعة، في حين أقام هو واليا في مكانه وولّى أخاه ويغلان على بونة. وقد ثار أبو يُكنى، بدوره على المنصور سنة 487 هـ/ 1094 - 1095م.، وبعث أخاه إلى الأمير الزيري تميم بن المعز بالمهدية فدعاه لولاية بونة، وبعث تميم معه ابنه أبا الفتوح ليتولّى أمرها، وراسلوا المرابطين بالمغرب الأقصى، واستعانوا على أمرهم بالعرب الهلاليين، لكن عساكر المنصور زحفت عليهم، وحاصرت بونة ثم اقتحمتها وتقبضت على أبي الفتوح بن تميم وبعثت به إلى المنصور فاعتقله بالقلعة؛ أمّا أبو يُكنى فقد اضطر أن يلجأ إلى قلعةٍ بجبل أوراس واتّخذ منها نقطة انطلاق لشنّ غارات على قسنطينة، إلى أن حاصره الحماديّون وقضوا عليه بها[2].

وما يمكن استنتاجه، من كل هذا الكلام، أنه على الرغم من أن المنصور نقل مقرّ إقامته، نهائيا، من القلعة إلى بجاية سنة 483 هـ/ 1090 - 1091م.، إلاّ أن ذلك لا يعني أن بجاية صارت تلعب وحدها

(1) ابن خلدون: العبر، 6، ص 357.

(2) نفس المصدر، 6، ص 358 - 359.



دور عاصمة الإمارة بل بقيت القلعة تشاركها فيه، بدليل أن أبا يُكنى، عندما تقبض على بلبار بقسنطينة أرسله إليها، وفيها اعتقل المنصور أبا الفتوح بن تميم، بعدما تقبض عليه في بونة سنة 487هـ/ 1094 - 1095م. أو بعدها، أي بعد أربع سنوات من انتقال المنصورنهائيا إلى بجاية ويَدْعَم لوسيان غولفان فكرة تقاسم دور العاصمة الحمادية بين المدينتين: بجاية والقلعة، ويرى أن بجاية في عهد الناصر لم تكن سوى ملجأ طارئا «غير أن الناصر هيّأها بتهيّج (fébrilement) إلى دورها القادم: فهو لم يكن ينوي، ولاشك، أن يجعل من مدينته التي أطلق عليها تسمية الناصرية(*)، مجرّد ميناء (havre) آمن يُمكن أن يُحتمى به في حالة الشدّة (revers)، بل على العكس من ذلك، فإنه باختياره مدينة بجاية، يبدو أنه وَجّه نحو مينائها، مستقبل أسرته الحاكمة، ولهذا الغرض شيّد قصره، قصر اللؤلؤة، ثم أَعْفَى السكان من الخراج (l'impôt) حتى يُشجّعهم على تعمير المدينة الجديدة، وأخيرا ربط القلعة والناصرية بطريق ملكيّ جديد «طريق السلطان» الذي يجتنب السهل إلى أقصى حدّ. لكن ابنه وخليفته المنصور هو الذي كان له فضل جعل بجاية عاصمةً لبني حمّاد: إذ بقيت القلعة هي عاصمتهم الحقيقية، يقيم فيها الأمير في غالب الأحيان، إلى أن توفي الناصر،

(*) لاحظ Golvin هنا، التوازي الموجود بين المهدية، مدينة المهدي، ميناء على البحر المتوسط، وبين الناصرية، مدينة الناصر، وهي ميناء مفتوح أيضا على الأبيض المتوسط، مستنتجا أن المثال الفاطمي اتُّبع بأمانة (المرجع السابق، ص 119، هامش 3).



فهي لم تَفقِد بَعْدُ قوّتها الإستراتيجية، وكان باستطاعتها مقاومة كل الهجومات بِغَلَبة (victorieusement)، غير أن أيامها أصبحت، بكل تأكيد، معدودة: لقد حاصر البدو سهل المسيلة وكل المنافذ المؤدية إلى مَقَّرة (Maggara) ونْقَاوَس (Ngaous). وكانت المنافذ المؤدية نحو الشمال تبدو أقل عُرضة لكنها صارت، بعد وقت قصير، غير مستقرة كمثيلتها الجنوبية ولم يبق أمام الحماديين، المحاصرين في جبالهم ذات الموارد الضّعيفة، سوى التفاهم مع الأعراب ومحاولة التحالف معهم[1]».

ب) في علاقات الإمارة الخارجية:

من الواضح أن رأي Golvin السابق، يمكن إدراجه في إطار فكرة تقسيم دور العاصمة، بين مدينتي: القلعة وبجاية، أيام السلطان الناصر وأيام خليفته المنصور ابنه، وما يَجدُر التنبيه إليه هو أن هذا التقاسم أو هذه الشراكة لا تقتصر على شؤون الإمارة الدّاخلية، كما تبيّن من خلال الأمثلة المشار إليها سابقا، بل إنها تشمل كذلك ما يتعلق بعلاقتها الخارجية، ومنها علاقتها مع شقيقتها، الدولة الزيرية، على حدودها الشرقية وعلاقتها مع المرابطين، في حدودها الغربية، ومع الأندلس والبابوية والنورمان والخلفاء الفاطميين بمصر.

---

(1) Golvin: op.cit., P.119 .



1) في علاقتها ببني زيري.

كان من الطبيعي أن يحاول الأمير الزيري، تميم بن المعز، استعادة السيطرة على أراضيه التي دخلت تحت نفوذ الناصر بن علناس، قبل موقعة سَبِيبة، وهو ما جعله يجهّز حملة عسكرية سنة 458هـ/1065 – 1066م، ويقصد بها القيروان لتأديب عاملها القائد بن ميمون الذي تخلى عن طاعته ودخل طاعة الناصر، قبل الموقعة المشار إليها، ولما حلت تلك الحملة بالقيروان، وجدت ابن ميمون قد غادرها وسار إلى الناصر، فاكتفت بدخولها وتخريب قَصره فيها، ثم واصلت طريقها إلى مدينة تونس، فحاصرت عاملها أحمد خرسان، مدّة عام وشهرين، ثم عقدت معه صلحا وانسحبت[1].

ولم يقم الناصر بردّ الفعل إلاّ سنة 460هـ/1067 – 1068م، أي في نفس السنة التي فتح فيها جبل قبيلة بجاية وأمر بتأسيس مدينة الناصرية فيه، عندئذ، سار بِرُفقة حلفائه من عرب الأثبج إلى الأُرْبُس، فحاصرها إلى أن استولى عليها، وأمّن أهلها وقتل عاملها ابن مكراز[2]. ثم توجه إلى القيروان ودخلها، بعدما اشتراها له القائد بن ميمون[3] من عرب زغبة بواسطة أمير صفاقس حمّو بن مليل البرغواطي[4]،

1) قارن النويري المصدر السابق، ص 355 – 356؛ ابن عذاري: البيان، 1، 299.

2) ابن عذاري: البيان،1، 299.

3) النويري: المصدر السابق، ص 356.

4) انظر: إدريس، المرجع السابق، جـ.1، ص 321.

ولمّـا غادرها النّاصر إلى قلعته سـنة 461هـ/1068 - 1069م.، لحمايتها من الهلاليين، ترك ابن ميمون واليا عليها[1].

ويتخذ جورج مارسيه هذه الوقائع دليلا على فشل محاولة التقارب التـي كانت بين بنـي زيري وبين بنـي حَمّاد إثر موقعة سـبيبة: «نفس السياسـة اسـتمرت. إنّ طموح الأميـر الحمادي المدعّـم من حلفائه، عـرب الأثبج، سـيقُوده مرة أخرى، إلـى الأُربس وإلى القيـروان التي سـيدخلها سـنة 1067م»[2]؛ أمّا هادي روجي إدريـس فيعتقد أن فريق الأثبـج المتحالـف مع بني حمّـاد هو الذي دفـع الناصر إلـى مقاومة التحالف الزيري الرّياحي، الذي تَدَعَّم إثر استسـلام ابن خرسان في تونس، وهو ما جعله يحاصر الأُربس سنة 460هـ[3]./1067 - 1068م.

وفـي رأي Marçais فإنّ الضغائن (hostilités) اسـتمرت، في السـرّ والعلن، إلى سنة 1077م حيث عُقدت هُدنة مضمونة بزواج بين الناصر وابنة تميـم[4]. علما أن المصـادر لاَ تتحدث عن اسـتمرار الضغائن، التي يشير إليها مارسيه هنا، لكنها تؤكد وقوع صلح بين الرجلين سنة

---

(1) قارن: ابن عذاري: المصدر السابق، 1، 300؛ النويري: المصدر السابق، 356.

(2) op.cit., P.138.

(3) المرجع السابق، ص 318.

(4) op.cit., PP.138-39.



..4هـ/1077م، تُوّج بزواج ابنة تميم، السيدة بلاّرة، من الناصر، جهّزها ..نه والدها من المهدية، في البر، بعساكر عظيمة ومَالٍ وذخائر[1].

ويردّ هادي روجي إدريس أسباب هذا الصلح إلى ما أثاره تعاظم قوّة بني رياح، على حساب زغبة، من قلق في نفس تميم بن المعز، شبيه بالقلق الذي شعر به بعد موقعة سَبِيبَة، لأن ذلك من شأنه أن يعرّض للخطر جهوده الرامية إلى استرجاع نفوذه باستغلال الخلافات القبلية؛ وإلى ظهور مجاعة وَوَباء عظيمين بإفريقية سنة 469هـ/1076 - 1077م.، مات بسببهما خلق كثير. فممّا لا شك فيه، في نظر إدريس، أن هذه الأمور كلّها كان لها وقعٌ في نَفسيّتي تميم والناصر، أدركا بفضله أن صراعهما سيؤول، لا محال، إلى إضعاف الإمكانيات الصنهاجية المتدنية أصلا، لفائدة الهلاليين الذين ما فتئت قوّتهم تتعاظم، فكان لابد لهما من تصالح[2]. علما أنّ إدريس اقتبس تاريخ المجاعة التي تحدث عنها (سنة 469هـ./ 1076 - 1077م.) من كتاب ابن عذاري(البيان، 1، 300)، غير أن ابن أبي دينار يحدّد لها تاريخا آخر، هو: سنة 483هـ[3]/1090 - 1091م. وفي حالة ترجيح وقوعها في هذا

---

(1) قارن: النويري: المصدر السابق، ص 356؛ ابن عذاري: البيان،1، 300؛ أنظر: Golvin: op.cit., PP. 115-16.

(2) المرجع السابق، جـ.1، ص 322.

(3) المؤنس، ص 86.

التاريخ فلا يُمْكن اعتباره سببا من أسباب هدنة وُقِّعَت سنة 470هـ./ 1077 – 1078م.، أي ثلاثة عشر سنة قبل حدوثها.

المهم أنّه لم يسجل أي حدث بين الطرفين: الزيري والحمادي، بقية أيام الناصر المتوفّى سنة 481هـ./ 1088 – 1089م. ولما ثار والي المنصور على قسنطينة، أبو يُكنى بن محصن، سنة 487هـ./ 1094 – 1095م. طلب من أخيه وعامله على بونة، وِيغْلان، أن يتوجّه إلى الأمير الزيري تميم ابن المعز بالمهدية، ويدعوه لولاية بونة، فنفّذ ويغلان أوامر أخيه، ولبّى تميم الدعوة، فأرسل ابنه، أبا الفتوح، مع الوفد الحمادي ليتولّى المهمة المنوطة به في بونة، ومن هناك راسل الطرفان المتحالفان المرابطين، في المغرب الأقصى، وراحا يجمعان العرب الهلاليّين في صفوفهم، استعدادًا لمجابهة جيوش المنصور التي ما فتئت أن هاجمتهم وحاصرتهم في مدينتهم، مدّة سبعة أشهر، تمكّنت في نهايتها من اقتحامها عليهم وأَسْرِ أبي الفتوح بن تميم الذي أُرسل إلى المنصور، فاعتقله بالقلعة[1].

ولما توجّه جيش المنصور إلى قسنطينة لمواجهة أبي يُكنى غادرها إلى قلعةٍ في الأوراس، في حين مكّن أحد رجالات قبيلة الأثبج أصحاب المنصور من المدينة، في مقابل مبلغ مالي، واستمر أبو يكنى يناوشهم انطلاقا من حصنه، إلى أن حاصروه فيه وقتلوه[2].

---

(1) ابن خلدون: العبر، 6، ص 358 – 359؛ أنظر إدريس: المرجع السابق، جـ.1، ص 326.

(2) نفس المصدر، ص359؛ إدريس: نفس المرجع، ص، 326 – 327.



ولم تَعرف بقيةُ أيام المنصور ما مِن شأنه أن يُذكر في علاقاته مع بني عمومته الزيريين، وكذلك الحال بالنسبة لابنه وخليفته باديس، الذي خلفه بعد موته سنة 498 هـ./ 1104 - 1105م، وخرج من القلعة إلى بجاية»[1] لكنه هلك قبل أن يستكمل سنة من الحكم[2].

غير أن الأمر اختلف أيام أخيه العزيز الذي تولّى شؤون البلاد بعده، وكان باديس قد عزله عن الجزائر وغرّبه إلى جيجل، فلما تُوفي بَعث، نيابة عنه، القائد عليّ بن حمدون إلى بجاية، فلما أخذَ له البيعة اِلتحق به. ومن أهم ما سُجّل عن علاقته، خارج حُدوده الشرقية، أثناء ممارسته مقاليد الحكم، قيام أسطوله بهجوم على جزيرة جربة، في تاريخ غير مُحدّد، وإرغام سكانها على طاعته، لكن خضوعها له لم يدم طويلا. وفي سنة 514هـ./ 1120 - 1121م.، حاصر جيشُه مدينة تونس التي سبق لعليّ بن يحي بن تميم الزّيري أن سيطر عليها سنة 510هـ./ 1116 - 1117م.، فأجبر صاحبها أحمد بن عبد العزيز بن خرسان على الدخول في طاعته[3].

ومع أن ابنه يحي الذي خلفه، بعد موته، سنة 515هـ./ 1121 - 1122م.، كان «مستضعفًا، مغلبا للنساء مولعا بالصيد»[4] إلاّ أنه سار

---

1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 361.

2) نفسه.

3) العبر، 6، ص 361 - 362؛ النويري: المصدر السابق، ص 365، إدريس: المرجع السابق، جـ.1، ص 382.

4) العبر، 7، ص 362.



على نفس النهج السياسي الخارجي الذي رسمه والده: إذ لما ثار عليه، ابن مروان بتوزر، أخرج إليه جيشا بقيادة الفقيه مطرف بن علي بن حمدون(*)، فاستولى عليها وتقبض عليه، ولمّا أوصله إلى يحي ببجاية، سجنه في الجزائر إلى أن مات، وربّما أَمَرَ بقتله[1].

وقد أشار كلّ من ابن خلدون وابن عذاري إلى أحداث اختلفا في ذكر تفاصيلها، وفي تسلسلها: ففي حين أَوْرد الأول أن قائد يحي، مُطرَّف «بعث بابنه إلى تونس فافتتحها ونازل، في وجهته هذه، المهدية فامتنعت عليه، ورجع إلى بجاية.»[2]، فإن الثاني أَوْرد، في سياق كلامه عن أحداث سنة 522هـ/ 1128م.، أنّ «العزيز بالله بن المنصور، صاحب بجاية [بعث] عسكرا إلى المهديّة، قوّد عليه ابن المهلّب، فنزل عليها، ثم انصرف ناكصا على عَقَبِه، وفيها وصل مُطرّف بن علي بن خزرون الزناتي إلى تونس، وأخرج منها أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق ابن خرسان، وقفل إلى الحجاز وبها مات، ووَليَ تونس، في هذه السنة، كرامةُ بن المنصور الصنهاجي، من قبل صاحب بجاية.»[3]؛ ويذكر نفس المصدر، في مكان آخر، أن أحمد بن عبد العزيز هذا بقي في حكم تونس مدّة إثنتين وعشرين سنة، واستبد برأيه في أمورها «إلى أن

(*)صحَحّه إدريس بخزرون (المرجع السابق، ص 426، هامش 8).

(1) العبر، 7، ص 363.

(2) نفسه.

(3) البيان، 1، 310.



وصلت أخباره إلى المنصور صاحب بجاية، فجهّز إليه عسكرا قدّم عليه مُطرّف... فوصل إلى تونس عام 522هـ.، فخرج أحمد إليه، واستسلم في يديه؛ فنقله إلى بجاية، وولّى تونس كرامة بن المنصور... إلى أن مات...»[1].

فابن خلدون، كما هو واضح، حصر وقوع أحداث تونس والمهدية في حملة واحدة، قادها ابن مطرف على تونس فلمّا انتصر عليها قصد المهدية فامتنعت عليه وعاد إلى بجاية لكنه تحدث، قبل ذلك، عن ثورة ابن مروان بتوزر، وقضاء مُطرّف بن عليّ عليها؛ أمّا ابن عذاري فلا يشير إلى هذه الأخيرة لكنه يوزّع وقوع بقية الأحداث على حملتين: أخرج أولاهما العزيز بن المنصور، بقيادة ابن المهلب، وعادت بعد فشل مهمتها؛ وحملة أخرى قادها، في نفس السنة، مُطرّف بن علي على تونس، فنقلت عاملها، بعد استسلامه إلى بجاية، وولت بدلا عنه، كرامة بن منصور الصنهاجي. مع ملاحظة ألاّ علاقة للعزيز بن المنصور بالحملة الأولى، ولا للمنصور ابن الناصر بالحملة الثانية، لأن أوّلهما توفي سنة 515هـ/ 1121 - 1122م.، أي قبل الحملة المشار إليها هنا بسبع سنوات، ومات الثاني سنة 498هـ/ 1104 - 1105م، أي قبلها بثلاثين عاما. ثم إن ما ذكره ابن عذاري، مرّة، من قفول أحمد بن عبد العزيز إلى الحجاز، ومرة أخرى، من نقله إلى بجاية، هو تردّد واضح، وتلك الأخطاء تُضعف

1) البيان، 1، 315 - 316.

مصداقيــة كلامه إلى حدّ بعيد، لكن ما يُســتنتج في نهاية الأمر، هو أن كليهما يتحدث عن حملتين عســكرتين حدثتا في عهد يحي بن العزيز: إحداهما ضد توزر بقيادة مُطرّف بن علي، والأخرى ضد تونس والمهدية بقيادة ابن مطرّف، حسب ابن خلدون، أو أنّ إحداهما ضدّ المهدية بقيادة ابــن المهلب والأخرى ضد تونــس بقيادة مطرف بن علــي، وأن الاثنتين حدثتا سنة 522هـ/1128م.، حسب ابن عذاري، ويتفق الإثنان على فشل مهمة جيش يحي في المهدية، دون تعرّضهما لأية تفاصيل.

واللاّفت للانتباه هنا أن ابن خلدون لا يتحدث عن حملة أخرى لجيش يحــي على المهدية، في حين أن ابن الأثيــر وابن أبي دينار يذكران أنه وجّه إلى المهدية، ســنة 529 هـ./ 1134 – 1135م.، أســطولا بحريا وجيشا بريّا، من مُشاة وفرسان، انضم إليه العُربان من كل فجّ، فحوصرت، برّا وبحرا، ســبعين يوما، دار فيها قتال بين الطرفين، خاصة في أيامها الأخيرة، غير أن تَدخّل رُوجار (Roger)، ملك صقلية، بإرساله أسطولاً من عشرين قطعة بحرية، لنجدة حليفه الأمير حســن الزيري، من جهة، ووصول ميمون ابن زياد، على رأس الكثير من عرب هلال، من جهة أخرى، حسم الموقف لصالح الحسن بن علي بن يحي وعاد مطرف إلى بجاية، بعد فشل مهمته[1].

(1) قــارن: Ibn el Athir : «Annales», Revue Afr., N° 240, année 1901, PP.69-70»؛ ابــن أبــي دينــار: المؤنس، ص 92 – 93؛ أنظر. إدريس: المرجع الســابق، جـ.1، ص 401 فما بعدها؛ يردّ ابن الأثير سبب هذه الحملة إلى حسد بعض الأعراب لأمير طائفة منهم، هو ميمون ابن زيادة، لأن الأمير الحسن قرّبه منه وأكثر الإنعام عليه، فساروا إلى يحي بن العزيز، وجعلوا أولادهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم جيشا للاستيلاء على المهدية،=



ويتحدث ابن عذاري، من جهته، عن نزول علي بن حمّود على المهدية، سنة 530هـ./ 1135 – 1136م. بعسكر من قبل صاحب بجاية العزيز بن المنصور فخاض قتالا بريّا وبحريا مع صاحب المهدية، ووصلت العرب لنجدة المهدية فرحل عنها جيش بجاية، بعد حصار دام سبعين يوما، ويشير نفس المصدر إلى استيلاء أسطول صقلية على جربة، في نفس العام[1]، دون أيّ ربط لمجيء ذلك الأسطول بحصار المهدية.

وممّا يدلّ على شراكة مدينتي القلعة وبجاية للقيام بدور العاصمة في إدارة شؤون الإمارة الخارجية، على حدودها الشرقية، عودة الناصر بن علناس، بعد استيلائه على مدينتي الأربس والقيروان، سنة 461هـ./ 1068 – 1069م. إلى القلعة، لحمايتها من الأعراب ولم يعد إلى ناصريته التي شرع في تأسيسها، قبل ذلك، بسنة واحدة.

ومع أن المنصور بن الناصر نقل مقرّ إقامته إلى بجاية سنة 483هـ/ 1020م.، إلاّ أنه لم يستغن عن خدمات القلعة: إذ لما أرسل الأميرُ

=وتباطأ يحي بعض الشيء للرّد عليهم، غير أن وصول مراسلة إليه، من بعض مشائخ المهدية، جعله يحسم الموقف ويلبيّ رغبتهم (Annales», Revue Afr., N° 240, année 1901, P.69)؛ وبالنسبة لابن أبي دينار فإن سببها يعود إلى أن الحسن صالح الملك روجار، صاحب صقلية، وبعث له بهدية، مخافة من شرّه، وقَبِلَ شروطه، مما جعل أهل المهدية يكاتبون يحي بن العزيز، صاحب بجاية وأطمعوه بتسليم البلد، فوثق بهم وبعث إليها جيشا في البرّ ومراكب في البحر (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967، ص 92؛ أنظر إدريس: المرجع السابق، ص 401 فما بعدها).

(1) البيان، 1، ص 312.



الزيـري تميمُ ابنَه أبا الفتوح ليتولى بونة، تلبية لرَغبة أبي يُكنَى، الذي ثار في قسـنطينة سـنة 487 هـ./ 1094 – 1095م.، ووقعَ أبو الفتوح في أسر الجيش الحمادي، أوصله إلى المنصور الذي اعتقله في القلعة.

وكان باديـس بـن المنصور الـذي خلفه في الحكم، بعد وفاته سـنة 498هـ./ 1104 – 1105م. يسـكن القلعة ولم ينتقـل منها إلى بجاية إلاّ لتولية منصب الإمارة، إثر تلك الوفاة، وكانت القلعة تتعرّض لمضايقاتٍ كلِّ صَيْـف، حيـث كان البدو يخرّبـون ضواحيها ويحاصـرون الطرق المؤدية إليها، وكان سـكانها مهدّدين، في أملاكهم وأرواحهم، وحكامها عاجزين ومعزولين عن بقية أنحاء دولتهم، لدرجة جعلت المنصور يتعهد أن يتخلى لهم عن نصف محاصيله، من الحبوب والتّمور، حتى يضمن اجتناب اختلاسـاتهم، لكنّ تَفاقُم الضّرر، مع مرور الأيام، جعله يتخذ قـرار الرّحيل إلى بجاية سـنة 483هـ/ 1090م، ليكـون في مأمن خلف جدران من الجبال، يصعب على جِمال البدو أن تعبرها بسهولة[1].

وفي أيام إبنه العزيز تعرّضت القلعة لحصار شديد، واكتسح الأعراب «جميع ما وجدوه بظواهرها وعظم عيثهم، وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهـم مـن البلد، ثم ارتحلوا، وبلغ الخبر إلـى العزيز فبعث ابنه يحـي وقائده علـي بن حمدون، من بجاية في عسـكر وتعبيّة..»[2]، أي

(1) أنظر: Marçais : Les Arabes en Berberie de 11ème au 15ème siècle, Paris 1953, PP.140-41

(2) العبر، 7، 362.



وقافلة تموين، وهو ما يدلّ على أنّ النهب حَرَم المدينة من أي تموين، لأنه لم يكن بالإمكان الدخول إليها أو الخروج منها[1].

ولما وصل الجيش إلى القلعة «سكّن الأحوال، و... أمّن العرب، واستعتبوا فأُعتبوا، وانكفأ راجعا إلى بجاية في عسكره»[2]. فهل معنى ذلك أن العرب هُزموا وأجبروا على طلب الأمان، في حين رُفع الحصار على القلعة، كما فهم Golvin من نص ابن خلدون وترجمته إلى الفرنسية[3]؟ أم أن رحيلهم عنها كان قبل وصول جيش العزيز إلى القلعة، بل قبل انطلاقه من بجاية أصلا، كما يُفهم من نص ابن خلدون غير المترجم، وأنهم لم يخوضوا ضده أي قتال، واكتفوا بتقديم اعتذارهم إليه، وطلبِ الأمان منه للحفاظ على الامتيازات التي سبق وأن تحصلوا عليها في عهد المنصور، وكان ذلك في صالح الإمارة الحمادية التي كانت في حاجة إلى التحالف معهم، في حروبها الداخلية والخارجية، فَقَبِلت طلبهم.

ويبدو أنّ قيادة يحي بن العزيز لهذا الجيش رَسّخت في ذهنه فكرة الاستغناء عن القلعة، في إستراتيجية الدفاع عن الدولة، وهذا ما يفسّر ما قام به، بعد وفاة والده سنة 515هـ./ 1121 - 1122م. وخلافته

1) أنظر: Golvin : op.cit., P.127.

2) العبر، 7، 362.

3) op.cit., P.12[illegible].



على العرش، بزيارة وداع لها سنة 543هـ/ 1148 - 1149م. «ونَقْلِ ما بقي بها[1]» من نفائس، بل قدّم دليلا آخر يؤكد عدم اعتماده على حصانتها، باعتقاله ابن مروان الذي ثار عليه في توزر، بمدينة الجزائر، بدَل اعتقاله فيها، مثلما كان أجداده يفعلون مع الثائرين عليهم قبله، ممّا يعني بالنسبة إليه أن دور القلعة الدفاعي، قد انتهى، ولم يعد بإمكانها أن تتقاسم، مع بجاية بعدئذ، دور العاصمة، وقد يوحي اعتقال ابن مروان في الجزائر أن هذه الأخيرة رُشحت لتكون بديلة عنها؛ منذ أيام يحي بن العزيز.

2) في علاقتها بالمرابطين.

وعلى حدود الدولة الغربية، حيث أخذ المرابطون يبسطون نفوذهم على المغرب الأقصى، بلغ أميرَ الحمادي الرابع، بُلُكين بن محمد بن حمّاد، «استيلاء يوسف بن تاشفين... على المصامدة، فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين (454هـ./ 1062 - 1063م.) وفر المرابطون إلى الصحراء....»[2].

وفي رأي Golvin فإن الحديث عن عداوة واضحة، بين القادمين الجدد، المنتشين برسالتهم (دعوتهم) وبين بني حماد، غير ممكن، وإنّ

---

(1) العبر، 7، 363.

(2) العبر، 6، 353.



حملة بُلكين ضدهم يحتمل ألاّ تكون سوى حملة وهمية (de prestige)، حدثت في بلد كان المُلَثّمون قد غادروه. لقد ازدادت قوتهم، فيما بعد، دون أن تعترضها صنهاجة المغرب الأوسط. ومن الواضح أن هذه القوة نفسها أصبحت تُكوّن قطب اجتذاب لعدد من القبائل الزناتية المناوئة للحماديين، إضافة إلى أن نموّ حركة توسع الإصلاحيين(*)، بقيادة رجل الحرب اللاّمع، يوسف بن تاشفين، ستجعل المجموعتين الصّنهاجيّتين تتصلان ببعضهما، عاجلا أم آجلاً. ويتساءل Golvin عما إذا كانت زناتة هي التي استعانت (appelé) بيوسف، كما قال ابن خلدون؟ أم أنه كان يفكر في زيادة قوّته، عند احتفاظِه بالثغور الشرقية؟ ومهما يكن فإنه استولى على تلمسان سنة 474هـ./ 1081م.، من بني يَعْلى، ونَصّب عليها أحد مساعديه: محمد بن تينعمر[1].

وأهمّ ما يمكن تسجيله، في رأي Golvin هنا أن المرابطين لم يفروا أمام الجيش الحمادي، بقيادة بُلُكين، كما قال ابن خلدون، بل إن تراجعهم كان تلقائيا، قبل وصول الحمّاديين، كما أنه شكك أيضا فيما أورده ابن خلدون عن دور زناتة، مِمّا قد يكون وقع بين الطرفين من صدام، وللعلم هنا فإِن هذا الأخير أورد نصين مختلفين تماما،

(*) أطلق عليهم هذا اللقب لأن هدفهم الرئيسي كان، على مايبدو، إصلاح العادات (moeurs) وفرض عقيدتهم (leur foi) في بلد عمّته الفوضى (Golvin: op.cit., P.11).

1) Golvin: op.cit., PP.125-26.

حول هذا الموضوع، في مجلدين مختلفين من كتاب العبر: إذ سجّل في المجلد السابع عن بني وُمَانُو وبني يَلومي، من بطون زناتة، أن «مواطنهم جميعا بالمغرب الأوسط، وبنو ومانوا (وُمانو) منهم، إلى جهة الشرق عن وادي ميناس، في مِنْداس ومَرّات، وما إليها من أسافل شلف،...، واستعملتهم صنهاجة في حروبهم، حتى إذا تقلّص مُلك صنهاجة عن المغرب الأوسط اعتزوا عليهم، واختص الناصر بن علناس... بني ومانو هؤلاء بالولاية، فكانوا سيفا لقومه... وكانت رئاسة بني ومانو في... بني ماخوخ. وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته، فزوّجها إيّاه، فكان لهم بذلك مزيدَ ولايةٍ في الدولة.

«ولمّا ملك المرابطون تلمسان، أعوام سبْعين وأربعمائة، وأنزل يوسف ابن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي، ودوّخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر، وهلك فولّى أخوه تاشفين على عمله، فغزا أشير وافتتحها وخرّبها، وكان لهذين الحيّين من زناتة (بني ومانو وبني يلّومي) أثر في مظاهرته وإمداده، أحقد عليهم المنصور بعدها، وغزا بني ومانو في عساكر صنهاجة، وجمع له ماخوخ، فهزمه واتبعه منهزما إلى بجاية، ... (وبعد دخول) قصره، قتل زوجه أخت ماخوخ تشفيا وضغنا، ثم نهض إلى تلمسان في العساكر... وكانت الغُزاة المشهورة سنة ست وثمانين 486 هـ./ 1093 – 1094م.، أبقي فيها على ابن تينعمر المسوفي، بعد استمكانه من البلد...»[1].

---

(1) العبر، 7، 114 - 115.



ومـع أنّ ابن خلدون نبّه، في آخـر نصه هذا، إلى أن المعلومات التي تضمنهـا وردت فيمـا ذكره عـن أخبـار صنهاجـة، إلاّ أن المُتتبع لهذا الموضوع، في مجلّده السـادس، يجـد نصّا مختلفا كثيرا، في تفاصيله عـن النص السـابق، إذ جاء فيـه أن بني ومانو حَيّ جميعـا وقوم أعزّة «وكانت إليهم رئاسـة زناتة، وكان رئيسـهم لعهده (المنصـور) مَاخُوخ، وكان بينهـم وبين آل حمّاد صَهَر، فكانـت إحدى بناتهم زوجة للناصر، وكانت أخرى عند المنصور.

«ولمّا تجدّدت الفتنة بينه وبين قومهما، أغزاهم المنصور بنفسـه...، وجمع له ماخوخ ولقيه... فانهزم المنصور إلى بجاية، فقتل أخت ماخوخ التي كانت تحته، واستحكمت النَّفْرة بين ماخوخ وبينه، وسار إلى ولاية أمراء تلمسان، من لمتونة، وحرّضهم على بلاد صنهاجة، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان، وذلك أن يوسف بن تاشفين ... غلب عليها أولاد يعلى، سنة أربع وسبعين (474هـ./ 1081م.)... وأنزلها محمد بن يغمر المسـوفي، وصيّرها ثغرا لمُلكه، فاضطلع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم، فزحف إليـه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ، وضيّق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه.

«وقبـض أيـدي المرابطين عن بـلاد صنهاجة، ثم عـاود المرابطون ...ـى شـأنهم في بلاده فبعث ابنَه الأمير عبد الله، وسـمع به المرابطون فانقبضوا عن بلاده، وزحفوا إلى مرّاكش، واحتل هو بالمغرب الأوسط،



فشنّ الغارة على بلاد بني ومانو... ورجع إلى أبيه، ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ، وقُتل أخوه، ولحق ابن ماخوخ بتلمسان، وظاهرهُ ابن يَغمُر، صاحب تلمسان على أمره، وأجبلوا على الجزائر فنازلوها يومين، مات عقبيهما محمد بن يَغْمر، صاحب تلمسان.

«وولّى يوسف بن تاشفين مكانه أخاه تاشفين بن يغمر، فنهض إلى أشير وافتتحها، فقام المنصور في ركائبه...، ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين (476هـ./ 1083 – 1084م.) في نحو عشرين ألفًا... وكان تاشفين قد أفرج عن تلمسان وخرج إلى تُسَالة، ولقيته عساكر المنصور فهزموه، ولجأ إلى جبل الصخرة. وعاثت عساكر المنصور في تلمسان، فخرجت إليه حَوًّا، زوجة تاشفين أميرهم، متوسّلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر قصدها إليه، وأفرج عنهم... وانكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة، وأثخن بعدها في زناتة وشرّدهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط، ورجع إلى بجاية وأثخن في نواحيها، ودوّخت عساكره قبائلها، فساروا إلى جبالها المنيعة... وقد كان أسلافهُ يرومون كثيرا عنها فتمتنع عليهم، فاستقام أمره واستفعل ملكه»[1].

وعند المقارنة بين نصّي ابن خلدون، يتبيّن أنه حدّد في أوّلهما موقع أرض بني وُمانو الزناتيين، بالمغرب الأوسط شرق وادي ميناس، في

---

(1) العبر، 6، 359 فما بعدها.



أســافل منطقة شــلف، ولاحظ أنهم كانوا عونا لصنهاجة، في حروبها، ولما تقلّص مُلْكُها عن المغرب الأوسط، اعتزوا عليها، واختصهم الناصر ابن علناس بالولاية، فكانوا سيفا لقومه، وتزوّج المنصور بن الناصر أختَ رئيسهم ماخوخ، وكان لهم، بذلك، مزيد ولاية في الدولة؛ أمّا النص الثاني فلم يتطرق فيه إلى مواقع أراضيهم ويذكر فيه، مثلما ذكر في الأول، أن رئاسة زناتة كانت لبني ومانو، ورئاسة هؤلاء كانت لِمَاخوخ، محدّدا، على خلاف ما فعل في النص الأول، أن ذلك كان في عهد المنْصور، ومضيفا أن إحدى بناتهم، لم يحدد علاقتها بماخوخ، كانت زوجة الناصر، وهو ما لم يشر إليه النص الأول، ولم يضبط ابن خلدون، في نصه الأول، تاريخ استيلاء المرابطين على تلمسان، واكتفى بتحديده، بصورة تقريبية «أعوام سـبعين وأربعمائة» أي في السبعينات من المائة الخامسة الهجرية؛ أمّا في النص الثاني فقد حدّده بدقة، بسنة 474هـ/ 1081م.

ويتّفـق النصان، كمــا هو واضح، في وقوع معركــة بين ماخوخ وبين المنصــور وقَتْل هذا الأخيــر لزوجته، أخت ماخــوخ، انتقاما من أخيها الــذي هزمه، لكنهما يختلفان في ذكر أســباب تلــك المعركة؛ كما يتفق النصان أيضا فــي الحديث عن زحف محمد بن تينَعْمَر أو (ابن يَغمر) على المغرب الأوســط، وحصاره لمدينة الجزائــر، ولمّا مات، بعد يومين من بدء ذلك الحصار، خلفه أخوه تاشــفين واســتولى على أشير، غير أنهما يختلفان في تشخيص ظروف ذلك الزحف وذكر أسبابه.

وفيما عدا ذلك، فإن النصين السالفي الذكر لا يتفقان في شيء، مما ورد في كليهما: إذْ أشار أولهما إلى حملة واحدة للمنصور على تلمسان، وصفها بالمشهورة، وقد وَقعت سنة 486هـ./ 1093 - 1094م.، بعدما قَتل زوجته ولجأ أخوها ماخوخ إلى تلمسان، مضيفا أنه، أي المنصور، تمكن منها وأبقى فيها على عاملها ابن تينعمر.

وبالنِّسبة لما ورد في النص الثاني، فإن المنصور قام بحملتين على تلمسان: واحدة بعدما قتل زوجته، أُخت ماخوخ، وبعد استعانة هذا الأخير بالمرابطين، الذين أخذوا يناوشون بلاد صنهاجة وثغورها، فقام المنصور بحملة عليهم لكن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين أبرم معه صلحا، فعاد من حيث أتى.

وكانت حملة المنصور الثانية بعد استيلاء تاشفين بن يَغمر (تينعمر) على أشير، سنة 476هـ./ 1083 - 1084م.، وهي التي استولى فيها على تلمسان ثم انسحب منها إكراما لحواء زوجة تاشفين التي قصدته، متوسلة إليه بوشائج الصنهاجية. وينفرد النص الثاني بالحديث عن خرق المرابطين للهدنة التي أبرمها أميرهم مع المنصور، الذي أخرج إليهم جيشا بقيادة ابنه الأمير عبد الله، ولما سمعوا به تراجعوا إلى مُرّاكش، وانصرف هو إلى الإغارة على بلاد بني وُمانُو بالمغرب الأوسط، قبل أن يعود إلى والده، ثم دخل في حرب مع ماخوخ، رئيس



بنــي ومانو، قُتل فيهــا أخو ماخوخ ولجأ ابن هذا الأخير إلى تلمســان للاستعانة بابن يَغْمر (تينعمر)، فلبّى طلبه وزحف على مدينة الجزائر، وكان ذلك هو سبب قيام المنصور بحملته الثانية على تلمسان.

وبصرف النظر عما إذا كان المنصور قام بحملة واحدة على تلمسان أم بحملتين، فإن الحملة الوحيدة التي ورد الحديث عنها في النص الأول، والتي استولى المنصور فيها على المدينة المذكورة تم تحديد تاريخ وقوعها فــي نفس النــص بســنة 486هــ./ 1093 – 1094م. وتُطَابِقها، في النص الثانــي، الحملة الثانية التي تم تحديد تاريخها بســنة 476هـ./ 1083 – 1084م.، أي أن ابن خلدون هنا، حدّد تاريخين مختلفين، تفصلهما عشر ســنوات، لحدث واحــد، ومن المرجح أن يكون التاريــخ المقدّم في النص الأول (486) أدقّ: ذلــك أن حكــم الإمارة الحماديــة لم يكن بيد المنصور سنة 476هـ، بل كان بيد والده الناصر بن علناس، ولم ينتقل إليه إلاّ بعد وفاة هذا الأخير سنة 481هـ./ 1088 – 1089م.، والواضح في النصين أن الحملــة قام بها المنصور، أميــر البلاد، وليس ابن الأمير، علما أن بعض الباحثين، ومن بينهم Golvin L . حدّد تاريخ تلك الحملة بسنة 496 هـ./ 1102م، معتمدا في ذلك على ترجمة De Slane لكتاب العبر[1].

واللاّفــت للنظر فيمــا ورد بالنص الثاني، عن المنصــور بعد حملته هذه على تلمسان أنه «انكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة، وأثخن بعدها

(1) op.cit., P.126.



في زناتة، وشـرّدهم بنواحي الزاب والمغرب الوسط، ورجع إلى بجاية، وأثخـن في نواحيها ...»[1]، إنّ وصْف القلعة بحضرته بعد رحيله منها سـنة 483 هـ./ 1090 - 1091م.، أي بثلاث سـنوات قبل قيامه بحملته تلـك، يؤكد فكـرة قيامها بدور الشـراكة، في لعـب دور الحضرة، أي العاصمـة، إلى جانب بجاية، في التصـدي للأخطار التي تتعرض لها الدولة على حدودها الغربية.

وقـد اسـتقام أمـر المنصور، بعـد تلك الحملـة، واسـتفحل ملكه، علـى حدّ تعبير ابـن خلدون[2]، أيّ أن صراعه مـع جيرانه: قد توقف، والثورات الدّاخلية قد هـدأت، في بقية أيام حكمه التي انتهت بوفاته سنة 498هـ./ 1104 - 1105م.، وأيام وَلَديْه: باديس الذي مات في نفس السنة التي تولى فيها، والعزيز الذي خلفه، واستمر حكمه إلى أن توفي سـنة 515هــ./ 1121 - 1122م.، «وكانت أيامه هُدنـة وأمنا»[3]، خاصة فـي النواحي الغربية من مملكته حيث اتبع فيها سياسـة جدّه الناصر وأبيه المنصور، في بداية عهده، بعقد صلح مع زناتة ومصاهرة رئيسها ماخوخ الذي أنكحه ابنته[4].

(1) العبر، 6، 361.

(2) العبر، 6، 361.

(3) نفس المصدر، ص 362.

(4) نفسه.



وممّا لاشك فيه أن اطمئنانه على الأوضاع الأمنية، في تلك النواحي من دولته، هو الذي جعله يطمح إلى توسيع نفوذه في نواحيها الشرقية، وإخضاع كل من جَرْبة وتونس لحكمه، والتصدّي بنجاح لغارات الأعراب على القلعة ونواحيها[1].

3) في علاقتها بالبابوية.

وممّا لا شك فيه أيضا أن بجاية والقلعة قد لعبتا دور الشراكة، كعاصمتين للدولة الحمادية، في مرحلتها الثانية، فيما تكون قد نسجته من علاقات خارج الإطار المغربي، والتي كان يطغى عليها الطابع الدّبلوماسي، ومنها علاقتهما مع البابوية، والتي يوجد أَثَرُها في جواب وجّهه البابا جريجوري السابع (Grégoire VII) سنة 469هـ./ 1076م.، رَدّا على رسالة كان الناصر بن علناس بعثها له، مع الأسقف سرفاند المقيم في بونة (Hippone) ، وبعث له بهذه المناسبة هدايا معتبرة، وكلَّ الأسرى المَسيحيّين الذين اشتراهم من مختلف أنحاء إمارته، وما وَعده به، في نفس الرسالة، بِشراء كلّ أسير مسيحي، سيَعثُر عليه بعد ذلك، وبِعِتْقه.

وحَمَل جوابُ البابا مشاعرَ وُدّية، منه شخصيا، نحو الناصر ابن علناس، ومِن أبرز خادمَيّ، قصر البابوية في روما، وهما ألبيريك

(1) العبر، 6، 362.

(Alberic) وسَنْسيوس (Cencius) اللّذان عبّرا عن رغبتهما المُلحّة في ربط علاقة صداقة وتبادل الخدمات معه، وأوفدا له رسولا يؤكد له حسن نواياهما[1].

4) في علاقتها بالخلفاء الفاطميين، في مصر.

وكانت لسلاطين الدولة الحمادية، في هذه المرحلة أيضا، علاقة بخلفاء الدولة الفاطمية في مصر، ويدلّ على وجودها ذلك المَرْكَب البحري الذي أنشأه صاحب بجاية، يحي بن العزيز، وبعثه بهدية إلى صاحب مصر، فاستلمها وردّ له هدية، في نفس المركب الذي كان محملا، إضافة إلى ذلك، ببضائع وأثمان للتجار، ولما حلّ بالمهدية سنة 536هـ./ 1141 - 1142م.، أمر صاحبُها الأمير الحسن الزيري بحجزه وتفريغه، وبقي كذلك إلى أن جاءت صدمة أكتوبر فانكسر. وقد قام الأمير الحسن بتصرّفه هذا كردّ فعل على ما قام به صاحب ديوان مصر، من حجز مركب له في الإسكندرية وتعطيله عن السفر، سعيًا لبثّ الخلاف بينه وبين صاحب مصر، ولربط الصلة بين هذا الأخير وصاحب بجاية[2]، وبعبارة أخرى يمكن القول بأن هذا الإجراء الذي قام به الأمير الزيري يدخل في إطار التنافس، بينه وبين الأمير الحمادي على كسب ودّ صاحب مصر.

---

(1) يوجد هذا الجواب مترجما إلى العربية والفرنسية في عدة مراجع، منها: (Féraud (L.C): op.cit., P.150 sqq)؛ عويس: المرجع السابق، ص 187 فما بعدها.

(2) البيان، 1، 312.



5) في علاقتها مع الأندلس.

يمكن أن يُستنتج من لجوء «معزّ الدولة، بن صمادح من المريّة، فارا أمام المرابطين، لمّا ملكوا الأندلس، فنزل على المنصور وأقطعه تدلس (دلّس) وأنزله بها»[1]، أنّ العلاقات الدّبلوماسية كانت قائمة بين الحماديين وبين بعض ملوك الطوائف، في تلك الفترة؛ لأنه من الصعب تصوّر أن إتمام هذه العملية بنجاح، تكون من باب الصُّدف، وليست وليدة تحضير مسبق عن طريق الأندلسيين الذين كانوا يتردّدون، بكثرة، على أراضي الدولة الحمادية آنذاك، وخاصة منها بجاية والقلعة.

6) في علاقتها مع النُّورمان.

لا تشير المصادر إلى أية علاقة بين الحماديين والنُّرمان، بصقلية، إلاّ أنَّ تَمكُّن هؤلاء من الانتصار على المسلمين هناك، وفي جنوب إيطالية، ونموّ قوّتهم البحرية، جعلتهم يطمحون إلى التوسع في الأراضي الإسلامية المقابلة لمملكتهم، على الضّفة الجنوبية للبحر المتوسط، وخاصة منها الأراضي الزيرية التي كان أصحابها يعانون من ضعف، نتيجة تعرّضهم للزحف الهلالي[2]. ومع أن الأراضي الحمادية كانت

---

(1) العبر، 6، 361.

(2) أنظر عويس: المرجع السابق، ص 186.



تبدو بعيدة، إلى حدّ ما، عن خطرهم آنذاك، إلاّ أنّ أصحابها سرعان ما وجدوا أنفسهم وجها لوجه معهم: ذلك أنّهم لمّا أرسلوا جيشا، بريا وبحريا، لحصار المهدية أنجدها الأسطول النّورماني، بطلب من صاحبها، الأمير الحسن، وفَكَّ عنها الحصار البحري، كما تبين سابقا.

وبعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ، أي في سنة 537هـ./ 1142 – 1143م.، استولى أسطول رُوجار على مدينة جيجل «عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار، وهي عَمَالةُ بني حماد من ولاّة بجاية» على حدّ تعبير ابن أبي دينار[1]، ومع ذلك لم يصدر منهم أي ردّ فعل، مما يدلّ على شعورهم بالضعف، أمام هؤلاء الغزاة الذين راحوا يستولون على المدن الإفريقية، الواحدة تلو الأخرى، بما فيها مدينة المهدية الحصينة، عاصمة الدولة الزيرية، التي تمكنوا منها سنة 543هـ[2]/ 1148م.

وأصبحت إفريقية والمغرب الأوسط مهدّدتين بالسقوط، بكاملهما تحت النفوذ النرماني، فلم يخلصهما منه إلاّ الخليفة الموحدي، لكن ذلك كلف الأُسَر التي بقيت تحكم، هنا وهناك، وخاصة الأسرة الحمادية، ثمنًا باهضا.

---

(1) المؤنس، ص 93.

(2) قارن: البيان، 1، 313؛ المؤنس، ص 94 – 95.



استيلاء الموحدين على بجاية والقلعة.

في الوقت الذي كانت ظروف الزيريّين والحماديّين، بإفريقية والمغرب الأوسـط، تتدهور أكثر فأكثر، أخذت قُوى الموحدين تتصاعد وتزدهر، على حسـاب المرابطين، بالمغرب الأقصـى، وقد تولّى قيادتها، بعد وفاة المهـدي بن تومرت، حوالي 539هـ./ 1144م.، قائدٌ كبير هو عبد المؤمن ابـن علي، ومع أن الأوضاع كانت تحت سـيطرة الموحدين آنذاك، إلاّ أن الأمـر تطلّب منهم مواصلـة جهودهم الحربية، بضعة سـنوات أخرى، حتى تمكنوا من شلّ قدرة صنهاجة في المغرب الأقصى، وفيما بين 540 و542هـ./ 1145 و1147م.، طردوها من الأندلس، وبعدئذ وجّهوا أنظارهم إلى المغربين: الأوسط والأدنى، واستعدوا للاستيلاء عليهما[1].

وفـي أواخر سـنة 546هـ./ 19 أبريـل 1151م. انطلقـت حملتهم من مرّاكش، بقيادة الخليفة عبد المؤمن نفسـه، متوجهة إلى سـبتة[2]. حيث أظهر للنّاس[3] أو تبيّن لهم[4] أنه يريد الأندلس، وهناك أخذ ما يكفي من

---

(1) أنظر: Golvin : op.cit., P. 128.

(2) Ibn el-Athir : «Annales du Maghreb et de l'Espagne, trad.par E.Fagnan», dans Revue Africaine, année 1901, n° 240, , P. 91. ؛ حسب ابن عذاري فإنه توقف شهرين في سلا، يردّد الرأي في نفسـه (البيـان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسـم الموحدين، تحقيـق محمـد إبراهيـم الكتاني وآخريـن، دار الغرب الإسـلامي، بيـروت- لبنان، 1406هـ/ 1985م.، ص 45).

(3) ابن عذاري: نفس المصدر، ص 45.

(4) Ibn el-Athir: op.cit., P.91.

الوقت لتجهيز أسطوله وتجميع المقاتلين من الجهات المجاورة[1] وكان «حين حركته هذه من مرّاكش خاطب عامله على تلمسان... يأمره بمنع التجار المسافرين من .. التحرك إلى إفريقية برًا وبحرا ...»[2]. أو أنّه فعل ذلك بنفسه، أثناء إقامته في سبتة[3]. وفي صفر 547هـ./ مايو 1152م.، خرج من سبتة[4] «مُظهِرا الإنصراف إلى مرّاكش، وأشاع الذكر بذلك للناس، ...»[5]، وبعدما خرج من منطقة طنجة، ومرّ بقصر عبد الكريم، وأصبح واضحا أنّه يسير نحو الشرق، أصدر أمره، عن طريق منادي المحلّة، بمنع أي كلام في موضوع اتجاه الحملة. وبقتل من خالفه[6] ثم راح يسرع الخُطى، ويضمّ إلى جيشه الفِرَق العسكرية الموجودة في طريقه[7].

وما أن وصلت مقدّمة الحملة الموحدية إلى مدينة الجزائر، حتى فرّ منها عاملُها القائد بن العزيز، أخو الأمير يحي، تاركا فيها ابن عمه الزيري،

(1) Ibid.

(2) ابن عذاري: نفس المصدر، ص 46.

(3) Ibn el-Athir : Ibid, P.91.

(4) Ibn el-Athir : op.cit., P.91؛ تحدّد بعض المصادر تاريخ هذه الحملة بسنة 544هـ/1149 – 1150م.، (البيدق (أبو بكر بن علي الصنهاجي): أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ/1974م.، ص 132؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص 115.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 45 – 46؛ العبر، 6، 490.

(6) نفس المصدر، ص 46.

(7) Ibn el-Athir : op. Cit., P.91.



الحسن بن علي بن يحي الذي استولى منه أسطول روجر، صاحب صقلية، علـى عاصمته المهدية، ولما لجأ إلى يحي فـي بجاية «أجازه إلى الجزائر وأنزلهُ بها مع أخيه»[1] هذا. وبعد فرار القائد قدّم سـكان الجزائر، على أنفسهم، الحسن بن علي فأخذ لهم الأمان من عبد المؤمن[2]، الذي لم يُضيّع وقته هناك، بل واصل زحفه شرقا، في اتجاه بجاية، فلم يشعر صاحبها، يحي بن العزيز، به حتى وصل إليه أخوه القائد، بعد فوات الأوان، وتمكن عبد المؤمن من الإسـتيلاء على العاصمة الحمادية، بسهولة، في ظروف غامضة، يمكن تلخيصها في ثلاث روايات مختلفة، هي:

أ) - روايـة ابن خلدون التي تُفيد أن يحي، عندما علم بالأمر أخرج «أخاه سَـبُع للقاء الموحدين، فانهزم وملك الموحـدون بجاية»[3]، وركب يحـي البحر إلى صقلية قصد الذهاب إلى بغداد، ثم حوّل طريقه إلى بونة لكن عامله عليها، أخاه الحارث، «نكر عليه سوء صنيعه وإخراجه عن البلاد»[4] أي أنه أسـاء استقباله أو لم يستقبله بالمرة، ممّا اضطره لتحويل طريقه إلى قسـنطينة، حيث تخلّى له أخوه الحسن عن الأمر، فأقام بها إلى أن وصلها عبد المؤمن فبايعه وتنازل له عنها سنة 547هـ./

1 العبر، 6، 363.

2 نفسه.

3 العبر، 6، 363 – 364.

4 نفسه.

1142 – 1143م، ونُقل إلى مراكش فسكنها . وفي سنة 548هـ./ 1143 – 1144م، انتقل إلى سَلاَ وهناك توفي في نفس العام[1] .

ب) – رواية ابن عذاري، وجاء فيها أن يحي، بعدما وصل إليه عامله من الجزائر، فَرّ في ثلاث قطع بحرية، ملأها بأهله وذخائره[2] . ومع الأسف فإن نص ابن عذاري هنا مبتور، لم يتضح فيه المكان أو المدينة التي قصدها يحي، وقد تكون بونة، الواردة في رواية ابن خلدون، وهذا ما يمكن استنتاجه مِنْ «وكان فيها أخوه شقيقه، فأحس منه غدره، فرحل عنه في البحر،... إلى مقربة من قسنطينة ...» وقد يكون الآخ الشقيق المشار إليه هنا، هو الحارث المذكور في نص ابن خلدون، غير أن يحي، حسب رواية ابن عذاري، لم يدخل قسنطينة، بل بقي على مقربة منها، وهناك حاصره الموحدون وعقدوا له الأمان، قبل نقله إلى مراكش إلخ ... أمّا مصير مدينة بجاية، حسب هذه الرواية فبقي بين يدي «أبي عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون. وقد كان بينه وبين أبي محمد عبد المؤمن عهد على ذلك وموافقة[3] » ففتح له بَابها، أي أن هذا الأخير مكّنه منها بدون قتال، بعد فرار صاحبها، يحي، عنها .

(1) العبر، 6، 364 .

(2) البيان، قسم الموحدين، ص 46 .

(3) البيان، قسم الموحدين، ص 46 .



جـ) - رواية ابن الأثير، وتقول: إن يحي أهمل هموم الحكم ليتفرّغ للصيد والمَلذات، وترك عبء الأمور لبني حمدون، فخرج أحدهم، وهو مَيْمون بن حمدون، من بجاية على رأس الجيش، بمجرّد ما علم بخبر الزحف الموحدي، غير أن رُؤية مقدمة عبد المؤمن وحدها، وهي متكوّنة من 20.000 فارس، كانت كافية لانهزامه، ودخلت هذه المقدمة بجاية، دون مقاومة، وكان عبد المؤمن يسير خلفها، على بُعد يومين. أمّا يحي ابن العزيز الذي فرّت عنه جيوشه، برًّا وبحرا، فقد انزوى في قلعة قسنطينة، في حين لجأ أخواه: الحارث وعبد الله إلى صقلية، وسيطر الغُزاة على كلّ الإمارة دون قتال[1]. وفيما بعد قصد عبد المؤمن وطلب منه الأمان فأمنه ونقلهُ إلى المغرب[2]...إلخ.

فملخصّ غالبية كلام الرّوايات الثلاثة يفيد أن الخليفة عبد المؤمن ابن علي تَمكّن من الإستيلاء على بجاية، عاصمة الدولة الحمادية، بدون قتال، وأن أميرها، يحي بن العزيز استسلم له بقسنطينة، فنُقل إلى المغرب الأقصى فعاش مكرّما إلى أن مات.

وينفرد ابن الأثير بالقول: «إن صنهاجة اجتمعت بقيادة شخص يسمى أبو قَصْبة، في أعداد كبيرة، بعد الإستيلاء على بجاية، وانضم إليها الكثير من الكُتاميين ولوّاتة وغَيرهم، لغرض قتال عبد المؤمن،

---

1 Ibn el-Athir : op.cit., PP. 91-92.

2 Ibid, P. 111.

واصطـدم هؤلاء بالجيش الموحدي، الذي كان يقوده أحد الخَمْسين، وهو أبو سعيد يَخلف، في سفح الجبل الواقع شرق المدينة المذكورة: فانهزم أبو قَصْبة، وقُتل معظم جنوده ونُهبت أموال المنهزمين وسُلب أطفالهم ونساؤهم»[1].

وبعد هذه المعركة، حسب نفس المصدر[2]، أو بعد سقوط بجاية مباشرة، حسب ابن خلدون، توجّه رجال الخليفة الموحدي إلى القلعة، بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن فدخلوها بالقوة، بعد قتل حَوْشَن بن العزيز، أي أخي الأمير يحي، ومعه ابن الدَّحامس، من رؤساء قبيلة الأثبج العربية، ثم خرّبوها[3]، ممّا يعني أن حاميتها حاولت مقاومتهم، على عكس ما يستنتج من كلام ابن الأثير القاضي: بأن رؤية الجيش الموحدي كانت كافية لكي يفرّ السكان إلى الجبال المجاورة؛ فتمّ الإستيلاءُ عليها، ونهبُ كلّ ما كان بها، وقسّم عبد المؤمن غنائمها على أتباعه[4]، أي أن السكان، حسب هذه الرواية، لم يحاولوا مواجهة للجيش الموحدي، ومع ذلك، تعرّضوا للنّهب والسّلب، علمًا بأن الجيش المذكور لم يسبق له وأن تصرف بمثل هذا الأسلوب: لا في الجزائر ولا في بجاية اللّتين لم تحاولا مقاومته، فلماذا

---

(1) Op. cit., P.112.

(2) Id.

(3) العبر، 6، 364، 491.

(4) Ibn el-Athir: op.cit., P.112.

إذًا يعامل القلعة بطريقة مختلفة؟ فإنْ عَامَلَها بطريقة مختلفة، فلابد وأن تكون حاميتُها تصدّت له، كما يتبين، من رواية ابن خلدون.

وبعد القلعة راح الموحدون يواجهون مدينة بونة، وكان عاملها الحارث بن العزيز، الذي لم يُرضِه تصرف أخيه يحي معهم، كما أسلفنا، قد استنجد بِرُوجَر، صاحب صقلية، وحاول مقاومتهم لكنهم هَزموا جيشه وقتلوه، وبذلك تم القضاء على الدولة الحمادية[1].

وما يلفت انتباه المتتبع لِكَيْفية إعداد الخليفة عبد المؤمن، لحملته على الأراضي الحمادية عموما، وعلى بجاية خصوصا، هو ذلك الكتمان التام الذي أحاط به نفسه، حتى لا تُعرف وجهتها الحقيقية، وما أَوْهم به الناس من أنها تُجهّز لغزو الأندلس، ومنعُ سفر التّجار والمسافرين، برّا وبحرا، نحو المغرب الأوسط وإفريقية، وكذلك الحديث عن مَقْصدها في صفوف جيشه؛ لدرجة أنه أعدم أحد عبيده، يسمى ميمون آغزاف، لأنه نطق وهو يلعب أمامه، بقوله: «كذا نفعل يا أمير المؤمنين، في بجاية إن شاء الله»[2].

من شأن هذه الأمور كلها أن تفرض تساؤلا، هو: لماذا أخذ هذه الاحتياطات الاستثنائية؟ وما تبريرها؟

1- العبر. 6، 364.

2- البيذق: المصدر السابق، ص 133.

لعلّ التفسـير المعقول لتلك الإجراءات يَكْمن، في القول: إن الرجل كان مطلعًـا علـى أحوال تلك البـلاد، منذ أن عرفهـا وتنقّل في بعض نواحيهـا، قبل وبعد لقائه مع مهـدي الموحدين، محمد بن تُومرت، في قريـة مَلاّلة، مـن ضواحي بجاية، في عهد الأميـر العزيز بن المنصور سنة 512هـ.[1]/ 1118 – 1119 م. وقد رأى منه ابن تومرت «من النجابة والنهضـة ما تَفـرّس فيه التقـدم والقيام بالأمـر»[2]، أي مـن المَوْهبة والنشـاط ما جعله يشـخّص فيه ميزة التفوّق التي تمكنه من ممارسة السـلطة[3]، وعمل على إقناعه بالبقاء إلى جانبه[4]، بحجة أن ما يريد اقتباسـه من العلم في المشرق، إنما هو موجود في المغرب[5]، أي عنده وبقـي يُلحّ عليه حتى أقنعـه و «انضاف إلى خدمته، وأطلعه... على ما فـي مُراده، فبايعه على مؤازرته في الرخاء والشـدة»[6]. وقد اكتسـب عبد المؤمن مع ابن تومرت، تجربة كبيرة، منذ سـفرهما معا من بجاية نحـو المغرب، بفضل ما خاضاه، معًا، من معـارك ضد دولة المرابطين

(1) قارن: العبر، 6، 362؛ Ibn el-Athir: op.cit., P.361؛ النويري: المصدر السـابق، ص 397؛ يتفـق ابن أبي دينـار مع المؤرخين المذكورين في قولهم بأن ذلـك اللقاء كان في بجاية لكنه يضيف عبارة «وقيل تلمسان» (المؤنس، ص 111).

(2) النويري: نفس المصدر، ص 397.

(3) أنظر: Ibn el-Athir: op.cit., P.361.

(4) أنظر البيدق: المصدر السابق، ص 41 فما بعدها.

(5) نفس المصدر، ص 41.

(6) المؤنس، ص 112.



وتحمّله مسـؤولية تسـيير شـؤون الدولة الموحدية، بَعـد وفاة المهدي، سنة 524هـ./ 1129 – 1130م.، ومبايعته بالخلافة، بمواصلة حربه، في بـلاد المغرب والأندلس، ضدّ الدولة المرابطية إلى أن أسـقطها سـنة 541هـ[1]/ 1146 – 1147م.

إنّ مثـل تلك الفطنة والمهارة، البارزتين، في شـخصية عبد المؤمن، لدرجـة جعلت ابـن تومرت يعمل ما في وُسـعه للتمسـك بـه وتهيئته لخلافته، إضافة إلى ما قد يكون اكتسبه من تجارب حربية في الميدان، هذه الصفات الطبيعية والمكتسبة من شأنها أن تُلهِم صاحبها فيتصرف بِحكمة، وفق حسابات دقيقة، تُمليها عليه المعطيات الميدانية.

ومن غير شـكّ أنّه كان يدرك التركيبة الديمغرافية لمنطقة المغرب الأوسـط وأوضاعه السياسيّة، بفضل اطلاعه الشخصي، حين تعرّف عليه وأقام فيه، بعض الوقت، وكذلك بفضل ما كانت تصله من معلومات، عمّا كانت تقع فيه من حـروب الزيريين والحماديين والنّورمان، الذين تمكّنـوا من الاسـتيلاء على مدينـة المهدية ومدن سـاحلية كثيرة، في المغربين: الأدنى والأوسط، وما كان بِوُسع أيّة واحدة من هذه القوى أنْ

(1) نفس المصدر، ص 112 فما بعدها؛ البيدق: المصدر السـابق، ص 43 فما بعدها من عدة صفحات؛ النويري: المصدر السـابق، ص 397 فما بعدها من عدة صفحات؛ ابن أبـي زرع الفاسـي: كتاب الأنيس المطـرب بروض القرطاس في أخبـار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. UPSALIAE 1843، ص 121 فما بعدها.



تجمعه من تحالفات قَبَلية، عربية وبربرية، للإستعانة بها، في حروبها مـع خصومها، وتيقّن أنّ الحماديين، يُمكنهـم أن يجمعوا حولهم عددا من تلك القبائل، من شـأنها أن تشـكل خطرا على جيشه، في حالة ما إذا علموا بزحفه عليهم في الوقت المناسب.

وهـذا ما جعلـه، بكل تأكيـد، يفكر في اسـتخدام عنصر المفاجأة ضدهـم، ويبالـغ في كتمان سـرّ توجّه جيشـه نحوهـم، بطريقة غير معهودة، قصـد توجيه ضربة قاضية لهم، مـن الوهلة الأولى، تمنعهم من استقطاب القوى القبلية المؤثرة حولهم، وخاصة العربية منها، ولم يكن يَخفى عليه، لا مَحال، أن نجاح عزل المسـتقطِب عن المسـتقطَب، هو ما يضمن له حسـم الحرب لصالحه، وكانت خطته تلك سليمة إلى أبعـد حدّ، فتمكّن بفضلها، من إخضاع بعض أمراء الأسـرة الحمادية لسلطته، ونقلهم إلى مرّاكش، وقَتْلِ من حاول منهم مقاومة جيشه، ولم تتفطن القبائل العربية التي كانت تسبح في فلك إمارتهم حتى وجدت كل شيء انتهى تقريبا.

وراح بنـو هلال والأثبج وزُغْبة ورياح وقسـرة، ممّن ينتشـرون «من أرض طرابلس إلـى أقصى المغرب»[1] يتجمعون بظاهر باجة، عاقدين العـزم «على الدفاع على مَلِكِهم يحي بن العزيز»[2]، لاعتقادهم أن عبد

(1) النويري: المصدر السابق، ص 417.

(2) العبر، 6، 491.



المؤمن، إنْ جاورهم، سيُجليهم من بلاد المغرب، ممّا جعلهم يحاولون إخراجه قبل أن يتمكن منها[1]. ويُسجَّل لهؤلاء أن صاحب صقلية، روجار، راسل أمراءهم «يعرض عليهم أن يُرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم، على أن يرسلوا إليه رهائن فشكروه، وقالوا لا حاجة بنا إلى نجدته، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم»[2] (أين أنت يا زمن؟).

وعلى الرّغم من أنّ المقاتلين العرب كانوا أضعاف الثلاثين ألفا، التي كانت في صفوف الموحدين، إلاّ أنّ النّصر كان عندما اشتبك الطرفان، في معركة، بمنطقة سطيف، حَليف هؤلاء بعدما صدَموا أعداءهم بغتة، وهم على غير أُهبة بين جبال، حسب النويري[3]، أو أن النصر كان حليف الموحدين، بعد قتال دام ثلاثة أيام بين الطرفين، حسب ابن خلدون[4] الذي لا يشير إلى التفوّق العددي للعرب، ولا إلى مباغتتهم من قبل الموحدين. والمهم أن صاحبي هذين المصدرين يتفقان مع غيرهم، من أن الهزيمة في النهاية، كانت على العرب الذين

1) النويري، المصدر السابق، ص 417.

2) نفسه.

3) المصدر السابق، ص 418؛ حسب نفس المصدر فإنّ قادة هذا الجيش الموحدي هم: أبو سعيد يخلف وعبد العزيز وعيسى أولاد أبي مَغَار (نفسه)؛ حسب ابن خلدون فإن قائدهُ هو عبد الله بن عبد المؤمن (العبر، 6، 461).

4) العبر، 6، 461.



فرّوا، تاركين لأعدائهم نساءهم وأطفالهم وأموالهم، فقسّم عبد المؤمن الأموال على جنوده وصان أطفالهم ونساءهم وراسل ذويهم فقدموا إلى مرّاكش لاستيلامهم، فوصلهم بالأموال وردّهم إلى قومهم[1]، أو أنّه «أحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة، فاسترقَ قلوبَهم بذلك وأقاموا عنده»[2].

والمفيد أنّ عبد المؤمن حقّق نصرين حاسمين، بفضل تطبيقه لخطّة السرّية التامة، التي التزم بها أثناء تجهيز حملته، وكان على صواب في ذلك، لأنّ خصومه، من حمّاديين وعرب، كانوا سيتحالفون ضده، لو علموا بِنوَاياه في الوقت المناسب، ولا شك أنهم، لو فعلوا ذلك لأثّروا عليه سلبا؛ فحتى ولو تمكّن من هزيمتهم في نهاية الأمر، سيكون ذلك بدفع ثمن باهض. علما أنه كان يُدرك جيّدا قوة تلك القبائل العربية، بدليل أنه بعدما قرّب منه زعماءها الوافدين عليه، من إفريقية والمغرب الأوسط، لِتَسلُّم أبنائهم ونسائهم، دسّ بينهم من يدفعهم ليطلبوا منه أن يجعل لهم ولي عهد من ولده، ففعلوا ولم يُجبهم، لِعُلوّ منزلة عمر الهِنتاتي لدى الموحدين، و هو الذي من المقرر أن يتولى الأمر بعده، ولكن هذا الأخير، عندما بلغه هذا الخبر خاف على نفسه، وذهب إلى عبد المؤمن، وخلع نفسه، وحينها نصّب عبد المؤمن ابنه محمّدا وَليّا

(1) العبر، 6، 461.

(2) النويري: المصدر السابق، ص 418.



للعهد، وذلك سنة 551هـ./ 1165 – 1166م.، ثم انتهز الفرصة لتولية بقية أبنائه على مختلف الولايات بما فيها ولاية بجاية[1].

وعلى العموم فإنّ الدولة الحمادية سقطت، وزالت من الوجود، لكن عاصمتها بجاية استمرت قائمة، ولم يصبها أيّ أذًى نتيجة هذا السقوط، وقد أقام فيها عبد المؤمن، بعد استيلائه عليها، مدّة شهرين «هدّنها [فيها] وفتح جميع أحوازها وأقطارها وقدّم فيها طلبة الموحدين»[2] قبل عودته إلى مرّاكش سنة 547هـ.[3]/ 1152 – 1153م.، أو 548هـ.[4]/ 1153 – 1154م.، وفي سنة 549هـ./ 1154 – 1155م.، حسب ابن أبي زرع[5] أو551هـ./ 1156 – 1157م.، حسب النويري[6]، ولّى عبد المؤمن ابنه، السيد أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها وأصحبه أو استَوْزَر له أبا سعيد يخلف بن الحسن[7] أو يخلف بن الحسين[8].

1- النويري: المصدر السابق، ص 418 – 419؛ حسب ابن أبي زرع فإن ذلك حدث سنة 549هـ./1154 – 1155م.

2- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 126؛ قارن: العبر، 6، 491.

3- العبر، 6، 491.

4- القرطاس، ص 126.

5- نفسه.

6- القرطاس، 419.

7- القرطاس، ص 126.

8- العبر، 6، 491.

الفصل الثاني

تاريخ بجاية في ظلّ الدولة الموحديّة



دور ولاية بجاية السياسي والعسكري أيّام الخليفة عبد المؤمن

تحوّلت بجاية، عاصمة الدولة الحمادية، بعد استيلاء الموحدين عليها، إلى عاصمة إحدى ولاياتهم، وتُغطّي نفوذ وُلاّتها نفس الرقعة الجغرافية التي كانت تغطيها نفوذ الأمراء الحمّاديّين، وهذا ما يفسّر سكوت المصادر عن الخوض في هذا الموضوع، باستثناء بعض الإشارات التي يُستنتج منها، أن رُقعة وِلاية بجاية الموحدية، تنطبق على رقعة إمارة بجاية الحمادية كقول النويري: إنّ عبد المؤمن جعل ابنه أبا محمد عبد الله واليا «على بجاية وأعمالها»[1]. عِلمًا أنّ الخليفة أبَا محمد عبد المؤمن بن علي استولى «على بجاية وأنظارها، وجميع أقطارها»[2] ثمّ رجع إلى حضرته، مرّاكش، سنة 547هـ/[3]. وهناك قسّم ولايات دولته على أبنائه[4].

---

1 العبر، ص 419؛ عن امتداد أعمال بجاية، أنظر: الخريطة رقم 3، ص 381.

2 ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 47.

3 نفس المصدر، ص 48؛ ابن خلدون: العبر، 6، 491.

4 هؤلاء الأبناء هم: السّيد الأعْلى أبو حفص، وولاه مدينة تلمسان؛ والسيّد أبو سعيد؛ وولاه غرطانة؛ والسيّد أبو الحسن، وولاه على مدينة فاس (ابن عذاري: البيان، قسم الموحّدين، ص 50)؛ والسيد أبو سعيد، وولاه على سبتة (العبر، 6، 491)؛ أو أنه ولّى هذا الأخير على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة (النويري: المصدر السابق، 419)؛ وقد ولّى، حسب البيدق، عُمر على تلمسان، ويوسف على إشبيلية، وعليّ على فاس،=

وكانت ولاية بجاية من نصيب «السيد أبي محمد عبد الله»[1]، فتوجّه إليها برُفقة الشّيخ أبي سعيد يخلف بن الحسين «على معنى التدريب»[2] أو أن أباه استوزره له[3]. وقد كلّف الخليفةُ ابنه بشنّ، «الغارات على نواحي إفريقية، وأنْ يُضيّق على تونس، ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها عن طريقه»[4]، أي عن طريق بجاية.

وبعد وصول عبد الله إلى مقرّ ولايته، جهّز جيشا «من المصامدة والعرب وغيرهم»[5] وزحف به على المدينة المذكورة. وما من شك أن اختيارها كهدف لتلك الحملة يعود لأهميتها الإستراتيجية والتي لخّصها عبد الواحد المراكشي سنة 621هـ./ 1224 – 1225م.، بقوله: «وهي حاضرة إفريقية بعد القيروان، وكرسّي مملكتها، ومقرّ تدبيرها، وإيّاها يستوطن والي إفريقية»[6].

= وأبا الربيع على تادلا، وسمّى السوس لابنه أبي زيد بن اللمطية، ولم يَسِر إليه، لأنه كان صبيا صغيرا (المصدر السابق، ص 138).

(1) العبر، 6، 491؛ بالنسبة لابن عذاري، فهو السيد الأسنى أبو محمد عبد الله (المصدر السابق، قسم الموحدين، 60).

(2) البيان، قسم الموحدين، ص 50.

(3) العبر، 6، 491.

(4) المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب [من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحّدين]، ضبطه وصحّحه وعلّق على حواشيه وأنشأ مقدّمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1368هـ./ 1949م.، ص 227 – 228.

(5) المراكشي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 228.

(6) نفس المصدر، ص 228.



وكانت من المدن الساحلية التي استولى عليها «لوجار بن لوجير المعروف بابن الدوقة»[1] (روجار)، وولّى عليها عبدَ الله، أو أحمد، ابن خرسان[2].

والمفيد أن عبد الله حاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير ميّاهها. ورغم طول الحصار على ابن خرسان وأنصاره، إلاّ أنهم تمكنوا في نهاية الأمر من اختراق صفوف عدوّهم، وتكبيده خسائر معتبرة في الأرواح، وأُجْبر عبد الله على الانسحاب ببقية أصحابه إلى بجاية حيث بعث تقريرا لوالده، أخبره فيه بما حدث له[3].

ويظهر أن ذلك التقرير وصله، بعدما خرج من مدينة مرّاكش إلى مدينة سلا، استعدادا لعبور البحر إلى الأندلس بسبب ما بلغه، سنة 553هـ./ 1159 – 1160م.، من هزيمة النّصارى لابنه، السيد أبي يعقوب، بظاهر إشبيلية واضطراب أحوالها السياسية، بحدوث بعض التمرُّدات، هنا وهناك، غير أن مضمون المعلومات التي تلقّاها عن إفريقية جعله، على ما يبدو، يُغيّر وُجهة حملته من الأندلس إليها[4]

(1) المراكشي: المصدر السابق ص 228.

(2) نفسه، أنظر هامش 1.

(3) نفسه.

(4) أنظر، ابن خلدون: العبر، 6، 493؛ بالنسبة للبيدق فإن عبد المؤمن غزا إفريقية، واستعاد مدينتي تونس والمهدية من النرمان، ثم عاد إلى مرّاكش فأقام بها عامين، وعندئذ هزم النّصارى وابن مردنيش وابن هَمُشْك ومُدار الأقرع وابنه الأمير أبا يعقوب قرب اشبيلية، كما هَزم ابن مردنيش وابن هَمُشْك أبا سعيد بغرناطة، ممّا=

لأنّ هاجس تحرير مدنها لم يفارقه، وبالأخص المهدية منها، من نُرمان روجار الصّقلي.

وكان سكان هذه الأخيرة قد استنجدوا به، وهو في مرّاكش، عندما احتل روجار مدينتهم سنة 543هـ./ 1148 - 1149م.، وعاث أصحابه فسادا في مدينة زويلة المحادية لها، فوعدهم بنُصرتهم في الوقت المناسب، وبعدما أسقط الإمارة الحمادية واستولى على أراضيها، ونظّم شؤون إدارة دولته، بتقسيم ولايتها على أبنائه، أمر هؤلاء الأبناء «بتحصيل الغلاّت، وأن تُترك في سُنبلها وتخزّن في مواضعها، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا ذلك وجمعوا غلات ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال»[1] وهو ما يعني، بكل وضوح، أنه استعدّ لُوجِسْتيًا لخوض حرب طويلة المدى، ضد مختلف الأطراف المسيطرة على مدن إفريقية وخاصة منها النّورمان، وممّا لا شك فيه أنّ ولاية بجاية، باعتبارها حلقة وصل بين منطقتي إفريقية والمغرب الأقصى، لعبت دورا رئيسيا في تزويد تلك الحملة بما احتاجت إليه من مؤونة، سواء بالنسبة للجيش البرّي أو بالنسبة للجيش البحري، لكن المصادر، مع شديد الأسف، لا تشير إلى

= جعل عبد المؤمن يسير إلى سلا ومنها يَعبُر إلى الأندلس للجهاد (المصدر السابق، ص 146 فما بعدها)، وهذا يعني: أن تاريخي حملتي إفريقية والأندلس متباعدان، وبالتالي فهُو لم يُحوّل وجهة حملة الأندلس إلى إفريقية، كما ورد في كتاب العبر.

(1) النويري: المصدر السابق، ص 421.



ذلــك، بل إنها لم تُوضّح ما إذا كان لِبِجَاية، كولاية موحدية، مســاهمة عســكرية في المعارك التي خاضها جيش عبد المؤمن، في حملته تلك، باســتثناء ابن خلدون الذي أفاد بأنّه «بعث ابنه عبد الله (والي بجاية) مــن مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاســتخلصها مــن يد بني كامل المتغلبين عليها .... واســتخلص قَفْصة من يد بني الورد، وزرعة من يد بني بروكسن، وطبرقة من يد ابن علال، وجبل زغوان من يد بني حماد ابن خليفة، وشــقبنارية من يد بني عيّاد بن نصر الله، ومدينة الأربص (الأربس) مِن يد مَن ملكها من العرب....»[1]

وبعــد تمكّن الخليفــة الموحدي من تحرير المهدية والســيطرة على بقية المدن الإفريقية سنتي: 555 – 556هـ./ 1160 – 1161 – 1162م.، كرّ راجعا إلى حاضرتــة، مرّاكش بالمغرب الأقصى، ومرّ في طريق عودته تلــك، بمدينة بجاية، فدخلها متنزها، وراح يســترجع ذكرياته؛ ولما حل بإحــدى سُــويقاتها، الواقعة قرب باب تَاطُنت، ســأل عن أحد تجارها فأُخبر بوفاته، فأمر بشــراء جميع دَكاكين تلك السُّــويقة وأوقفها على عَقَبــه، وأمر بإعطائهم مالا كثيرا، مكافأة لــه، لأنه رفض ذات يوم أن

(1) العبــر، 6، 494؛ تســند غالبية المصــادر فتح هذه المناطق إلــى الخليفة عبد المؤمن نفســه، بل منها من يشــير إلى أن طاعة غالبيتها للموحدين كانت تلقائية، ومنها من تقــول إن عبد المؤمن بعث إليها من أخضعها، دون أن تســميه (قارن المراكشــي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 230؛ النويري: المصدر السابق، ص 423؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص 116؛ ابن أبي زرع: القرطاس، ص 129).



يأخذ منه سَكّين دواته رهنا، في مقابل ما اشتراه منه من خُبْزٍ وإدام، له ولأصحابه، الذين لـم يُطعَموا عدة أيام، بل وضع دكانه تحت تصرفه، يأخذ منه ما شاء، وقت ما شاء، لِمَا توسّمَه فيه من خير[1].

كما تَذكَّر اليوم «الذي ركب فيه مخترقا بجاية إلى (الأمير) يحي بن العزيز، يَمشـي بين يديه، راجلا، وقد علاه الغُبار»[2] فاستدعاه وذكّره بيـوم خرج فيه إلى بعض منتزهاتـه، وجمعهما أحد أبواب بجاية: كانا واقفيْن أمامـه، فوطئت دابتُه عَقِبَه، فلما نظر إليه أمر عبدا له فوَكزهُ وكزة كادت تسـقطه على الأرض، ولما اسـتحيا يحـي، وظن أنه يريد الانتقـام منـه، وراح يعتذر له، قال له الخليفة إنمـا ذكّرتك بذلك على سبيل الاعتبار، كي تعرف تَقلّب الأيام بأهلها، وأمر بطمأنته[3].

ومـا يمكن اسـتخلاصه، من هاتين الروايتـين، أن عبد المؤمن عاد مـن إفريقية، بعد تحرير مدينة المهديـة من النّرمان، عن طريق مدينة بجاية، ولم يُشـر خلال اسـترجاعه لذكرياته بها إلى أي تغيير وقع لها حتى ذلك الوقت، بسـبب أحداث انتقال السـلطة فيها من الحمّاديين إلى الموحدين، لا في الميدان المعماري ولا في الميدان العمراني.

---

(1) المراكشي عبد الواحد: المصدر السابق، ص 230 - 231.

(2) المراكشي عبد الواحد: المصدر السابق، ص 231.

(3) نفسه.



وكان خليفة الموحدين قد أقنع أمراء العرب من بني رياح، الذين كانوا بإفريقية، بضرورة ضمّ عشرة آلاف من مقاتليهم إلى جيشه ليستعين بهم في السيطرة على الأوضاع في الأندلس، فساروا معه، وعندما وصلوا مَضيق جبل زغوان أبلغه أحد أمرائهم، ويسمى يوسف ابن ملك، أنهم يَنوُون التخلي عنه، فلم يُحرّك ساكنا، وعاد هؤلاء فعلا، إلى عشائرهم ولجأوا إلى الصحراء، خوفا من ملاحقته لهم، لكنه لم يفعل، بل استأنف سيره غربا، وهو «يحثّ السير حتى قَرُب من القسنطينة (قسنطينة) ونزل في.... وادي السّنافا فأقام به وضبط الطريق، فلا يسير أحد البتة، ودام هناك عشرين يوما، وانقطع خبره على جميع الناس... فعادت العرب الذين أجفلوا منه من البريّة إلى البلاد، لَمّا أَمِنوا جانبه.

«فلمّا علم برجوعهم جَهّز إليهم ولديه: أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألفا ... فجدوا السّير... فما شعرت العرب إلاّ والجيش قد أقبل، وجاء من ورائهم، من جهة الصحراء، مَن يمنعهم مِن الدخول إليها. وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان، عند جبل القرن، وهم زهاء ثمانين ألف بيت... فناجزهم الموحدون القتال، وذلك في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين (وخمسمائة)... فانجلت الحرب عن قتل محرز (اِبن زياد) وانهزام العرب»[1].

(1) النويري: المصدر السابق، ص 426؛ قارن ابن خلدون: العبر، 6، 494.



وقد ترك المنهزمون، كما فعلوا في موقعة سطيف، بيوتهم وحريمهم وأولادهم وأموالهم، وأمر عبد المؤمن، مثلما فعل بعد تلك الموقعة، بِحفظ نسائهم، وحُملن معه إلى المغرب، ولما أقبلت وفود رجالهنّ، ردّهن إليهم وأجمل لهم الصنيع «فلم يبق منهم إلاّ من صار له كالعبد الطائع، وهو يخفض لهم الجناح، ويبذل فيهم الإحسان، ثم جهّزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول»[1].

والذي يَهُمّ في كل ما جرى من هذه الأحداث هو ما كان لولاية بجاية من دور فيها، بحيث أنها كانت مسرحا لإعداد خطة عبد المؤمن الهجومية ضد عرب إفريقية، الذين نكثوا العهد المبرم بينه وبينهم، لأن ذلك الإعداد حدث بالقرب من قسنطينة التي كانت آنذاك، تابعة لها. كما كان واليها أبو محمد (عبد الله) أحد القائديْن اللّذين كلّفهما عبد المؤمن بقيادة جيشه، لخوض الحرب ضد عرب إفريقية، في جنوب القيروان، وكان النصر حليفه، وبفضله حقّق عبد المؤمن هدفه المتمثل في ضَم الكثير من مقاتليهم إلى جيشه الموجّه للجهاد بالأندلس.

وكان بلغه، وهو بإفريقية، أن محمد بن مردنيش، الثائر بشرق الأندلس، خرج من مَرْسيَه، واستولى على مدن جَيّان وقَرمُونة وقُرطبة، فكتب إلى

---

(1) نفس المصدر، ص 427؛ لم يشر ابن أبي دينار إلى كل هذه الأحداث، واكتفى بالقول: بأنه أخذ معه، أثناء عودته إلى المغرب، من كل قبيلة من عرب إفريقية ألفا وأدخلهم إلى المغرب بعيالهم (المؤنس، ص 117).



عمّاله بتلك البلاد يخبرهم بما حققه من انتصارات في إفريقية وأنه واصل إليهم[1]. وقد يكون عَبَر البحر مباشرة إلى جبل الفتح[2] من طنجة، في بداية سنة 556هـ./ 1160 – 1161م[3]. أو أنه عاد من إفريقية إلى مرّاكش، أوّلاً، ولم يعبر إلى الجبل المذكور إلاّ بعدما هزم ابنُ مردنيش وابن هُمُسك ابنَه أبا سعيد بغرناطة فقصده، وهو في حاضرته، عندئذ تحرّك إلى سَلاّ، وجهّز جيشا عبر به إلى جبل الفتح[4] حيث مكث شهرين، رفع فيهما معنويات قوّاد دولته وأشياخها الذين قصدوه، من مختلف أنحاء تلك البلاد، واستعادوا ما فقدوه من مدن، وأَجبروا أعداءَهم على الفرار منها[5].

وقد يكون الخليفة عبد المؤمن، عاد إلى عاصمته، بعدئذ، وأرسل منها «عساكره إلى الجهاد»[6] واشتدّ الصراع بين المسلمين، وعلى رأسهم السيدان: أبو يعقوب وأبو سعيد، ابنا عبد المؤمن، من جهة، والثوار على الموحدين والنّصارى، وعلى رأسهم ابن هُمُشك وصهره ابن مردنيش،

(1) العبر، 6، 495.

(2) العبر، 6، 495.

(3) ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 130؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص 117؛ حسب النويري فإن عبد المؤمن توجه إلى جبل طارق سنة 556 هـ. وبنى به مدينة حصينة، أقام بها أشهرا ثم انصرف إلى مرّاكش (المصدر السابق، ص 427).

(4) البيدق: المصدر السابق، ص 148 – 149.

(5) قارن البيدق: نفس المصدر، ص 149 – 150؛ ابن خلدون: المصدر السابق، 6، 495؛ ابن أبي زرع الفاسي: المصدر السابق، ص 130؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 117.

(6) العبر، 6، 495.

مـن جهة أخرى، وتمكّـن الموحدون، في نهاية الأمـر، من إلحاق هزيمة بأعدائهم بفحص غرناطة، وإجبار قائدهم على الفرار، في حين ارتحل السـيدان إلى قرطبة وأقاما بها إلى أن اسـتُدعيَ منهـا أبو يعقوب إلى مرّاكُش سـنة 558هـ./ 1162 – 1163م.، ليُنَصَّب وليا للعهد، عوضا عن أخيه محمد، فلما حلّ بها وَجَد أباه قد غادرها إلى سَـلاَ بهدف تجهيز جيش والعبور به إلى الأندلس، للسيطرة على الأوضاع هناك، فالتحق به فوجد المنية أدركته[1] بعدما انتهى من إعداد حملته[2].

مصير والي بجاية الموحدي الأوّل، وولاية العهد

يعود تراجع عبد المؤمن عن تعيين أكبر أبنائه، محمد، لولاية عهده إلـى مـا كان عليه مـن أمور لا تليـق بالخلافة: من إدمان على شـرب

(1) العبر، 6، ص 495 – 496؛ حسب البيدق فإن عبد المؤمن جاز مباشرة إلى سلا، دون المرور بمراكش، وهناك أخذ يجهّز حملة عسـكرية من العرب لإرسالها إلى الأندلس، فمرض ومات بها (المصدر السابق، ص 150 – 151)؛ لم يشر عبد الواحد المراكشي إلى عبور عبد المؤمن إلى جبل الفتح بل إنّه، بالنسـبة إليه، عاد مباشـرة من إفريقية إلى مرّاكُش، فأم بها بقية سنة 555 هـ إلى أوّل سنة 558 هـ ثم استعد وخرج منها بالجيوش إلى مدينة سلا، لينتهي فيها من تجهيز حملته ويعبر بها البحر إلى الأندلس، فمرض ومات سنة 558 هـ (المصدر السابق، ص 235).

(2) أنظر ابن أبي دينار: المؤنس، ص 117؛ بالنسبة للزركشي فإن عبد المؤمن استدعى وَلـده أبا يعقوب يوسـف إلـى مرّاكش لتنصيبه وليـا للعهد، بدل اِبنـه الآخر محمد، فاسـتقر حينئذ بمراكش، لكنه خرج للجهاد مع أبيه الذي توفي بسـلا ليلة (الأربعاء إلـى يوم) الخميس 10 جمادي الثانـي 558هـ/ 16 مايو 1163م (Zerkechi; Chronique des almohades et des Hafcides, trad. française par E.Fagnan, Constantine 1895, P. 15).



الخمـر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش، والجبن، وربما كان به ضرب مـن الجذام[1]، وكان ابنه ووزيره أبو حفص عمر هو الذي بادر بمبايعة أخيه أبي يعقوب يوسف بالخلافة، وسلّم له الأمـر مختارا، رغم أنه كان، هو الآخر، مرشحا لها[2].

وقد نقل ابن أبي زرع الفاسي «عن بعض ولده» روايتين متعلقتين بتاريخ بيعته، منها: أنه بويع الأربعاء 21 جمادى الآخرة سنة 558هـ./ مايو1163م.، أو الثلاثاء 10 جمادى الآخرة، من نفس السنة[3]؛ ورواية عن ابن الخَشّاب، مفادها: أن موت عبد المؤمن لم يُشهر حتى وصول ابنه يوسف من إشبيلية[4]، أي أن البيعة تأجلت إلى ما بعد وصول ولي العهد إلى سلا. ومع أن ابن أبي زرع يُرجّح روايتي أهل بيته عن رواية ابن الخشاب[5] إلاّ أنه أضاف روايتين أُخريين لهما علاقة ببجاية:

– إحداهما للقاضي أبي الحجاج يوسف بن عمر، مؤرّخ دولة الموحدين، وتفيد أن يوسف «لما بويع بعدَ وفاة والده تَوقّف على بيعته

1) المرّاكشي: المصدر السابق، ص 236؛ قارن النويري: المصدر السابق، ص 430.

2) المرّاكشي: المصدر السابق، ص 236؛ قارن ابن خلدون: العبر، 6، 496 – 497؛ البيدق: المصدر السابق، 151.

3) القرطاس، ص 136 – 137.

4) نفس المصدر، ص 137.

5) نفسه.



قومٌ من أشـياخ الموحدين، وامتنع من بيعته إخوته: السـيد أبو محمد، صاحب بجاية، والسـيد أبو عبـد الله، صاحب قُرطُبَـة، فكفّ عنهما ولم يطلبهما بالبيعة، وتسـمّى بالأمير، ولم يتسمّ بأمير المؤمنين، حتى اجتمعـت عليـه النـاس»[1]، وكان ذلك يـوم الجمعة 8 ربيـع الأول عام 560هـ./ يناير 1165م.، بعد وفاة أبيه بسنتين[2].

ووردت الرواية الثانية، في تاريخ ابن مطروح، وتقضي أن موت عبد المؤمن أُخْفي إلى أن وصل ابنه يوسف من إشبيلية إلى سلا، في أقرب وقـت، فَبُويع ولم يتخلف عن بيعته إلاّ أنـاس قلائل، فلم يلتفت إليهم، وبـادر بتسـريح الناس المجتمعـين للجهاد إلى قبائلهـم، وأمر بإطلاق سـراح المسـجونين، وتوزيع الصدقـات في كل أنحاء الدولة، وتسـمّى بالأميـر ثم رحل إلى مرّاكش حيث راسـل جميع الموحدين يَحثّهم على طاعتـه «فأتته البيعـة من جميع بلاد إفريقية والمغـرب والأندلس، ما خلا قرطبة وبجاية، فإن وُلاتهما، وهما إخوته توقفا في ذلك، وانتشر خبـره في أقطار البلاد، وكان لـه بالعدوتين من القياد وفرّقوا الأموال في قبائل الموحدين، وأعطى كل الأجناد»[3].

---

(1) القرطاس، ص 137.

(2) نفسه؛ يذكر ابن أبي زرع، في مكان آخر، أن أبا يعقوب تَسمّى بأمير المؤمنين سنة 563هـ./1167 – 68م.؛ (القرطاس، ص 138).

(3) القرطاس، المصدر السابق، ص 138.



واللاّفت للانتباه في الروايتين الأخيرتين أنهما اتفقتا، في شأن امتناع والي بجاية أبي محمد عبد الله عن بيعه أخيه يوسف أبي يعقوب بالخلافة، وأن الرواية الثانية والأخيرة منهما، بيّنت بوضوح براعة يوسف السيّاسية، إذ لجأ إلى شراء السِّلم المدني، بما كان يَتوفر للدولة من أموال وسلطة، ولم يعتمد على القوة في حلّ المشكل القائم، (سبحان الله! كأنه يعيش في بداية القرن الواحد والعشرين الميلادي، في بلدان العالم الثالث).

والمهم أن والي بجاية: السيد أبا محمد أقام بها، في تلك الفترة، «يقدّم رجلا ويؤخر أخرى، ويرى الرأي ويكرّره مع من يختصّ به، ولم تزل مخاطبة الأمير إليه بالاستعطاف والاستدعاء والجواب منه بالعُدة في الرحيل إلى تلك الأرجاء، فمطل نحو سنة ونصف، واعتذر عن الوصول، ثم عزم وتحرّك من بجاية، وظاهره جمع الشمل الموصُول» على حدّ تعبير ابن عذاري المرّاكشي[1] الذي أضاف بأن المنيّة أدركته، وهو في طريقه إلى مرّاكش، لمقابلة أخيه أبي يعقوب، ولما علم أخوه بخبر موته تأثر، وآوى أهله وجملته، ونظر في ضبط أمور بجاية ريثما يوجه إليها واليا لحماية أقطارها[2]؛ مع الإشارة إلى أن رواية ابن عذاري، في جزئها الأخير هذا، تختلف في مضمونها

---

(1) البيان، قسم الموحدين، ص 84.

(2) البيان، قسم الموحدين، ص 84.



عن رواية ابن مطروح التي ورد فيها: أنّه، في سنة 559هـ./1163 - 1164م.، «قدم عليه (أبو يعقوب يوسف) أخواه: السيّد محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة، تائبين طائعين مبائعين، وقدم عليه أشياخ بلديهما وفقهاؤهما، فوصلهم أمير المؤمنين يوسف وأحسن إليهم بالأموال والخلع»[1].

والمفيد أن والي بجاية أو صاحبها، أبا محمد أو محمد، حتى ولو لم يمت، وهو في طريقه إلى أخيه، فإنّه لم يعد إلى ولايته التي بقيت «دون وال وعلى حال إغفال»[2]، حتى سنة 561هـ./ 1165 - 1166م.، وآنذاك عُيّن عليها السيد أبو زكرياء يحي بن عبد المؤمن[3] «في جملة متعينة من أبناء الحُفّاظ والموحديين»[4].

كما أُسندت إليه مُهمة «تفقّد أحوال بلاد إفريقية، ورفع مظالمها، وقمع الطغاة بها»[5]. ويَحقّ للمرء أن يتساءل، بعد كل هذا، عن سبب امتناع الأخوين: أبي محمد وأبي عبد الله عن بيعة أخيهما، أبي يعقوب، خاصة وأن المصادر لم تتوقف، ويا للأسف، عنده. والظاهر، للوهلة الأولى،

(1) تاريخ ابن مطروح، في ابن أبي زرع: القرطاس، ص 137.

(2) البيان، قسم الموحدين، 92.

(3) نفسه؛ القرطاس، ص 137؛ العبر، 6، 497.

(4) نفسه.

(5) القرطاس، ص 137 - 138.



أنهما فعلا ذلك لأسـباب متشابهة ومختلفة، في آن واحد: متشابهة في عامل المنافسـة، وهذا شيء طبيعي في الإنسان، فلا شك أن كلاً منهما كان يرى نفسه أَوْلى بالخلافة من الآخر ولكن لسببين مختلفين:

فبالنّسـبة لأبـي عبد اللـه الـذي كان واليا على قرطبـة، حاضرة الأندلـس آنـذاك، لابّد وأنه كان يعتبر نفسـه أولى بها مـن أخيه أبي يعقـوب والي إشـبيلية، على اعتبـار أن أهمية منصـب ولايته يمنحه فرصـة أكبر من وُلاة باقي مناطق البـلاد للفوز بولاية العهد، وبالتالي بالخلافة.

أمّا بالنسـبة لأبي محمد عبد الله، والـي بجاية، فالأمر يبدو أكثر تعقيدا: فابن خلدون عندما تحدّث عن إسـناد ولاية بجاية للسيّد أبي محمـد عبد الله، أضاف بـأن الخليفة عبد المؤمـن «اختص ابنه عبد اللـه بولاية عهده»[1]: فأبو محمد والي بجاية، حسـب هذه المُعطيات، هو نفسه عبد الله وليّ العهد، غير أن قول ابن خلدون، في مكان آخر، باسـتدعاء السـيد أبي يعقوب من قرطبة إلى مرّاكش، سـنة 558هـ./ 1162 – 1163م.، «والإدالة به من أخيه محمد»[2]، يظهر أنه يتحدث عن شخص آخر تماما، لأنه يتبيّن، حسب هذه الرّواية، أنّ ولي العهد الذي تمّ تغييره هو محمد وليس عبد الله.

(1) العبر، 6، 491 – 492.

(2) العبر، 496.

وهنا يتبادر للذّهن سؤال، هو: أَلم يقع لابن خلدون لُبس في اِسمي: محمد وأبي محمد عبد الله؟ هذا أَمْرٌ محتمل الوقوع، خاصة عند ملاحظة أن اِسم محمد استُعمل بغير كُنية (أبو فلان)، على عكس بقية الأسماء التي اقتصر على ذكر كنياتها[1] ويؤيد هذا الافتراض إِطلاق ابن مطروح تسمية محمد علي صاحب بجاية، كما تَبيّن سابقا.

علما أنّ أبا محمد عبد الله كان أنشط أبناء الخليفة عبد المؤمن ببلاد المغرب: فهو الذي كَلّفه والده بالاستيلاء على قلعة بني حماد، بعد الإستيلاء على بجاية، عاصمة الدولة الحمادية، وهو الذي كبّد الأعراب هزيمة نكراء، بعد ذلك، في موقعة سطيف، وهو الذي أرسله أبوه، عندما كان يحاصر المهدية، على رأس حملة تمكّنت من السيطرة على مدن إفريقية عديدة، كما أسلفنا؛ وهو ما يدّل على أن الخليفة كان يُهيّؤه للحكم، كما جرت عادة الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء، لِتمّرينه على تحمّل المسؤولية، ولإكسابه سمعة سياسية تُمهّد له طريق الوصول إلى الهدف المنشود.

ومع أن اسم محمد وَرَد ضمن قائمة الأسماء الثمانية عشر، التي نشرها ابن أبي زرع للذُّكور من أبناء عبد المؤمن[2]، وضمن قائمة

---

(1) السيد أبو الحسن، والي فاس، والسيد أبو حفص والي تلمسان والسيد أبو سعيد والي سبتة (العبر، 6، 491).

(2) وهؤلاء هم: محمد و يعقوب المنصور وإسحاق ويحي وإبراهيم وموسى وإدريس=



الأسماء الستّة عشر التي نشرها النويري[1]، إلاّ أنه لم يَرد ضمن قائمة الأسماء التي كُلّفت بمهام عسكرية إدارية، ولم يكن من المؤلوف، أن يُعيَّن «وُلاة للعهود» دون أن يَبّرزوا بنشاطاتهم الإدارية والعسكرية، ممّا يصبّ في صالح اللّبس المفترض هنا بين اِسمي محمد وأبي محمد عبد الله، ويُرجّح أن يكون الاسم الثاني، أبو محمد عبد الله، والي بجاية هو المرشح الأوّل لولاية العهد. لكن سلوكه، على ما يبدو، لم يكن يتناسب مع الشروط التي تتطلبها هذه المهمة، فاضطر عبد المؤمن إلى تنحيته وتعويضه بأخيه أبي يعقوب.

ويؤيّد هذا الطرح ابن عذاري، فيما أوردهُ عن أخبار الوزير عبد السلام الكومي، الذي سار مع عبد المؤمن، في غزوته إلى إفريقية، مرورا بتلمسان التي انضم إليه فيها اِبنه السيد أبو حفص وببجاية التي كان ابنه أبو محمد عبد الله واليا عليها، وكانت لهذا الوزير شخصية قوية، سيطر بها على جميع أمور الدولة، أثناء تلك الحملة، وتجرّأ على انتقاد السَّادات، أبناء الخليفة، في سلوكهم «ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال، من الراحات والبطالات، وأنهم يَشربون

=وعبد العزيز وأبو بكر وعبد الله وأحمد ويحي الصغير وعمر وعبد الرحمن وأبو محمد عبد الواحد المخلوع وعبد الحق وإسحاق وطلحة (القرطاس، 35،).

1) وهؤلاء هم: محمد، وهو وليّ عهده، وعلى عمر ويوسف، وعثمان وسليمان ويحي وإسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب (المصدر السابق، ص 430).

الخمر... وكرّر المطالبة لهـم هناك، فتأثر الخليفة لقوله»[1] وبعث من شـيوخ الموحدين مَـنْ فاجأهم بدخوله، فلم يجد علـى مائدة طعامهم خمرا، فتأكـد من تَحامُله عليهم، ثم أخرج الخليفةُ عبد السـلام هذا علـى رأس حملة إلـى قابس، وفي مدّة غيابه أقنعه أشـياخُ الموحدين، بتعويضـه بابنه أبـي حفص في الوزارة، لـ«اسـتعلائه عليهم وتقصيره بأولاد أمير المؤمنـين»[2] فلبّى طلبهم، ولما عادا من المهدية ووصلا معا إلى تلمسـان، زادت شكاوى الناس به، ثم اتُّهم باختلاس الأموال فأمر بسجنه وأوعز إلى من ناوله طعاما مسموما فمات به[3].

فمن الواضح أن مضمون الانتقادات التي أبلغها الوزير عبد السلام الكومي إلى عبد المؤمن عن أبنائه، كما أوردها ابن عذاري هنا، تنطبق تماما مع الأسباب التي جعلت الخليفة الموحدي يتراجع عن قرار تعيين ابنه الأكبر، محمد، عن ولاية العهد وإسـنادها لابنه الأخر أبي يعقوب يوسـف، كما ورد في رواية عبد الواحد المراكشـي، ممّا يعني أن اتهام الوزير عبد السلام للسادات، أبناء الخليفة، كان مبرَّرا، على الرّغم من أنَّ ردّ فعل هؤلاء وأنصارهم كلّفه حياته، كما تقتضيه دسـائس الحكم في كل زمان ومكان.

(1) البيان، قسم الموحدين، 67.

(2) البيان، قسم الموحدين، ص 68.

(3) نفسه.



وبالرجوع إلى ظروف بجاية المعيشية، كما وجدها ابن تومرت، عندما زارها سنة 512هـ./ 1118 – 1119م.، يتبيّن أن ما أزعجه بها هو لِبَاس رجالها لأقراق الزرارية وعمائم الجاهلية و... الفتحيات...»[1] واختلاط الرجال بالنساء، بمناسبة عيد الفطر، في الشريعة[2]، وهي ساحة خارج المدينة، تقام فيها سوق أسبوعية[3]، وبيع الخمر بها[4]، ممّا يعني أن هذه المدينة، كانت تَعرف آنذاك نوعا من الإباحية في سلوك الناس، لم يتعوّد ابن تومرت على رؤيته في غيرها.

وقد يكون هذا النّمط في السلوك، هو الذي أثّر على يحي بن العزيز، آخر أمراء بني حماد، فصار «مستضعفا، مغلبا للنساء، مولعا بالصيد»[5] و«اللّهو واللعب، لا ينظر في شيء من أمور مملكته، بل فوضها لـ(وزيره) ميمون بن حمدون»[6]، وإذا صحّ هذا السلوك، بالنسبة ليحي بن العزيز الحمادي، فلماذا لا يصح بالنسبة لأبي محمد عبد الله الموحدي، الذي تولى حكم بجاية بعده مباشرة: فالأميران اللّذان وُضعا في ظروف معيشية متشابهة يمكن، جدّا، أن يكون تأثّرُهما بها متشابها.

(1) البيدق، ص 36.

(2) نفسه.

(3) نفسه، هامش 3.

(4) نفس المصدر، ص 37.

(5) ابن خلدون: العبر، 6، 362.

(6) النويري: المصدر السابق، ص 415.



وفـي حالة الاقتنـاع بهذا الافتـراض، يصبح من السـهولة بمكان الاقتنـاع بأن المعني بولاية العهد الأولى، الذي اسـتُبدل بيوسـف، أبي يعقـوب، هو أبو محمد عبـد الله بن عبد المؤمن، وليس محمد بن عبد المؤمـن، مثلما تقدّم ذكرُه، وليس من السـهل أبـدًا التوصل إلى معرفة سـبب أو أسـباب وقوع هذا اللّبس، إنْ حدث بالفعـل، ومهما يكن من أمر، فإنّ خلافة الموحدين انتقلت من عبد المؤمن بن علي إلى ولده أبي يعقوب يوسف، والي إشـبيليا في الظروف التي سبقت الإشارة إليها، وأن هذا الأخير، بعدما اسـتقرت له أمـور الخلافة، عيّن واليا جديدا علـى بجاية خلفا لواليها القديم أبي محمد عبد الله، أو محمد، الذي تضاربت الأخبار في شأن مصيره[1].

أوضـاع بجاية في عهـد واليها الثاني، السـيّد أبي زكرياء يحي.

مهما يكن من أمر، فإن والي بجاية الجديد، السيد أبا زكرياء يحي لم يترك، على ما يبدو، أي أثر سيّاسي يُذكر، أثناء توليته شؤونها، ولم تتم الإشارة إليه سوى مرّة واحدة، بعدما دخل أتراكٌ من مصر، أيّام صلاح

(1) ذكر ابن عذاري أنه توفي، وهو في طريقه إلى أخيه أبي يعقوب بمرّاكش؛ وذكر ابن مطروح أنه وصل إلى أخيه في مراكش فأحسـن استقباله، (أنظر: ما قبل، ص 125)؛ أمّـا البيدق فقـال: بأن الأخوين الأمير عمر، الذي كان وزيرا لأبيه عبد المؤمن، وأخاه يوسـف أبا يعقوب، وغيرهم وجّهوه إلى أغمات حيث سـجنوه إلى أن وصل الشيخ أبو حفص من أسامر بني سنان وأطلقه (المصدر السابق، 151).



الدين الأيوبي، سنة 568هـ./ 1172 - 1173م.، مع قراقوش، مملوك تَقيّ الدين، وانضم إليه بعض العرب فاستولوا على طرابلس والكثير من بلاد إفريقية، ممّا شجع صاحب قفصة عليّ بن الرند[1] أو علي بن المعز[2] بن زيري المسمى الطويل[3] والملقب بالناصر لدين النبيّ[4]، على التمرّد وقَتْل من كان بها من الموحدين، سنة 572هـ./ 1176 - 1177م.، وعندئذ «كتب والي بجاية إلى أبي يَعقوب بالخبر، واضطراب شؤون البلاد»[5].

ولما قام أبو يعقوب بحملته على قفصة، و«بلاد القيروَان»[6] سنة 575[7] أو 576 هـ[8].، توقف في بجاية وتحقق عنده أن عليّ بن المنتصر[9] أو علي ابن المعتز[10] «يحرضّ العرب على الفتنة وأنه يُواصِل الممتنع بقفصة ويواليه على الشقاق والنفاق، فقبض عليه ودُخلت داره، فوُجد فيها مخاطبات

1) المراكشي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 252.

2) Zerkechi: op.cit., PP. 15-16.

3) ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 118.

4) المراكشي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 252.

5) النويري: المصدر السابق، ص 433.

6) البيان، قسم الموحدين، ص 141.

7) المؤنس، ص 118؛ Zerkechi: op.cit., PP. 15-16؛ البيان قسم الموحدين، ص 141.

8) البيان، قسم الموحدين، ص 141.

9) قارن البيان، قسم الموحدين، ص 141؛ Zerkechi: op.cit., PP.16

10) Zerkechi: op.cit., PP.16, note 2.

العرب إليه بجوابه بما يشهد عليه ويحقق ما نسب إليه من ذلك، فأخذ ما كان بيده من الأموال والذخائر، وغير ذلك، وسار ... من بجاية...»[1].

وبعد استعادة سيطرة الخليفة أبي يعقوب على قفصة، سار إلى المهدية[2] أو إلى تونس[3]، حيث استتاب على إفريقية والزاب أخاه أبا علي الحسن «وولّى أخاه أبا موسى بجاية وأنظارها»[4] ثم انصرف إلى حضرته، مرّاكش. أمّا مصير والي بجاية السابق، أبي زكرياء يحي، فيبقى مجهولا؛ وممّا توحي به الأخبار الواردة في شأن علي ابن المنتصر، أو ابن المعتز، أن هذا الأخير هو الذي كان يسيطر على الأوضاع في بجاية، أي أنه رُبّما كان يَلعب دور وزيرٍ، أو حاجب، للأمير أبي زكرياء يحي (بن الخليفة عبد المؤمن وأخي الخليفة أبي يعقوب) الذي لا يُستبعد أن يكون قد انغمس في لَهوِ بجاية، مثلما فعل قبله أخوه، أبو محمد عبد الله، ويحي بن العزيز الحمادي، وهذا تفسير محتمل، لعدم بروزه في الأحداث التي كانت لها صِلة ببجاية، في تلك الفترة التي كادت أخبارها تختفي نهائيا في المصادر التاريخية، باستثناء ما أشار إليه عبد الواحد المرّاكشي، في حديثه عن أبناء الخليفة أبي

---

(1) البيان، قسم الموحدين، 141.

(2) النويري: المصدر السابق، ص 433.

(3) البيان، قسم الموحدين، 141؛ Zerkechi : op.cit., PP. 16

(4) نفس المصدر، ص 143؛ قارن: Zerkechi : op.cit., PP. 16



يعقوب يوسف، وخص بالذكر منهم عليّا، فقال: إِنّه «وُلي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية، ثم عُزل عنها وولّي مدينة تلمسان، وهو ... من المشهورين بالتصميم والتبتّل في دينه، وممّن لا تأخذه هَوَادة في الحق»[1] ولم يتعرض المراكشي هنا، ويا للأسف، إلى العلاقة التي كانت تربط القاضي بعمّه الوالي، لأن ذلك كان من شأنه أن يُوضح جوانب غامضة كثيرة من حياة المدينة الاجتماعية.

أوضاع بجاية في عهد واليها الثالث.

ولم يبرز اسم بجاية في بقية أيام الخليفة أبي يعقوب، الذي توفي بجراح أصابته، وهو يحاصر حصن شنترين، غرب الأندلس، سنة 580هـ./ 1184م[2]. لكن أوّل الأحداث، في عهد ابنه وخليفته، أبي يوسف يعقوب المنصور، الذي بويع مباشرة بعد وَفاته، كانت هي مسرحا له[3]: ذلك أنها تعرّضت، في بداية عهده لغزْوِ بني غانية، وهم أسرة كانت تتولى شؤون جزيرة مَيُورقة لحساب المرابطين، وتنسب إلى «محمد بن علي بن يحي المسوفي المعروف بابن غانية»[4]، أو أن

(1) البيان، المصدر السابق، ص 246.

(2) العبر، 6، ص 504؛ النويري: المصدر السابق، ص 434؛ المؤنس، ص 118؛ Zerkeen, op.cit., PP. 16-17.

(3) العبر، 6، ص 504 – 505.

(4) نفس المصدر، ص 505.

محمد بن عليّ هذا، مَلَك جزر مَيُورقة و مُنُرْقة ويَابِسه بنفسه، أو أن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين نفاه إليها، على طريق السجن بها، فاستقَلّ بها وصار يدعو لبني العباس[1]. وبعد مهلك عليّ بن يوسف ابن تاشفين وانتصار الموحدين عليهم، دخل أفرادها في صراع داخلي على الحكم، ولمّا انتصر، في النهاية، إسحاق بن محمد أخذ «يبعث بالأسرى والعُلوج للخليفة أبي يعقوب، إلى أن هلك قُبيل مهلكه، سنة ثمانين»[2]، غير أنه أرجأ الدخول في طاعتهم، عندما راسلوه في ذلك، سنة 578هـ.[3]/ 1182 - 1183م.، وبعد موته وتولية ابنه محمد، بَعثَ إلى أبي يعقوب بطاعته «فبعث هو عليّ بن الزبرتير، لاختبار ذلك منه»[4]، أو أنه بعثه «بعد هلاك إسحاق بن غانية ليعرض الطاعة على من بها (جزيرة ميورقة) من بني إسحاق...، وليُقدّم الإعذار والإنذار، على جرْي العادة فيمن خالف الجماعة من الثوار» على حدّ تعبير ابن عذاري المراكشي[5] وهو ما يعني إجبارهم على الدخول في طاعته. ولما علم إخْوة محمد بالأمر تقبضوا عليه ونصبوا مكانه عليا منهم[6].

(1) المراكشي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 268.

(2) قارن: البيان، قسم الموحدين، 141؛ Zerkechi: Op.cit., P.16.

(3) المراكشي: المصدر السابق، ص 269.

(4) العبر، 6، ص 507.

(5) البيان، قسم الموحدين، ص 175.

(6) نفسه.



وبمجرّد ما علم عليّ بن إسحاق بوفاة الخليفة الموحدي، أبي يعقوب، سارع باعتقال مبعوثه إليه ابن الزبرتير، وولى أخاه طلحة على ميورقة[1]، قبل أن يركب البحر إلى مدينة بجاية في أسطول من عشرين شنيا[2] أو إثنين وثلاثين[3] ولا يستبعد عبد الواحد المراكشي أن يَكونَ فَعَل ذلك، تلبية لطلب جماعة من أعيانها، وَعَدُوه بتمْليكها له، وممّا شجّعه على هذا الأمر أيضا، في نظر المراكشي، سَمَاعُه خبر موت الخليفة أبي يعقوب بالأندلس، وما توقّعه من حدوث اضطرابات وخلافات بين الموحدين نتيجة ذلك[4]. علما أن المراكشي وغيره، لم يشيروا إلى الأسباب، أو السبب الذي جعله يختار مدينة بجاية بالذّات، دون غيرها من المدن، لتكون هدفا له، وممّا لاشك فيه أن أهميتها الإستراتيجية، إضافةً إلى حصانتها المُحكَمة، كان لهما دخل كبير في الموضوع.

ويروي ابن عذاري المراكشي بعض التفاصيل عن كيفية استلائه عليها، منها: أن أسطوله قدّم زَوْرقا إلى «حريم أسوارها»، أي جوارها التابع لها، في مُهمّة استطلاعية، فاستفسر راكبوه عن أحوالها[5]،

(1) العبر، 6، 507.

(2) النويري: المصدر السابق، ص 435.

(3) Zerkechi : op.cit., P.18

(4) المصدر السابق، ص 270.

(5) البيان، قسم الموحدين، ص 175.



وفي الغد قاموا بهجومهم عليها «فتدلّى لهم قوم من السوقة والفسّاق وأسَرّوا إليهم بِعَوَرات البلد، وغَفلةِ أهله، وقلّة المقاتلة من أهل النجدة بـه ...»[1]، أي أن قوما من أهـل البلد، زوّدوهم بمعلومات عسـكرية، وسـاعدوهم علـى الاسـتيلاء عليهـا، دون أن يتمكـن مـن مقاومتهم «أخلاط من الناس من غير قائد يجمعهم، كَشْفٌ من العُدّة، كُسَالى من الضّعف والوحدة»[2] فتفرّقوا أمام أعدائهم بسـهولة كبيرة؛ أمّا الذين كانت لهم كفاءة قيادية، من أهل البلد، فإنهم لم يحركوا سـاكنا يُذكر، في تلك المناسبة، وتَم الاستيلاء على المدينة[3].

وباختصار فإنّ المدينة لم يكن لها حُماة ومدافعون، عندما دخلها عليّ ابن إسحاق بن غانية، سنة 581هـ./ 1185م.، وقد تقبض، بداخلها، على السيّد أبي موسى (عيسى[4] أو عِمْران[5]) بن عبد المؤمن، وهو «صاحب إفريقية»[6] أي واليها، أو أنه «كان واليا عليها، هو وأخوه الحسـن، من قبـل أخيهما أبي يعقـوب»[7] وخرجا، ذات يوم، لإخضـاع تمرّد قام به

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، ص 176.

(2) نفسه.

(3) البيان، قسم الموحدين، ص 176.

(4) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 270.

(5) ابن خلدون: العبر، 6، 507.

(6) ابن خلدون: العبر، 6، 507.

(7) المرّاكشي (عبد الواحد): المصدر السابق، ص 271.



جماعـة من الأعراب، فـي بعض ضواحي إفريقية، غير أن جيشـهما هُـزم، ووقعا في قبضـة المتمردين، وعلم الخليفة أبـو يعقوب بالأمر، ففاوض الأعراب في إطلاق سراحهما، ولما اشترطوا، في مقابل ذلك، 36.000 مثقـال من الذهب، بعثها لهم مِـنَ الصُّفر، مموّهة، أي مزوّرة، فَحُرِّرا من الأسر، وسارا مع «من كان معهما، من خدمهما وحاشيتهما» إلى مرّاكش، وعند توقفهما ببجاية وقعا في أسـر الميَورقيين، في حين كان الوالـي على إفريقية، آنذاك، أبو الربيع سـليمان بن عبد الله ابن عبد المؤمن[1] الذي عُيّن، ولاشك، أثناء محنتها في إفريقية.

وكان والـي بجاية، آنذاك، السـيد أبا الربيع بن عبـد الله بن عبد المؤمـن[2] أو سـليمان بـن عبد الله بن عبـد المؤمن[3]، أو أبـا عبد الله محمد بن عبد المؤمن[4]، أو أبا موسى بن عبد المؤمن» خارجها في بعض مذاهبـه»[5] أو «علـى مقربة منها، راحلا إلى الحضـرة»[6]، فلم يضيّع عليّ فرصة ملاحقته، فترك أخاه يحي يدير شـؤون المدينة بمساعدة مولاه، رشـيد الرّومي، وانطلق خلفه، وحسـب ابـن عذاري فإنه تمكّن

(1) نفس المصدر، ص 270 – 271.

(2) العبر، 6، 507.

(3) النويري: المصدر السابق، ص 435.

(4) Zerkechi: op.cit., P.18.

(5) العبر، 6، 507.

(6) البيان، قسم الموحدين، ص 176.



مــن اللّحاق به «بموضع يعرف بِيَلْمِيلــول، فانخزلت العرب إلى العدو، وانطوت إلى حزبه، ورجعت معه على السيد وحربه، فَخُلع عن محلته، واســتولى العــدو على مــا كان فيها من أموالــه وعياله وثقلتــه، ووُجّه بالجميع إلى بجاية ... وانهزم الســيد أبو الربيع ســليمان واستشــهد بعض رجاله، وتخلى إلى الجزائر، فوجدها غير حصينة، فانحدر منها إلى تلمسان، واستقر بها مع (الوالي)، فريدا من جنده...»[1].

ويعنــي كلام ابــن عذاري، هنا، أن والي بجايــة، لم يحاول مقاومة، حملة ابن غانية على مدينته، فلم يكن مستعدا لها، وسواء كان خارجها في فســحة أو في طريقه إلــى مرّاكش، أو أنه تَمكّن مــن الفرار منها، أثناء اكتســاحها المفاجيء، فهو لم يســتطع تنظيــم صفوفه لمجابهته، ممّا يتطلب من المتأمل، لمســرح هذه الأحداث، الوقوف أمام تســاؤلين يفرضان نفســهما عليه، ألاَ وهما: أَلَم يكُن أبــو الربيع عبد الله، والي بجاية هذا، من أبناء الخليفة عبد المؤمن «السادات» الذين انتقد وزيرُه، عبد السلام الكومي، سلوكهم ودفع حياته ثمنًا لذلك، كما تبين سابقا؟ ألــم يكن وقَعَ لهذا الإبن ما وقع لأســلافه، مــن حُكّامها، من انحراف، بــدءا بعهد يحي بن العزيز الحمادي، وأنه كان، كأَخويْه، الســابقيْن له في هذا المنصب عُيّن على بجاية التي يشجع محيطها على اللهو، فغرق فيه، بعيدًا عن رقابة الخلافة في مرّاكش؟

---

(1) البيان، قسم الموحدين، ص 176 - 177.



وحسب ابن عذاري، دائما، فإن ابن غانية، إسحاق، استولى، أثناء ملاحقة هذا الوالي، على مدينة الجزائر وولّى عليها يحي بن أخيه طلحة، واستولى على مدينة مليانة وولى عليها يدر بن عائشة[1]، ثم عاد إلى بجاية «ووقف مع مسجدها الجامع، وأخذ الناس بمبايعته والدخول تحت طاعته، ونَشَر رايته السّوداء... ثم أخذ ما أخذ من مخازن بجاية، من المال والثياب والعدد... وترك... (بها) أخاه يحي ورشيدا، وتحرّك إلى قسنطينة، ونازلها، وعنها كان تفريقُه ...»[2].

وبالنّسبة لابن خلدون، فإن إسحاق، استعمل أخاه يحي على بجاية، بعد استيلائه عليها مباشرة، دون أن يشير إلى ملاحقته للوالي الموحدي، ثم عودته إلى مدينة بجاية ليقوم فيها ببعض الترتيبات، ويغادرها ثانية، قَصَد بسط نفوذه على ولايتها: فيمضي إلى الجزائر ويستولي عليها، كما يستولي على مليانة بعدها، ثم يقصد القلعة فقسنطينة وينازلهما[3]. وتُخالف هذه الرواية سابقتها، أيضًا، في كونها لا تشير مثلها إلى مبايعته، أمام المسجد الجامع، ولا إلى الأموال والثّياب التي أخذها من مخازن المدينة، لكنها تتحدث، في المقابل، على مواجهته للقلعة، دون الرواية الأولى.

---

(1) البيان، قسم الموحدين، ص 177.

(2) نفسه.

(3) العبر، 6، 507.

وهناك رواية ثالثة، تختلف تماما عن الروايتين السابقتين، يذكر فيها صاحبها، عبد الواحد المراكشي، أن ابن غانية، بعد دخوله مدينة بجاية «أقام بها سبعة أيّام، صلّى فيها الجمعة، فَخطب ودعا لبني العباس، ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم (أي من بني غانية)...»[1] وبعدما أسس أمورَه فيها، خرج منها «وسار حتى نزل على قلعة بني حماد، فملكها وملك جميع تلك النواحي»[2]؛ فهذه الرواية، تؤكد ما تشير إليه الرواية الأوّلى، رواية ابن عذاري، في حديثها عن نشر رايته السواء، وهي الدعوة للعباسيين؛ وتتفرد بالحديث، عن سيطرة بني غانية، على «قلعة بني حماد وجميع تلك النواحي»، وتعني بهذا التعبير، ولاشك، جميع أنحاء ولاية بجاية آنذاك وبمعنى آخر، جميع أنحاء الدولة الحمادية سابقا، وقد اتصّل خبر أحداث مدينة بجاية وَوِلايتها بالخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور، وهو بمدينة سبتة، عائدا من الأندلس[3] أو بمدينة مرّاكش[4]، فجهّز جيشا بريًا، وضع على رأسه السيّد أبا زيد، ابن عمّه السيد أبي حفص، وأسطولا بحريا، أسند قيادته لكل من محمد بن أبي إسحاق بن جامع، وأبي محمد ابن عطّوش الكومي، وأبي العباس أحمد الصّقلي[5]، وجعل القِيادة العامة

(1) المصدر السابق، ص 271.

(2) نفس المصدر، ص 272.

(3) العبر، 6، 507.

(4) البيان، قسم الموحدين، 177.

(5) نفسه؛ العبر، 6، 507.



للشيخ محمد بن جامع «الكل تحت رعي(ـه) ... وإلى نظره، و إلى ما يراه من نهيه وأمره»[1]. وحرص الخليفة على تزويد جيشيه: البري والبحري، برسائل «لأهل سائر البلاد، المغلوب عليها، بالأمن والأمان، والصَّفح والإحسان»[2] حتى لا يَحْملهم خوفهم من الانتقام منهم، بسبب خضوعهم للعدوّ، من الانضمام إليه ومناصرته على الدولة الموحدية.

وكانت النتيجة، أن ثار أهل مليانة على عاملهم الميُورقي، يدر بن عائشة، فأخرجوه منها ثم قبضوا عليه بقرية تسمّى أمّ العُلْوِ، في حين استولى الأسطول البحري على مدينة الجزائر، وتَمّ القبض على صاحبها، يحي بن طلحة، وقُتل الأسيران، بالشنق، قبل وصول الجيش البرّي.[3] «وتقدّم القائد أحمد الصّقِلي بأسطوله إلى بجاية فملكها»[4]، أو أن القائد أبا العبّاس الصقلي «تقدّم... بقطعة (بحرية) واحدة، مع بعض أهل البلد، ودسّوا لهم كتبا بما وراءهم من الأسطول والجيوش الواصلة، فلما وصلت [كذا] الأسطول إلى بجاية، ضجت العامة، وفتحت الأبواب ودخلت عمائر الأساطيل، فانتَهَبت كثيرا من البلد، فتلا في الحال الشيخ أبو محمد بن جامع، بالإشتداد والاجتهاد»[5]

(1) البيان، قسم الموحدين، 177.

(2) نفس المصدر، ص 178؛ قارن: العبر، 6، 507.

(3) البيان، قسم الموحدين، ص 178؛ العبر؛ 6، 507 – 508.

(4) العبر، 6، 508.

(5) البيان، قسم الموحدين، 178.



فتمكـن من وضع حدٍّ لمـا نَجَم عن ذلك بالقوّة[1]، وذلك سـنة 581هـ/ 1186م[2].

وتمكـن يحـي بـن غانية من مغـادرة بجايـة، مع بعـض أصحابه، والالتحاق بأخيه عليّ، المُحاصِر لمدينة قسنطينة، وبعد الْتِقاء الأخوين، أَضْرمَا النيـران في الآلات المنصوبة عليها ثم انسـحبا، تاركَيْن أعباء جيشهما وكِراعَه. وبعد ثلاثة أيام من ذلك الانسحاب حلّ قائد الجيش البرّي الموحدي، السـيد أبو زيـد، بمنزل تِيكِلات، وهنـاك انضم إليه «طلبة بجاية ووجوه أهلها، صحبة السـيد أبي موسـى» والي إفريقية السـابق، الذي وقع في أسـر بنـي غانية ببجاية ثم تخلّـص منه، وراح الجميع يطـاردون المنهزمين حتى وصلوا، وراءهم، إلى مَقرَّة ونَقاوَس، وعندئذ عادوا إلى بجاية، بعد سـتة أشهر من الغياب، واستقر السيد أبو زيد بها[3].

ويظهـر أن مدينة بجاية مرت، في فترة تلك الإقامة، بأزمة خانقة، سـبَّبتها لهـا ما دارت بها، من أحـداث وفِتَنٍ، بحيث قل عدد سُـكّانها وغادرهـا الكثير منهـم إلى قِمَم الجبـال والأوعـار، واحتمى بعضهم

(1) البيان، قسم الموحدين، 178.

(2) النويري: المصدر السابق، 435.

(3) قارن البيان، قسم الموحدين، 179؛ العبر، 6، ص 508؛ حسب النويري، فقد كان إلى جانب يحي أخوه عبد الله (المصدر السابق، ص 435).



الآخـر بأحياء العـرب المجـاورة، وقلّت أقواتهـا وغَلاّتهـا وخَيْراتها، وأقفرت سـهولها، وغلَت أسـعارها، واشـتّدت بها المجاعـة والأوبئة، وكانت أخبار هذه الأزمة تصل الخليفة، وتُحمِّل السيّد أبا زيد «الكثير من مسـؤولياتها، فغضب منه لكن «صَبرَه وتُقاه (صَرَفَه) عن معاقبته، فخاطبـه معاتبا على ما قيل فيه وزُوّر، وبَسَـط له مِـن العدل ما خفَّ على ما نُقل عنه وصُوّر»[1]، وبمعنى آخر فإن الخليفة لم يحمّل السـيد أبـا زيد والي بجاية مسـؤولية مـا كانت تعانيه من مشـاكل اقتصادية واجتماعية؛ وهذا ما يمكن اسـتنتاجه من رواية ابن عذاري المراكشي، غير أن ابن خلدون، الذي لا يشـير إلى هـذه الأزمة، يفيد أن الخليفة اسـتقدم ... السيّدَ أبا زيد من مكانه ببجاية، وقدّم مكانه أخاه السيّد أبا عبد الله، وانصرف إلى الحضرة»[2] ممّا يوحي أن السـيد أبا زيد، لم يقم بدوره على أحسن وجه، على الأقل حسب المعلومات التي كانت تبلغ الخليفة عنه، ألاَ يكون التيار الذي جَرف أسلافه، تيار لَهْوِ بجاية، كما يُتوقعْ، جَرفَه هو الآخر؟

ومـن أهمّ الأحداث التي عرفتها مدينـة بجاية وولايتها، أثناء إدارة السـيد أبي زيد لشؤونها: تغريب، أي نفي، أسرة بني حَمْدون منها إلى سلا، لاِتهَام أفرادها بالدخول في أمر ابن غانية[3] وإجبارهم «على بيع

(1) البيان، قسم الموحدين، ص 181.

(2) العبر، 6، ص 508.

(3) العبر، 6، ص 508.

أموالهم وديارهم بثمن بخس»[1]، كما تمكّن أحد قادة ابن غانية ، عُرف باسـم غَزيّ الصنهاجي، ومعه بعض أحياء العرب، من الاستيلاء على مدينة أشـير، بعد قَتْل حَافِظها، لكن الوالي أخرج إليه ابنه أبا حفص عُمَـر، برُفقـة أبي الظفر غانم بن مردنيش، فقتلاه وحملا رأسـه إلى بجاية فَنُصب بها ثم أُلحق به أخوه عبد الله[2] .

أمّا عليّ بن إسحاق بن غانية فقد انتهى به المطاف، بعد فراره أمام جيش ذلك الوالي، من قسنطينة، في مدينة «قفصة فملكها، ونازل توزر فامتنعت عليه، ولحق بطرابلـس»[3] واجتمع بمن في تلك النواحي من عـرب بني هلال، والتُّرك الذين كانـوا دخلوها من مصر، مع قَراقوش مملوك تقيّ الدين، «أيام صلاح الدين الأيوبي، ومع مملوك آخر يُسمّى بوزاربة، واتبعه هؤلاء جميعا لأنه من بيت مُلك، ولَقّبوه بأمير المؤمنين، فبسـط سيطرته على جميع بلاد إفريقية، إلاَّ مدينتي تونس والمهدية: فإنهمـا بقيتا تحت نفوذ الموحديـن، فخاطب والي تونس، عبدُ الواحد ابن عبد الله الهَنْتاتي، الخليفة أبا يوسف يعقوب بواقع ما يجري على الأرض في تلك النواحي من دولته[4] .

(1) البيان، قسم الموحدين، ص 181 .

(2) البيان، قسم الموحدين، ص 181؛ العبر، 6، ص 508 .

(3) العبر، 6، ص 508 .

(4) النويري: المصدر السابق، ص 435 .



أوضاع بجاية في عهد الوالي الموحدي الرابع.

ما كان على أبي يوسف، بعد اطلاعه على الأوضاع هناك، إلاّ أن جهّز جيشا قوامه عشرون ألف مقاتل، وهو الحد الأقصى الذي استطاع توفيره «لقلة القوت في البلاد»[1]، وخرج هو شخصيا على رأسه سنة 582 هـ[2] أو 583هـ[3]./ 1186 – 1187 – 1188م.، إلى أن وصل مدينة تونس.

واللاّفت للانتباه أن المصادر التي أوردت أخبار هذه الحملة، لا تشير إلى أية علاقة لها، بمدينة بجاية أو بولايتها، قبل الشروع في عودتها إلى مرّاكش، باستثناء عبد الواحد المرّاكشي الذي لم يشر، كما فعل غيره، إلى الحملتين: البرية والبحرية، اللتين استعادتا مدن: مليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة، كما تبين سابقا، بل إنّه انفرد بقوله: بأن عليّ بن غانية خرج «من بجاية بعد أن أسس أموره فيها، وسار حتى نزل على قلعة بني حماد، فملكها وملك جميع تلك النواحي، فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب، فخرج... قاصدًا مدينة بجاية، فلما سمع عليّ بقدومه، خرج له عنها، وقصد بلاد الجريد، ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية، فتلقّاه أهلها، فلقيّهم منشرح الصدر... واستعمل على بجاية، من أعيان الموحدين، رجلا اسمه محمد بن أبي سعيد الجنفيسيّ، ثم سار حتى نزل مدينة تونس»[4].

(1) النويري: المصدر السابق، ص 436.

(2) العبر، 6، 509.

(3) النويري: المصدر السابق، ص 436؛ Zerkechi: op.cit., P.18 ؛ حسب ابن أبي دينار فإن حملته على إفريقية كانت سنة 575هـ (المؤنس، ص 118).

(4) المعجب، ص 272 – 273.

وبصرف النظر عمّن أصاب أو أخطأ، من أصحاب المصادر، في وصف تطوّر أحداث الصراع الميورقي- الموحدي، حول بجاية، فإن ما يلفت الانتباه هو تحييد هذه الأخيرة عن الصراع الدّائر بين نفس هاتين القوّتين السياسيتين في إفريقية، مع أنها طرف أساسي فيه، وقد يعود ذلك إلى ما كانت تعانيه من ظروف اجتماعية صعبة، كما تبيّن سابقا، ويصعب إيجاد تفسير تَوْلية الخليفة لِمُحمّد بن أبي سعيد الجنفيسيّ عليها وكذلك مصير واليها السابق؛ وَممّا لاشك فيه أن غموض أخبارها في تلك الفترة يؤكد ما ذكره ابن عذاري المراكشي عن سوء أحوالها المعيشية والصّحية، وتَشتّت سكانها، بعيدًا عنها.

ولَمَا تمكّن الخليفة المنصور، في حملته هذه، من قتل عليّ بن إسحاق ابن غانية[1]، واستعادة سيطرته على مدن: الحامة وقابس وتُوزر وقَفصة، وعلى كافة إفريقية، ولّى على هذه الأخيرة السيّد أبا زيد بن أبي حفص ابن عبد المؤمن، وقفل راجعا إلى مرّاكش سنة 584هـ.[2]/ 1188م.، وقد يكون عَجّلَ السير، فقَطع المسافة بين بجاية وفاس في سبع عشرة مرحلة «وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله»[3]، أو أنه انتقل من المهدية إلى تاهرت حيث اتخذ دليلا، هو العباس بن عطية، أمير بني توجين، أَوْصلهُ

(1) المعجب، ص 283؛ النويري: المصدر السابق، ص 437.

(2) قارن المعجب، 283 فما بعدها؛ العبر، 6، ص 209 – 210؛ النويري: المصدر السابق، ص 436؛ Zerkechi: op.cit., P.19.

(3) المعجب، ص 277.



إلــى تلمســان عن طريق الصحراء[1]. ويعود ســبب هذا الاســتعجال إلى أخبار وصلته، فاستحثّته وأزعجته[2]، ومفادها «أن أخاه السيد أبا حفص والي مَرْسِــيَة، الملقب بالرشيد، وعمّه السيّد أبا الربيع والي تادلا، عندما بلغهم خبر الوقيعة بِغَمْرة[3] حدّثوا أنفسهم بالتوثب على الخلافة»[4]. وقد شرع في تصفية هؤلاء (المتآمرين عليها) جَسديا، بمجرّد حلوله بتلمسان، بلا رحمة ولا شــفقة، وتَمكّن من القضاء عليهــم جميعا، بعْد وصوله إلى مرّاكش[5].

أوضاع بجاية في عهد الوالي الموحدي الخامس.

وهناك عقد للسيد أبي زكرياء على بجاية[6]، ولا يشير ابن خلدون، الــذي أورد هــذا الخبر، إلــى مصير واليها الســابق، فَهــل ابتلعه لهو

1) العبر، 6، ص 510.

2) المعجب، ص 277.

3) وهي هزيمة ألحقها عليّ بن غانية وأنصاره بقطعة من جيش أبي يوسف أخرجها إليه من تونس بقيادة الســيد أبي يوســف بن الســيد أبي حفص (العبــر، 6، ص 509؛ (Zerkechi: op.cit., P.18.

4) العبر، 6، 510.

5) نفسه؛ المعجب، ص 277 – 278.

6) بالنسبة لابن خلدون فإنّه عقد على بجاية للسّيّد أبي الحسن بن السيّد أبي حفص (العبر، 6، ص 510)، غير أنّ ما يُســتنتج ممّا ذكره ابن خلدون في مكان آخر، أنّ والي بجاية المعني هنا هو الســيّد أبو زكرياء (العبر، 6، ص 511 – 512)، وليس أبو الحســن ولا الســيد أبو زيد الحسن بن السّيد أبي حفص الذي ذكره ابن عذاري (البيان، قسم الموحدين، ص 237).

بجايـة، كما يُفترض أن يكون فعل بسـابقيه، رغم ما كانت تلك المدينة تعانيه آنذاك، من بؤس وحرمان. وعلى كلٍّ، فإن مهمة الوالي الجديد، السـيد أبي الحسـن لم تكن سـهلة بالمرة: ذلك أنَّ رَأْي إخـوة عليّ بن إسـحاق[1] اجتمع، بعد موته، على تقـديم أَخِيهم يحي عليهم «لِمَا رأوا فيه من شهامة وشجاعة»[2] والتحقوا بالصحراء «فكانوا بها، مع العرب الكائنين هناك» وعاد الخليفة الموحدي من حيث أتى[3].

وفـي سـنة 586هـ./ 1186 – 1187م.، أي بعد سـنتين مـن عودته إلى مراكش، عبر المنصور إلى الأندلس حيث استردّ بها مدينة شلب، بنواحيها الغربيـة، ومدن أخرى، من النّصارى، ثم عاد إلى حضرته، مرّة أخرى[4] سنة 587هـ./ 1187 – 1188م.، وفي السنة الموالية، أي سنة 588هـ./1188 – 1189م.، «قَدِم عليه ... السيد أبو زيد صاحب إفريقية، ومعه مشيخة العـرب، من هلال وسُـليم، فلقّاهم مبرّة وتكريما، وانقلـب وَفدُهم إلى بلادهـم»[5] وهذا ما يدلّ على أن أمور إفريقية بقيت هادئة، منذ عودته منهـا إلى ذلك الوقت، وهو نفس ما يمكن اسـتخلاصه بالنسـبة لأمور

(1) هـؤلاء الإخوة هـم: عبد الله ويحي وأبو بكر وسِـير (المراكشـي (عبـد الواحد): المصدر السابق، ص 273).

(2) المعجب، ص 273.

(3) نفسه.

(4) العبر، 6، 511؛ النويري: المصدر السابق، ص 437.

(5) نفسه.



مدينة بجاية وولايتها، غير أن هذه الأخيرة عرفت أحداثا، عُرف بطلُها باسم الأشل، ظهر ببلاد الزاب منها، سنة 589هـ./ 1189 – 1190م.، وكان يدعو لنفسه، ويدّعى بأنّهُ موعود بأمره، وأن الأراجيز نَصت على خبره، وانضم إليه بعض الأعراب وكثير من أهل تلك الجهات، وراح يفسد ويعتدي بتلك النواحي، ولما علم المنصور بخبره بعث أوَامره للسيد أبي زكرياء، صاحب بجاية بالقضاء عليه، فلما خرج هذا الأخير إليه، على رأس حملة عسكرية، تحاشى الأشل طريقه، فلم يتمكن منه ولاحظ تواطؤ الكثير من الأعراب معه، فدسّ عيونه لتجسس أخباره، حتى علم مكان استقراره، ثم استدرج بعض هؤلاء المتواطئين إلى «قلعة بني حماد من أعمال بجاية»[1] فأقام لهم حفل إطعام، قبض فيه على جماعة من أولادهم وكبّلهم بالحديد ثم أحضر آباءهم وعشائرهم، وأقسم لهم ألاّ يحلّ وثاقهم إلاّ بإحضار الأشل أو رأسه، فرفضوا غير أن أُمّهات الأولاد عارضنهم بشدّة، فاقتنع بعضهم برأيهن فأسروه وقادوه إلى السيد أبي زكرياء بالقلعة، فضرب عنقه «واحتمل رأسه إلى بجاية فعلق على بابها مع ذراعه وعَضده ...»[2].

وفي سنة 590هـ./ 1193 – 1194م.، بلغ المنصور «استفحال ابن غانية، بإفريقية، فاعتزم على النهوض إليها، ووصل إلى مكناسة، فبلغه من أمر

1) العبر، 6، ص 511 – 512.

2) البيان، قسم الموحدين، ص 217.



الأندلس ما أهمّه فصرف وجههُ...»[1] وعبر إليها مرّة أخرى سنة 591هـ.[2]/ 1194 – 1195م.، ومما لاشك فيه أن مدة ست سنوات التي مضت، منذ عودة أبي يوسف إلى مرّاكش، كانت كافية ليحي بن إسحاق بن غانية، كي يعيد تنظيم صفوف جيشه ويَستأنف صراعه ضدّ الدولة الموحدية، وكان أوّل أهدافه، على ما يبدو، هي مدينة قسنطينة فقصدها، غير أن والي بجاية، السيّد أبا زكرياء(*) «زحف إليه... فهزمه ودخل قسنطينة، وارتحل ابن غانية إلى بسكرة... وافتتحها عنوة، ثم حاصر قسنطينة وامتنعت عليه، فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عيثه»[3] في إفريقية «وأظهر أنه إذا استولى على بجاية، سار إلى المغرب»[4]، أي المغرب الأقصى.

وكان الخليفة المنصور منشغلا بحروبه ضد نصارى الأندلس، بنواحي بطليوس، وبلاد الجوف، وبلاد ابن أذفونش، القريبة من مجريط[5]، فلما

---

(1) العبر، 6، ص 511 – 512.

(2) نفس المصدر، ص 512؛ النويري: المصدر السابق، ص 437؛ المعجب، ص 282؛ البيان، قسم الموحدين، ص 217.

(*) بالنّسبة لابن خدون، فإنّ الأمر يتعلّق هنا أيضا بالسّيد أبي الحسن (العبر، 6، ص 510 – 511)، ويرجّح أن يكون الأمر متعلّقا بالسيّد أبي زكرياء وليس بالسّيد أبي الحسن.

(3) العبر، 6، ص 510 – 511.

(4) النويري: المصدر السابق، ص 441؛ يروي النويري تاريخ هذه الأحداث عن ابن شداد الذي يُسند مسؤولياتها إلى علي بن إسحاق ابن غانية، مُضيفا أن بعض المؤرخين يسندونها إلى يحي لأن عليّا كان قد مات (المصدر السابق، ص 440).

(5) أنظر: العبر، 6، ص 512 – 513.



وصلته تلك الأخبار، اضطر إلى مصالحة النصارى والعودة إلى مراكش لكي يزحف على ابن غانية من هناك ويخرجه من بلاده[1]، ولما وصل إلى حضرته سنة 594هـ.[2]/ 1197 - 1198م، بادر بتعيين أبي سعيد عثمان الهِنْتاتي، واليا على مدينة تونس، وأخيه أبي علي يونس على المهدية، وأسند قيادة جيوشها إلى محمد بن عبد الكريم[3]، لكن المَنية عاجلته فتوفيّ سنة 595هـ.[4]/1198 - 1199م.، وتولّى الخلافة بعده ابنه ووليّ عهده، أبو عبد الله محمد وتلقب بالناصر لدين الله. واللاّفت هنا أن ابن خلدون يفيد أنه «عقد للسيّد أبي الحسن بن السيد أبي حفص على بجاية، وفوّض إليه في شؤونها»[5]، مع أنه سبق له وأن ذكر أن والدهُ المنصور هو الذي عقد له عليها، وهو الذي أنجد قسنطينة عندما حاصرها يحي بن غانية[6]، فهل يريد ابن خلدون القول: إن الناصر لدين الله ثبّت السيد أبا الحسن في منصبه ببجاية؟ مع ملاحظة أنه لم يكن من عادة الخلفاء الموحدين القيام بمثل هذا الإجراء. وقد يكون وقع

(1) النويري: المصدر السابق، ص 441؛ حسب ابن خلدون، فإن ملوك النصرانية، هم الذين رغبوا إليه في السِّلم فبذله لهم (العبر، 6، 513).

(2) العبر، 6، 513.

(3) النويري: المصدر السابق، ص 441.

(4) المعجب، 307؛ العبر، 6، 513؛ النويري: المصدر السابق، ص 442.

(5) العبر، 6، 515.

(6) العبر، 6، ص 510 - 511.



لابن خلدون لُبس بين اِسمي واليّين مختلفين على بجاية: وَلّى أحدَهما المنصورُ وولّى الآخرَ ابنُه الناصر لدين الله لكن أحدهما فقط، يَختصّ بهذه التسمية، وربما يكون والي الخليفة الأخير.

وفي بداية سنة 596هـ./ 1199 - 1200م.، حسب ما أورده ابن عذاري، تحرك السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص، من بجاية في جيش مشتّت الآراء، ملفّق من الأعراب، فنزل بظاهر قسنطينة حيث وقع في كمين نصبه له ابن غانية، كبّده فيه خسائر معتبرة، ولم يُخلِّص أبا الحسن من القتل سوى لجوءه ليلا إلى حصن قسنطينة[1]؛ نفس الخبر أورده المرّاكشي، لكن بأسلوب مختلف تماما، حيث أفاد أن ما جهزّه أبو عبد الله الناصر، في خلافته، هو الجيش الذي استعمل عليه «أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن» مضيفًا أنني «لم أر لهم (للموحدين) جيشا أضخم منه، ولا أكثر منه سلاحا، ولا أحسن عُدّة؛ وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافرة، فسار أبو الحسن... حتى التقى هو والمَيُورقيّون فيما بين بجاية وقسنطينة، وبالقرب من قسنطينة؛ فانهزم... أصحاب أبي الحسن...، ورجع إلى بجاية في حالة سيئة»[2]، علما أن كلاّ من ابن عذاري وعبد الواحد المرّاكشِيّ، يتعاطف مع الموحدين، لكن الثاني كان معاصرا لهم، وحاول أن يكون موضوعيا أكثر من الأول.

(1) العبر، 6، ص 237 - 238.

(2) المعجب، ص 314.



وهناك رواية ثالثة، اقتبسها النويري عن ابن شداد، جاء فيها، أنه: «لما وُلّي (الناصر الخلافة)، اتصل به فساد إفريقية، فأنفذ عمّه أبا العلاء، في سبعين شينيا ... وجهّز جيشا في البرّ، مع أبي الحسن عليّ بن أبي حفص عمر، ابن عبد المؤمن، فوصل إلى قسنطينة ووصل الأسطول إلى بجاية، فلما اتصل خبرهم بعليّ (يحي) بن إسحاق (بن غانية)، ومن معه من العرب، هَربوا ... ودخلوا إلى الصحراء»[1].

ولابن خلدون رواية رابعة، مفادها أن الناصر لدين الله «بلغه سنة ست وتسعين (596هـ) إجحاف العدو (ابن غانية) بإفريقية، وفساد الأعراب في نواحيها، ورجوع السيد أبي الحسن من قسنطينة منهزما أمام ابن غانية ...»[2].

عند المقارنة بين هذه الروايات الأربع يتبيّن أنها تتحدث عن قائد جيش بريّ واحد اِسمه الكامل: «السيّد أبو الحسن عليّ، ابن السيد أبي حفص عمر، ابن عبد المؤمن بن عليّ» غير أن اختصاره، في كلّ رواية بطريقة مختلفة عن غيرها، من شأنه أن يُوقِع المتتبع لسير تلك الأحداث في خطأ، فَيُظن أن كلّ واحدة منها تتحدث عن قائد مختلف عن القادة الذين تتحدث عنهم الروايات الأخرى؛ ثم إن روايتين من بين الروايات الأربع تحمّلان مسؤولية تلك الحملة للخليفة مباشرة، هما روايتا: عبد

1) المعجب، ص 444.

2) العبر، 6، 415.



الواحد المراكشي والرواية التي اقتبسها النويري عن ابن شدّاد؛ في حين تُحمّل الروايتان الأخريان: رواية ابن عذاري المراكشي، ورواية ابن خلدون، مسئوليتها إلى والي بجاية المذكور آنفا؛ وبالتالي يصعب على المتتبع، لتلك الأحداث، التأكد من مصداقية هذا الطرف أو ذاك.

وأخيرا يمكن ترجيح صحة الروايات الثلاث: رواية عبد الواحد وابن عذاري: المراكشيين ورواية ابن خلدون، التي تقول بهزيمة الجيش الموحدي أمام جيش يحي بن غانية، قرب قسنطينة، عن الرواية التي نقلها النويري عن ابن شداد، والتي تقول بفرار جيش عليّ (يحي) ابن غانية إلى الصحراء، أمام جيش الموحدين البرّي، بمجرّد وصول أسطولهم البحري إلى بجاية. مع ملاحظة أن هذه الرواية تنفرد بحديثها عن إرسال الخليفة الموحدي لجيشين: بريّ وبحرّي، لمواجهة ابن غانية، ولعلّ أقوى دليل يمكن تقديمه على هذا الترجيح، هو أن النويري نفسه، صاحب الاقتباس عن ابن شداد، في بداية اقتباسه للمعلومات التي تتحدث عن نشاط (عليّ) ابن إسحاق بن غانية، أثناء سفر الخليفة أبي يوسف يعقوب إلى الأندلس، يُعلق قائلا: «حكاه ابن شداد، وذكر بعض المؤرخين أن هذا الثائر الآن، هو يحي أخو عليّ، وأن عليا كان قد مات»[1]، وهو ما يعني أن النويري يعترف بأن كلامه المقتبس عن ابن شَدّاد قد لا يكون دقيقا. وعلى العموم فإن محور

(1) المصدر السابق، ص 440.



أحـداث الروايـات الأربع السـابقة يدور حول بجايـة بالدرجة الأولى وَقسنطينة، من أعمالها، بالدرجة الثانية.

وقد يكون الخليفة الناصر أَنْفذَ، في خِضمّ تلك الأحداث، «السـيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس، في عسكر من الموحدين لسدّ ثغورها، وأنْفذَ أبا سـعيد بن الشـيخ أبي حفـص رَديفًا له»[1] أي مسـاعدًا، أو أنه وَلّى «السـيّد أبا زيد والشـيخ أبا سـعيد بن أبي حفـص»[2]، أو أن أبـاه الخليفـة المنصور هو الـذي ولاّهما[3]. وقد ولّى أبو سـعيد هذا، واسـمه الكامل «أبو سـعيد عثمان بـن أبي حفص عمـر الهنتاتي»[4]، أخاه، أبا عليّ يونس، على المهدية، وعيّن محمد ابن عبد الكريم قائدا لجيوشها، غير أن هذا الأخير سُرعان ما تمرّد عليه، وقبض على أخيه يونس، بسبب خلافهما في التعامل مع الأعراب[5]، ولما جمع أبو سعيد

---

(1) العبر، 6، ص. 415.

(2) نفسه، ص 517.

(3) نفسـه؛ بالنسـبة لابن عذاري فإن الـذي ولاّه هو الناصر لدين اللـه، فخرج إليها من مرّاكش ووصلها على طريق السـاحل سـنة 596هـ./1199 – 1200م.، (البيان، قسم الموحدين، ص 238).

(4) قارن نفسه؛ النويري المصدر السابق، ص 441.

(5) عظمت نكاية محمد بن عبد الكريم في العرب، ولما شَـكُوا أمرهم إلى أبي سعيد، وأقنعـوه بأنهم صاروا من أنصـار الموحدين، أحضر ابن عبد الكريم، وأمره بإعادة ما أخذه لهم، فقال: أخذه الجند ولا أقدر على ردّه، ثم استمهله إلى أن يعود إلى المهدية فأمهلـه، ولما وصل إليها أعلن تمردّه وألقى القبض علـى وليها أبي علي يونس، ولم=

جنده لغرض التوجّه إليه «أرسل... إلى عليّ (يحي) ابن إسحاق المُلثّم (ابن غانية) واعتضد (استعان) به، فامتنع أبو سعيد من قصده. وفي خلال ذلك مات أبو يوسف»[1] المنصور، وهذه الرواية، وإن صدرت عن النويري الذي اقتبسها عن ابن شدّاد، قليل الدقة في نظره، إلاّ أنها كفيلة بترجيح كفّة رواية ابن خلدون، التي تفيد أن الخليفة أبا يوسف المنصور، هو الذي ولّى السيد أبا زيد والشيخ أبا سعيد على تونس، على الرواية التي تفيد أن الذي فعل ذلك هو ابنه الخليفة الناصر.

ولم يكن في وسع هذا الأخير أن يقفَ مكتوف اليديْن، أمام تطوّر هذه الأحداث في إفريقية، بطبيعة الحال، ولذلك وجّه إليها أسطولا بحريا متكوّنا من سبعين شينيا، بقيادة عمّه أبي العلاء إدريس بن يوسف، إلى جانب جَيْش بريّ بقيادة أبي الحسن عليّ بن أبي حفص عمر، والي بجاية[2]، ولما نَازل الجيشُ «ابنَ عبد الكريم ... اعتذرَ.. بأنه حافظٌ على الحصن من العدو، ولا يُمكّنه إلاّ لثقة الخليفة. وانصرف أبو الحسن إلى بجاية، موضع عمله، وقسّم العسكر بينه وبين أخيه السيّد أبي زيد، صاحب تونس، وصلحت الأحوال»[3]؛ أي أنّ المشكل

=يطلق سراحه إلاّ مقابل 12000 دينار، فرّقها على جنوده (النويري: المصدر السابق، ص 441).

(1) النويري: المصدر السابق، ص 242.

(2) قارن ابن خلدون، العبر، 6، ص 517؛ النويري: المصدر السابق، ص 444.

(3) العبر، 6، ص 517 – 518.



توقّف عند هذا الحد؛ أو أن الأسطول، بعدما وصل بجاية تمادت بعض قِطَعِه إلى المهدية، فأنّب قائدَها محمد بن عبد الكريم على فعله، وشكا ابنُ عبد الكريم بدوره «ما ناله من أبي سعيد ... وقال: أنا في طاعة سيّدنا أمير المؤمنين محمد، وما أُسَلّم المهدية إلاّ له، أو لمن يأمُرني بتسليمها إليه، وأمّا أبو سعيد فلا أُسلّمها إليه أبدًا ...»[1].

ومع أن النويري يضيف، اعتمادا على رواية ابن شدّاد، غير الدقيقة، بأن الخليفة الموحّدي أرسل من تسلّم مدينة المهدية مِن ابن عبد الكريم، وعاد إلى الطاعة، غير أن سلامة المَنطِق تقضي أن يؤدي تراجع الجيش، البرّي أو البحري، عن استيلامها منه إلى أن يَتمادى في مسعاه الإستقلالي، ومن ثمّ لابُدَّ وأن يكون ابن خلدون مُحقّا في قوله «وثار بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرّكراكي، ودعا لنفسه ونازع ابنَ غانية والمُوحّدين الأمرَ، وتَسمّى صاحب قُبّة الأديم محمد بن عبد الكريم، ونازل تونس وعَاث في قراها سنة ست وتسعين (596هـ./ 1199 - 1200م.)، ونازل ابن غانية بقابس فامتنع عليه...»[2] وقد دفعت أنباءُ تلك الأحداث الخليفة الموحدي إلى تجهيز جيش، بقيادة الوزير ابن يوجان، فخرج على رأسه من مرّاكش إلى «تلمسان، ثم تدرّج إلى بجاية، ثم إلى قسنطينة، ثم عاد إلى تلمسان... ثم وصله الأمر بالانتقال إلى

(1) النويري: المصدر السابق، ص 444.

(2) العبر، 6، 517.



فاس لعَمَالتها (أي لاستلام منصب ولايتها)، وأقام بها إلى أن مشى، في خدمة الناصر إلى إفريقية»[1] في حين دارت الدّائرة علىَ ابن عبد الكريم، ولاحقه ابن غانية إلى أن انتزع منه المهدية، بمساعدة صاحب تونس، وقَتَله سنة 599هـ.[2]/ 1202 - 1203م.

وتفتّحت شَهيّة ابن غانية، بعد ذلك، فأخضع بلاد الجريد، واستولى على تونس، بعد أن تقبّض على واليها، السيد أبي زيد، ودخل في طاعته أهل بونة وبنزرت وشِقّبنارية والأربس والقيروان وتبسّة وصَفاقس وقابَس وطرابلس واتخذ تونس مقرّا له، وأخذ يدعو للخليفة العباسي[3].

وينفرد عبد الواحد المرّاكشي، من بين المصادر المستخدمة في هذا البحث، بالقول: إن الخليفة أبا عبد الله محمد جَهّز جيوشا ضخمة بمدينة فاس «وأشاع أنه يقصد إفريقية - هذا بعد أن بلغه أنّ الميُورِقيّ استولى على مدينة تونس، وقبض على الوالي عليها عبد الرّحمن - فأقام بفاس ثلاثة أشهر، ثم بدا له أن يبعث بعثا إلى جزيرة ميورقة، ليستأصل شافة بني غانية... واستعمل على الأسطول عمَّه أبا العلاء إدريس بن يوسف...، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان ابن أبي

(1) ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص 238.

(2) نفسه.

(3) ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص 518.



حفص... قصد الجزيرة هذان الرجلان، ففتحاها عُنْوة، وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها .... وكان دخولُهما ميورقة ... سنة 599هـ./ 1202 – 1203م..»[1] أي في نَفْس السنة التي استولى فيها يحي بن غانية على المهدية، وكافة البلاد الإفريقية بما فيها مدينة تونس، ولكن بَعد تلك الاستيلاءات؛ ويبدو أن الخليفة حوّل نفس الأسطول الذي سبق له وأن أرسلهُ، لإخضاع تمرّد محمد بن عبد الكريم بالمهدية، ما دام قائدهما واحدا، وهو عمّه أبو العلاء إدريس بن يوسف.

ويظهر أن الخليفة محمد الناصر انشغل كثيرا بأمر ابن غانية هذا، ولما شاور أصحابه، من الموحدين، أشاروا عليه بمسالمته، إلاّ واحد منهم، هو أبو محمد بن الشيخ أبي حفص، أشار عليه «بالنهوض إليها والمدافعة عنها، فعمل على رأيه»[2].

وجهّز الخليفة حملة عسكرية ثم انطلق على رأسها من مراكش سنة 601هـ./1204[3] – 1205م.، ومع أن المصادر تُغفل الحديث عن الطريق الذي تكون، تلك الحملة، قد سلكته إلى إفريقية إلاّ أنه يُستنتج من

1) المعجب، ص 314 – 315.

2) العبر، 6، ص 518.

3) المعجب، ص 317؛ العبر، 6، ص 518؛ النويري: المصدر السابق، 445؛ Zerkechi: op.cit., P.21

بعض الإشارات[1]، أنها كانت حملة بحرية، حَلّت، أوّل الأمر، في تونس «فدخلوها وقتلوا من كان بها من أشـياع ابن غانية»[2]، وحاول الناصر ملاحقـة يحي بن غانية، في قفصة ثـم قابس، ولما اعتصم منه بجبال دمّر، تركه وراح يحاصر المهدية واسـتمر حصاره لها مدّة أربعة أشهر، ثم استسلم له حاكمُها عليّ بن الغازي، المعروف بالحاج الكافي، ابن عمّ يحي بن غانية[3].

وأثناء حصاره المهدية، سنة 602هـ./ 1205 – 1206م.، أخرج الناصرُ لدين الله أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص، على رأس أربعة آلاف مقاتلا للقاء ابن غانية، فاشـتبك معه بجبـل تاجرا، من منطقة قابـس، فهزمهُ وقَتل أخـاه جبّارة، وكاتبَه وعاملَـه، ولم ينجو إلاّ بأهله وولـده، تاركا وراءه، كلّ شـيء، بمن في ذلك الأَسـرى الموحدون الذين كانوا في قبضته، ومن بينهم والي تونس السابق، السيد أبو زيد، وكان هـذا الانتصار متزامنا، تقريبا، مع الانتصـار الذي حقّقه الناصر في المهدية[4].

---

(1) كقـول ابـن خلدون «وبعث الأسـطول فـي البحر لنظـر أبي يحي بن أبـي زكرياء الهزرجـي.... ووصل أسـطول الناصر إلـى تونس» (العبـر، 6، ص 518 – 519) وقول الزركشي (وحلّ الناصر، أوّلا، في تونس (op.cit., P.21).

(2) العبر، 6، ص 519.

(3) نفسه؛ النويري: المصدر السابق، ص 445؛ Zerkechi : op. cit., P 22.

(4) قارن: العبر، 6، ص 519؛ Zerkechi : op.cit., P.21-22



رجع الناصر، بعد ذلك، إلى تونس، حيث أقام سنةً، أي إلى منتصف عام 603هـ./ 1206 - 1207م.، أخرج أثناءها أخاه السيّد أبا إسحاق لملاحقة ابن غانية، فيما وراء طرابلس، واقترب من سُرت وبرقة، فوصل إلى سويقة بني مذكود، ولما اختفت عنه أخباره بعد توغّله في الصحراء، قفل راجعا إلى شقيقه بتونس[1]. عندما عزم هذا الأخير على الرجوع إلى حضرته اقترح على وزيره، الذي كان شيخ دولته وصاحب رأيه، أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص[2]، اقترح عليه ولاية إفريقية، فلم يقبلها إلاّ بشروط، هي: أن يعود للإقامة بالمغرب (الأقصى) بعدما يستحكم صلاح إفريقية، خلال ثلاث سنوات، وأن يختار بِحُريّة مَن يُريد الاحتفاظ بهم من الموحدين، لمساعدته في الظروف الصعبة، وأن تُحتَرم صلاحياته في تعيين مساعديه وإقصائهم. فوافق الخليفة على هذه الشروط وعاد إلى مرّاكش سنة 604هـ.[3]/ 1207 - 1208م.

علما أنّ المصادر لم تُشر، في كلامها عن أحداث هذه الحملة، إلى بجاية إلاّ عَرَضا، ومِن ذلك أن عبد الواحد المرّاكشي، في إشارته لأسباب قيام الخليفة بها، ذكر أن الميُورقيّ يحي بن غانية «كان ... قد

(1) العبر، 6، 519-520؛ Zerkechi: op.cit., P.22

(2) العبر، 6، 519-520؛ Zerkechi: op.cit., P.23؛ يسميه ابن أبي دينار: أبا محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص (المؤنس، ص 122).

(3) قارن: العبر، 6، 520، 583؛ Zerkechi: op.cit., P.23؛ المعجب، ص 318؛ النويري: المصدر السابق، ص 446.

استولى عليها (إفريقية)، خلا قَسَنطينة وبجاية»[1]؛ وقد حاول النّويري أن يعبّر عن نفس الشيء ولكن بأسلوب آخر، حيث قال «وفي سنة إحدى وستمائة (601 هـ) تجهّز (الخليفة) محمد بن يعقوب، في عُدّة عظيمة، لقصد إفريقية، وكان يحي بن غانية اللّمتوني استولى عليها، فأخلا قسنطينة وبجاية، فنزل إفريقية، ولم يمتنع عليه منها إلاّ المهدية»[2]؛ والذي يُفهم من النص الأوّل، كما هو واضح، غير الذي يُفهم من الثاني: فمن الأول يُفهم أن يحي بن غانية استولى على كامل إفريقية، باستثناء قسنطينة وبجاية؛ ومن الثاني يُفهم أن الخليفة الموحدي، وهو في طريقه إلى إفريقية، أخلاَ أي أفرغ مدينتي قسنطينة وبجاية من سكانهما، وهذا يدل على وجود خطأ في النسخ أو الطبع أضاف أو حذف صاحبُه فيه حرفَ «أ» إلى أو مِن كلمة «خلا»، فأثر ذلك على معنى النّص بكامله.

أوضاع بجاية الإدارية عشية قيام الدولة الحفصية

أشار ابن خلدون، وهو يتحدث عن عودة الخليفة الموحدي الناصر، من إفريقية إلى مرّاكش، سنة 604هـ./ 1207 - 1208م.، إلى أنه « أثناء ذلك تُوُفّيَ السيد أبو الربيع بن عبد الله ابن عبد المؤمن، صاحب تلمسان وسجلماسة، والسيد أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، صاحب بجاية، وقد كان أبو الربيع هذا والي بجاية من قبل، وهو الذي

(1) المعجب، ص 317.

(2) المصدر السابق، ص 445.



جـنّد الرفيع والبديع من ريّاضها . وكان بنو حمّاد شـيّدوهما ، من قبل، فأصابهما الخراب»[1] . علمًا أن السـيد أبا الربيع المشـار إليه هنا ، كان يتولّى بجاية، حسـب نفس المصدر، أثناء تعرّضها لغزو عليّ بن إسحاق بـن غانيـة وكان خارجها «في بعـض مذاهبه»، كما تبين سـابقا وربما كان آنـذاك فـي جولة صَيدٍ مثلا ، مثلما كان يفعـل قبله يحي بن العزيز الحمادي، وربما غيرُه من الولاة الموحدين؛ وقد يكون انغماسه في اللّهو هـو الذي أوحى له فكرةَ تجديد الرفيع والبديـع، التي تحدّث عنها ابن خلـدون هنـا ، وإلاّ كيف يُمكن تفسـير غيّابه عن عاصمـة ولايته، أثناء تعرّضها للغزو، ووُقوعها لُقمة صائغة في فم العدو، على الرغم من شدة حصانتها ، حيث لم تكن تُضاهيها ، آنذاك في الحصانة سوى المهدية؟

ونص ابن خلدون هذا مهّم، لأنه يقدّم جوابا لسؤال لا بّد وأن يتبادر لذهن متتبع سـير أحـداث هذه الحملة، وهو لماذا لـم يَبرُز جُهد والي بجايـة المجاورة لإفريقية في أحداثها؟ والجواب يَكمُن في هذا النّص، لقد مات عند عودته منها إلى عاصمته، سنة 604هـ./ 1207 - 1208م.، وهو ما يعني أنه كان مريضا قبل ذلك، وهذا مبرّر كاف لغيابه.

واللاّفت للانتباه، أن اسم ولاية بجاية لم يَرد ضمن قائمة الولايات التي عَيّن عليها الخليفة الناصر وُلاّت جددا ، بعد عودته إلى عاصمته، على غرار ما فعله بالنسـبة لتلمسان وجزيرة مَيُورقة وبَلَنْسية ومَرسية

1) العبر، 6، ص 520.

وكُورة جِيّان وإشبيلية وغرناطة[1]، مع أنّ واليها، السيد أبا الحسن بن أبي حفص، تُوفِيَ قبل أن يشرع الخليفة في تعييناته تلك، وبالتالي فإن منصبه بقي شاغرا، ولا يُعرف سبب ذلك، مع أن اسمها ورد في جواب بَعَثه الخليفة، سنة 605هـ./1208 - 1209م.، إلى أبي محمد، ردّا على خطاب بَشّرَه فيه بانتصاره على ابن غانية، بنواحي طرابلس، ويخبره فيه بأنّه نجا جريحا إلى أقصى مَفَرّه سنة 604هـ./1207 - 1208م.، وكان مبلغ ما كافأ به الخليفة واليه، بهذه المناسبة «مائتا ألف دينار، واِثنتان وألف وثمان مائة كسوة، وثلاثمائة سيف، وماية فرس، غير ما كان أنفذ إليه من سبتة وبجاية، ووعده بالزيادة.»[2] ولا يحدّد هذا النص، كما هو واضح، قيمة ما أُنفذ من بجاية إلى تونس ولا كيفية إنفاذه، وما إذا كان لواليها، إن وُجد، دَورٌ في ذلك. وقد ذكر ابن خلدون مرّة، أن يحي بن غانية زحف على تلمسان فحاصرها، ثم اضطر إلى التراجع عنها، واعترض الشيخ أبو محمد عبد الواحد طريقه، في ضواحي تبسة، فهزمه هناك وأجبره على اللّحاق بجهات طرابلس[3]، وذلك سنة 605هـ.[4]/1208 - 1209م.، وذكر نفس المؤلف،

(1) أنظر: العبر، 6، ص 520 - 521.

(2) العبر، 6، ص 585.

(3) العبر، 6، 521؛ Zerkechi: op.cit., P.24.

(4) نفسه؛ حسب الزركشي فإن تلك المعركة وقعت سنة 604هـ./ 1207 - 1208م.، (op.cit., P.24).



مرّة أخرى، في مكان آخر، أن يحي بن غانية هذا، قصد «بلاد زنانة بنواحي تلمسان» في الوقت الذي وصل فيه، إلى هذه الأخيرة، السيد أبو عِمران موسى بن يوسف، واليا عليها، فزحف إليه واشتبك معه في مدينة تاهرت، على الرغم من تحذير الشيخ أبي محمد، والي إفريقية، له منه وإحاطته علما بأنه يلاحقه، فهُزم والي تلمسان وقُتل، واستبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها، وانقلبوا إلى إفريقية، فاعترضهم الشيخ أبو محمد بموضع [كذا] فأوقع بهم... ولحق فُلّهم بناحية طرابلس»[1]؛ وذكر ابن خلدون كذلك، في مكان ثالث، أن ابن غانية «بعد استفتاح أبي محمد تاهرت، من يده، خَلُص إلى جهات طرابلس،...»[2]؛ ونفس الشيء حدث أيّام السيد أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذي تولّى إفريقية، بعد أبي محمد بن أبي حفص، سنة 618هـ، وخرج من تونس سنة 619هـ.، لتَعقُّب حركة ابن غانية وعلم أنه انتقل من ودّان «إلى الزاب وأن أهل بسكرة أطاعوه»[3]، ولما أحس أبو العلاء بمرض، عاد إلى عاصمة ولايته، تونس، وكلّف ابنَه السيد أبا زيد بمهمة القتال لكن عدوّه فرّ أمامه إلى الصحراء، وعاقب أبو زيد أهل بسكرة بالنهب والتخريب ثم عاد إلى تونس[4].

1. العبر، 6، 585.
2. نفس المصدر، ص 585 – 586.
3. نفس المصدر، ص 590.
4. العبر، 6، ص 585.

والمعـروف أن كلاّ من تبسـة وتاهرت والزّاب وبسـكرة، التي كانت مسـرحا للأحداث الواردة، في نصوص ابن خلدون الأربع هذه، كانت تابعـة للدولة الحمادية التي اسـتولى عليها الموحـدون، وأبقوا مكانَها ولايـةً، حاضرتَها بجاية، أي أنّها تدخل في نطاق ولايتها، وبالتالي فإن المسؤول الأول، بعد الخليفة، عمّا يقع من أحداث، في ذلك النطاق، هو والي تلك الولاية. فهل معنى ذلك أن منصبه كان شـاغرا؟ أم أن هناك تداخلا في صلاحيات أولائك الولاة؟ وهذا أمرٌ مسـتبعد. أم أنّ إطار ولاية بجاية قد تقلّص آنذاك؟ وما سبب ذلك التقلص، إن حدث فعلا؟

وعلـى كلّ فإن اسـم والـي بجاية اختفى من المصـادر، في بقية أيام الخليفة الناصر، التي استمرت إلى سنة 610هـ.[1]/ 1213 – 1214م.، وفي أيّام وَلده وخليفته، أبي يعقوب الثاني، يوسف بن محمد بن يعقوب المُلقّب بالمسـتنصر، والتي اسـتمرت إلى 620هـ./ 1223 – 1224م[2].، مع أنه قام بتعيين بعض الوُلاة و عزل بعضَهم الآخر[3]؛ ولم يكن والي بجاية من بينهم؛ وفـي أيام خلافة أخي المنصور، السـيد أبي محمد عبد الواحد، الملقب بالمخلوع، التي اسـتمرت إلى 621هــ./ 1224 – 1225م.، أمّا العادل الذي استمرت خلافتُه إلى سنة 624هـ./ 1127 – 1128م.، فإن ابن خلدون يذكر

(1) العبر، 6، ص 522؛ المعجب، 323؛ .Zerkechi op.cit., P.24:

(2) العبر، 6، 525؛ المعجب، 323؛ .Zerkechi op.cit., P.26

(3) أنظر: العبر، 6، ص 524.



أنه «ولى على إفريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد، وولّى على بجاية يحي بن الأطاس التينمللي، وعزل عنها ابن يغمور»[1] دون أن يقول متى وكيف وُلي عليها؛ وبعد ذلك، أي في خلافة المأمون بن المنصور التي استمرت إلى سنة 630هـ./ 1132 - 1133م.، يذكر ابن خلدون، من بين الذين بايعوه بالخلافة، «صاحب فاس وصاحب تلمسان، محمد بن أبي زيد بن يوجان، وصاحب سبتة أبو (أبا) موسى بن المنصور، وصاحب بجاية، ابن أخيه ابن الأطاس؛ وامتنع صاحب إفريقية...»[2]، لكن اسمه كما يلاحظ، غير مذكور، بل يُفهم من تعبير «... وصاحب بجاية ابن أخيه ابن الأطاس» أحَد المَعنَيَيْن: إمّا أن يكون المقصود به: «أبو موسى ابن المنصور، وصاحب بجاية ابن أخيه» دون ابن الأطاس، وإمّا أن يكون المقصود «أبو موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخي ابن الأطاس».

ولحسن الحظ فإن ابن خلدون صحّح نفسه في مكان آخر، عندما ذكر أن الخليفة العادل «ولّى على بجاية يحي بن الأطاس التّينَمَلَلي»[3] ويكون اسم هذه الشخصية هو المقصود هنا، بدون شك، وهو ما أكّدهُ الزّركشي عندما ذكر الذين بايعوا المأمون، ومن بينهم «أبو موسى بن المنصور، والي سبتة ووالي بجاية ابن الأطاس، ابن أختهِ»[4].

---

(1) العبر، 6، ص 591.

(2) العبر، 6، 529.

(3) العبر، 6، ص 591.

(4) op.cit., P.30.



ولم يكن ليحي بن الأطاس هذا أي ذِكْر في أخبار بجاية، كسابقيه تماما؛ ومن تلك الأخبار، أن والي إفريقية أبَا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد، توقّف بها أثناء رحلته من مرّاكش إلى تونس، لِاَستلام مَهامه، ومِنها قدّم أخاه الأمير أبا زكرياء إلى تونس ليُنظّم له استقبالا شعبيا، فأوقع، وهو في طريقه إليها بقبيلة وَلْهَاصة، لأن رؤساءها، أولاد شدّاد، كانوا قد تجمعوا بناحية بُونَة لاعتراض طريق أخيه، وخرج أبو زكرياء من تونس، في رَمضان من نفس السنة 623هـ./ 1226 – 1227م.، و«معه الناس على طبقاتهم» فاستقبلوا أخاه أبا محمد في سطيف، ومنها سار الجميع إلى حضرة الولاية، تونس، فدخلوها في شهر ذي القعدة[1].

وما يُلاحظ، فيما وقع أثناء هذه الرحلة، هو غيّاب والي بجاية عن أحداث كل ما جرى فيها، سواء في حضرته (بجاية) أو في النواحي التابعة لها كبُونَة وسطيف، بل أكثر من ذلك، فإن أبا محمد عبد الله «بعد استقراره بتونس، بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوةً، ثم تخطّى كذلك إلى تدلس (دَلّس)، فرحل من تونس... في اتّباع ابن غانية، فانتهى إلى بجاية، وسكّن أحوالها، ثم إلى متيجة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سجلماسة، فانكفأ راجعا إلى تونس...»[2].

(1) العبر، 6، ص 592.

(2) العبر، 6، ص 592.



والسؤال الذي يفرض نفسه على متتبع تطوّر هذه الأحداث، هو: أين ذهب ابن الأطاس، والي بجاية، لماذا لم يدافع عن ولايته، بل وحتى حضرته؟ ولماذا تَرك الدّفاع عنها إلى والي إفريقية أبي محمد عبد الله؟ هل أصبح ذلك يَدخل في إطار صلاحيته الإدارية؟ وبمعنى آخر، هل أصبحت بجاية تابعة، إداريا، لولاية إفريقية؟ وقد لا تُستبعَد الإجابة بنعم عن هذا السؤال الأخير، خاصة وأن التاريخ لم يُسجّل أنّ الواليين الآخرين، اللّذين عُيّنا، بعد عودة الخليفة الناصر، من إفريقية إلى مرّاكش سنة 604هـ./ 1107م.، انشغلا بمسألة حمايتها والدفاع عنها.

ويبدو أيضا وكأن بجاية، فقدت في هذه المرحلة من تاريخها أهميتها الإستراتيجية وهذا ما يفسّر استيلاء بني غانية عليها، مرّتين متاليتين، بدون كبير عناء، فلم يكن حالها، إذًا، على أحسن ما يرام عشيّة قيام الدولة الحفصية.

الفصل الثالث

تاريخ بجاية في ظلّ الدّولة الحفصية



ظروف قيام الدولة الحفصية

تنتسب الدولة الحفصية إلى جدّ أسرتها الحاكمة، الشيخ عمر آصناج[1] المعروف بالشيخ أبي حفص عمر الهِنْتَاني[2]، وهو أحد العشرة الأوائل الذين بايعوا المهدي بن تومرت بالإمامة[3]، وكان «أمرُ بني عبد المؤمنَ (أي توليتهم الخلافة)، إنّما تمّ بوفاق الشيخ أبي حفص (هذا) ومظاهرته»[4] فحضي منهم، هو وأبناؤه، باحترام وتقدير كبيرين[5]، عرفانا منهم بهذا الجميل، ممّا جعلهم يُولّونهم المناصب القيادية العليا في الدولة.

وكان الخليفة الموحدي، أبو يوسف يعقوب المنصور، أوصى الشيخَ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر، بابنه ووليّ عهده محمد وبإخوته[6] فلمّا تولى محمد الأمر وتلقّب بالناصر لدين الله

1) البيدق: المصدر السابق، ص 64.

2) المؤنس، ص 130.

3) نفسه؛ البيدق، ص 64.

4) العبر، 6، ص 583.

5) نفسه.

6) العبر، 6، ص 115، 583.



«استوزر أبا زيد بن يوجان، وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص. ثم استوزر أبا محمد (عبد الواحد) ابن الشيخ أبي حفص (عمر)»[1] نفسه، وَ«كان شيخ دولته وصاحب رأيه»[2] ولما بلغته أنباءُ وقوعِ وَاليّه على إفريقية، السيد أبي زيد، أسيرا في قبضة ابن غانية، وسيطرةِ هذا الأخير على مناطقها شاور الموحدين في أمره، فأشاروا عليه بمسالمته. «وأشار أبو محمد بن الشيخ أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ونهض من مرّاكش سنة إحدى وستمائة 601هـ./ 1204 – 1205م»[3].

وقد حلّ أسطول الناصر، في أوّل الأمر بمدينة تونس، فاستردّها من أتباع ابن غانية ثم راح يُطارده في كلٍّ من قفصة وقابس، ولما أعجزه، قصد مدينة المهدية التي كانت، هي الأخرى، تحت سيطرة بني غانية فرض عليها حصارا، ومن هناك وجّه، سنة 602 هـ./ 1205 – 1206م.، أبا محمد بن الشيخ أبي حفص، على رأس 4000 مقاتلا، في مهمة التصدي لابن غانية. فلقيه بجبل تاجُرا من ناحية قابس، حيث هزمه هزيمة نكراء، لم ينجو فيها إلاّ بأهله وولده[4] «واستولى على

(1) العبر، 6، ص 515؛ Zerkechi : op.cit., P.21.

(2) نفس المصدر، ص 520.

(3) العبر، 6، ص 518.

(4) العبر، 6، ص 519.



معسكرهم وما كان بأيدهم... واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم، ورجع إلى الناصر بعسكره من حصار المهدية... وعاين أهلُ المهدية يوم مَقْدمه بالغنائم والأسرى فبُهتوا.. وسألوا النزول على الأمان. وكمل فتح المهدية...»[1] وبمعنى آخر فإن أبا محمد بن الشيخ أبي حفص حقق نصرين في آن واحد: نصرا في تاجرا ونصرا في المهدية.

وعندما فكر الخليفة الناصر في الرجوع، من إفريقية إلى مرّاكش، في منتَصف سنة 603هـ./ 1206 - 1207م. «بدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها، وأن مرّاكش بعيدة عن الصريخ (أي النجدة)، وأنه لابّد من رَجُل يسدّ فيها مسدّ الخلافة... فوقف اختياره على أبي محمد بن الشيخ أبي حفص»[2]، غير أن هذا الأخير لم يقبل عرضه إلاّ بشروط كما تبيّن سابقا، ولما وصل الخليفة إلى حضرته، استمر الاتصال جاريا بينه وبين أبي محمد الذي كان يزوّده بأخبار الانتصارات التي يُحققها على يحي بن غانية، ويتلقى منه «المال والخيل والكساء للإنفاق والعطاء»[3] لجنوده؛ فاستفحل أمره «بإفريقية وحسم علل الفساد منها واستوفى جبايتها، وطالت مواقف حروبه ولم تهزم له فيها راية»[4].

1) نفس المصدر، 582؛ قارن op.cit., PP.21 - 22 : Zerkechi.

2) نفس المصدر، ص 583؛ op.cit., P.2 3 : Zerkechi.

3) العبر، 6، 584.

4) نفس المصدر، ص 587.



وعلى الرغم من أنه تردّد في مبايعة ابن الخليفة الناصر يوسف، لصغر سنّه، بعد وفاة أبيه سنة 610هـ.[1]/ 1213 – 1214م، إلاّ أن اعترافه بخلافته كان عنده وعند «قومه من أعظم البشائر، وتسمّى لها بأمير المؤمنين»[2] ولُقب بالمستنصر، وأبقى أبا محمد على عمل إفريقية «وسرّب إليه الأموال لنفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة (618هـ./ 1121 – 1122م.)»[3]؛ فعُين مكانه السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، واسْتُدعي أبناءُهُ إلى الحضرة[4]، أي مرّاكش.

وصل أبو العلاء إلى مقرّ عمله، تونس، في نفس العام، أي سنة 618هـ. وفي سنة 619هـ./ 1222 – 1223م.، خرج على رأس حملة عسكرية إلى نواحي قابس، لغرض القضاء على ابن غانية، ولما حلّ بقصر العروسين «سرّح ولدَه السيد أبا زيد، إلى درج وغدامس، من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها»[5] وقصد هو وُدّان لمجابهة ابن

(1) Zerkechi: op.cit., P.24 ؛ حسب ابن خلدون فإن ذلك حدث سنة «ثلاث وستين» (663هـ./1244 – 65م.)، (العبر، 6، 580هـ) غير أن تطوّر سير الأحداث يبيّن أن هذا التاريخ خاطئ.

(2) العبر، 6، ص 580.

(3) العبر، 6، ص 587؛ Zerkechi: op.cit., P.25

(4) العبر، 6، ص 587 – 588؛ Zerkechi: op.cit., P.25؛ المؤنس، ص 131.

(5) العبر، 6، ص 589.



غانيــة لكن المــرض طرقه، فعاد إلى تونس، وهنــاك عَلِم أن ابن غانية صــار «من ودّان إلى الزاب وأن أهل بسكرة أطاعوه»[1] فرماه بابنه أبي زيد وعندما فرّ أمامه إلى الصحراء رجع إلى بســكرة، وأنزل بسكانها «عقابــه مــن النهب والتخريــب»[2] قبل أن يعود إلى تونــس. ورجع ابن غانيــة ثانية «إلى جوانب إفريقية»[3] وســار إليه الســيد أبو زيد، مرّة أخــرى، ولمّا وصل القيروان علم أنه خالفه إلــى تونس، فقصده هناك واشــتبك معه بمجدول، من ضواحِيها، ســنة 621هــ./ 1224 – 1225م، وألحق به هزيمة كبرى، بعدما بلغه خبر وفاة والده بعاصمة ولايته، في نهاية سنة 620هـ./ 1223 – 1224م[4].

وتوفــي الخليفة المســتنصر، في نفــس تلك الســنة 620هـ، فخلفه ابنه عبد الواحد الملقب بالمخلوع، فعيّن الســيد أبَا زيد في منصب أبيه «فأرســل عنانهُ في الولاية، وبســط يده في الناس بمكروهه، وتنكرت لــه الوجوه، وانحــرف عنه الناس، بمــا كانوا عليه مــن الصاغية لأبي محمــد بن أبي حفص ووَلده، إلى أن عُــزل»[5] بعد وفاة المخلوع وتولية

---

1) العبر، ص 590.

2) نفسه.

3) نفسه.

4) العبر، 6، ص 590، قارن Zerkechi : op.cit., PP.25 - 26.

5) العبر، 6، ص 591.

أبـي محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الملّقب بالعادل سـنة 621هـ./ 1224 – 1225م[1].

ذلك أن الخليفة العادل عيّن على ولاية إفريقية، بعد ارْتقائه عرش الخلافة مباشـرة، أبا محمد عبد الله بن أبـي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، المدعو عُبّو، فوصل تونس بمعيّة شقيقه الأمير أبي زكرياء يحي، في 17 من شهر ذي القعدة أو في شعبان 623هـ./ يونيو أغسطس 1226م.، ولحق به شـقيقه الآخر، أبـو إبراهيم، في نفس العام، «فعقد له على بلاد قسـطيلية، وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليهـا ...»[2] ثـم راح يلاحق ابن غانية، ويبسـط نفوذه فـي بقية أنحاء ولايته، واستمر الأمر كذلك إلى أن قُتل العادل بمراكش، سنة 624هـ./ 1227 – 1228م.، وبويـع مكانـه أبو العلاء إدريس بـن يعقوب المنصور، والي إشبيلية، ولُقب بالمأمون[3].

وكان المأمون قد دخل في خلاف مع أخيه العادل ودعا لنفسه، قبل مقتله، فبعث «إلى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من

(1) العبر، 6، ص 591؛ Zerkechi: op.cit, P.25.

(2) العبـر، 6، ص 592؛ قارن Zerkechi: op.cit., PP.26؛ المؤنس، ص 131؛ حسـب ابن أبي دينار، فإن وصوله كان سنة 618هـ./ 1121 – 1122م.

(3) العبر، 6، ص 593؛ Zerkechi. op.cit., PP.29.



بها من الموحدين»[1]، ولما امتنع أبو محمد، وردّ رسـله إليه، كتب بذلك لأخيـه الأمير أبي زكرياء في قابـس، «وعقد له على إفريقية فأخذ له البيعـة على من إليـه»[2] ولما علم أخوه بالأمر وراح يسـتعد لحربه، لم يجـد مَن يناصره فتراجع، وخلع نفسـه، في حين قـدِم أبو زكرياء إلى تونس ودخلها في 24 رجب من سـنة 625هـ./ 30 يونيو 1228م، وبعثه، بحرا، إلى المغرب[3] أو إلى مدينة إشبيلية بالأندلس[4].

بهـذه الطريقة تولى أبو زكرياء يحي بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمـر الهنتاني[5]، أمر إفريقية، ولم يمض وقت طويل حتى «اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمرّاكش، وخصوصا هنتاتة وتينملـل... وأنه أشـاع النكير علـى المهدي في العصمـة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسـان البربـري، وإحداث النداء للصبح، وتربيع شـكل الدرهم وغير ذلك من سُـننه، وأنه غيّر رسـوم الدعوة،

(1) العبر، 6، ص 593.

(2) نفسه.

(3) العبر، 6، 593 – 594؛ Zerkechi: op.cit., PP.30 - 31؛ المؤنس، ص 132؛ بالنسبة لأعذاري فـإن وقوع تلك الأحداث ودخول الأمير أبي زكرياء إلى تونس كان سـنة 627هـ/ 1229 – 1230م.

(4) المؤنس، ص 132.

(5) يلاحظ أنّ ابن أبي دينار يضيف كُنية «أبي بكر» بعد اسـم عبد الواحد، وقبل ابن أبي حفص فيصبح اسـمه بالنسـبة إليـه هكذا «أبو زكرياء يحي بـن أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاتي» (المؤنس، ص 132).



وبدّل أصول الدولة، وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة، وأعلن بلعنه»[1]، وهذا ما جعل أبا زكرياء يطرد «بعض العمال» الذين كانوا وصلوا إلى تونس من قِبَل المأمون ويُعلن خلعه[2]، أي سحب اعترافه بخلافته، وذلك سنة 626هـ.[3]/ 1228 - 1229م. أو سنة 627 هـ[4].

وأوّل ما فعله أبو زكرياء، بعد ذلك الخلع، هو تحويل الدعوة، في خطبة الجمعة، إلى يحي بن الناصر، أخي المأمون، وكان ثائرا عليه بجبال الهساكرة[5]، ولمّا علم بعجزه عن المطالبة بالخلافة واكتفائه بإعلان استقلاله عنها، أغفل الدعوة له، واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقّب بالأمير[6].

---

(1) العبر، 6، ص 594.

(2) العبر، 6، ص 594؛ يقتصر الزركشي على حصر سبب الخلع في وصول هؤلاء العمال إلى تونس، دون الإشارة إلى المعلومات التي أشار إليها ابن خلدون عما يكون المأمون قام به من إجراءات سياسية، كما أنّ E. Fagnan ترجم مصطلح «العمال» بجُباة الضرائب (Collecteurs d'impôts)، وراح يعلّق في الهامش قائلا: إن كلمة عَامِل يمكن أن يكون لها معنى «الموظف» (op.cit., P.31, note 2: Zerkechi).

(3) نفسه.

(4) البيان، قسم الموحدين، ص 293؛ op.cit., PP.32: Zerkechi.

(5) العبر، 6، ص 594؛ حسب الزركشي، فإن يحي بن الناصر هذا تقدّم لحرب المأمون الذي خرج إليه من مرّاكش وهزمه فبقي محصورا في بلاد هرغة وسجلمانة (op.cit., P.32).

(6) نفسه؛ Id؛ البيان، قسم الموحدين، 293.



استيلاء الحفصيين على بجاية وإعادة توسيع نطاق نفوذها.

كان أوّل عمل عسكري قام به الأمير أبو زكرياء يحي، بعد استقلاله بأمر إفريقية، هو قيامه بحملة على قسنطينة، فحاصرها أياما ثم دخلها سنة 626هـ.[1]/ 1228 - 1229م، أو 628هـ./ 1230 - 1231م، «وتقبّض على واليها السيد بن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري، وولّى عليها ابن النعمان ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبض على واليها السيد أبي عمران بن السيد أبي عبد الله الخرصاني، وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهدية،... وبعث معهما إلى المهدية، في الاعتقال، محمد بن جامع وابنه وابن أخيه... من شيوخ مرداس ابن عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الدواودة...»[2]. وعقد على بجاية لابن عمه أبي علي عمر بن أبي موسى[3].

وما يلاحظ، حسب هذه المعلومات التي يتفق، في مضمونها، كلّ من ابن خلدون والزركشي، أن مدينة قسنطينة لم تعد تابعة إداريا لمدينة بجاية، بل صارت ندًا لها يحكمها، مثلها، سيّد من أحفاد الخليفة عبد المؤمن بن عليّ، مِمّا يعني أن نفوذ بجاية قد تقلّص كثيرا

1) العبر، 6، 595.

2) العبر، 6، 595 - 596؛ Zerkechi: op.cit., P.33 - 34.

3) برَنشفيك: المرجع السابق، ص 53.

في المغرب الأوسط، وهو ما يفّسر عجزها عن الدفاع عن نفسها، قبل ذلك التاريخ بقليل، أي منذ بدء لَمَعان نجم ولاية إفريقية، وكأنّ توسع نفوذ هذه الأخيرة حدث على حسابها.

والمهم أنّ أبا زكرياء تفرّغ، بعد استيلائه على بجاية وقسنطينة، إلى ملاحقة يحي بن غانية في نواحي أعماله، «وأنزل بالأطراف عساكره وعمّاله لمنعها دونه... إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة (631هـ./ 1233 – 1234م.)... فانقطع ذكره... واستقام أمر الدولة، ونبضت منها عروق الاستيلاء، واتساع نطاق الملك»، على حدّ تعبير عبد الرحمن بن خلدون[1]، وبعدئذ آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله، بحيث جدّد البيعة لنفسه سنة 634هـ./1236 – 1237م، «وثبّت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام (المهدي)، مقتصرا على لفظ الأمير»[2] دون أن يتجاوزه إلى أمير المؤمنين.

وفي نفس تلك السنة، سنة 634هـ.، حسب الزركشي[3]، أو في سنة 632هـ./ 1233 – 1234م.، حسب ابن خلدون[4]، خرج أبو زكرياء من تونس، قاصدًا «بلاد زناتة بالمغرب الأوسط، وأغذّ السير إلى

(1) المصدر السابق، ص 596 – 597.

(2) العبر، 6، 594 – 595؛ Zerkechi: op.cit., P.36.

(3) op.cit., P.36 - 37.

(4) العبر، 6، 597.



بجايــة... ثم ارتحل إلى الجزائر، فافتتحها وولّى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة، فأطاعه بنومنديــل... وجاهر بنو توجين بخلافه... فأوقع بهم ودوّخ المغرب الأوسط»[1] بحيث واصل زحفه، متبعا طريق وادي شــلف، إلى أن بلغ ملتقى ذلك الــوَادي بوادي مينة[2]. ثم عاد من حيث أتــى، وعقد، أثناء عودته تلك، لابنه الأمير أبي يحي زكرياء على بجايــة وأنزله بهــا[3] «وجعل له النظر في ســائر أعمالها، من الجزائر وقســنطينة وبونــة والــزاب...»[4]، وبهــذا يكــون أبو زكريــاء قد أعاد إليهــا اعتبارها، فتوســعت رقعتها، كما كانت أيام بنــي حمّاد؛ وأصبح واليهــا جديــرا بخلافة أبيه «فــولاه... عهده ســنة ثمــان وثلاثين»[5] (638هـ./1241 – 1242م)، وكان يافعا[6] «فاستوزر له يحي بن صالح بن إبراهيم... وجعل شــواره لعبد الله بن أبــي تهدي، وجبايته لعبد الحق ابن ياسين، وكلّهم من هنتاتة»[7].

(1) العبر، 6، 597؛ op.cit., P.37: Zerkechi.

(2) أنظر. برنشفيك روباز: المرجع السابق، جـ.1، ص 52.

(3) العبر، 6، ص 597؛ op.cit., P.37 :Zerkechi؛ حسب ابن خلدون فإن هذه التولية حدثت سنة 633هـ/ 1234 – 1235م. (العبر، 6، ص 620)

(4) العبر، 6، ص 620.

(5) العبر، 6، ص 620؛ op.cit., P.37: Zerkechi.

(6) برنشفيك ر.: المرجع السابق، ص 54.

(7) العبر، 6، ص 597.



وفي سنة 639هـ./ 1242 - 1243م.، قام أبو زكرياء بحملة على تلمسان تلبية لطلب بعض أمراء مغراوة، من بني توجين وأَوْلاد منديل، الذين استنجدوا به على يَغمرَاسن بن زيان، أمير بني عبد الوادي هناك، منذ سنة 633هـ./ 1236 - 1237م.، وكان يغمراسن متحيّزًا إلى بني عبد المؤمن، ويقيم دعوتهم في عمله، وكانت علاقته وطيدة بخليفتهم الرّشيد، وهذا ما لم يُعجب أبا زكرياء الحفْصي، الذي كان يسعى لاستمالة قبائل زناتة والاستعانة بها لِلاستيلاء على كُرْسيّ الخلافة في مرّاكش، فتحيّن أبو زكرياء فرصة هذا الاستنجاد، وانطلق على رأس قوة كبيرة من المقاتلين، فحاصر المدينة المذكورة واستولى عليها بعد فرار صاحبها منها، سنة 640هـ./ 1242 - 1243م.، ثم تفاوض الطرفان، بواسطة سوط النساء، أُم يغمراسن، واتفقا على استرجاع يغمراسن لمنصبه في مقابل «أن يُفرد أبو زكرياء بالدعوة الموحدية، أي الحفصية، وأن يكون الطرفان يدا واحدة على صاحب مرّاكش، كما نص الاتفاق على إطلاق أيدي عمال يغمراسن على جباية بعض الأعمال بإفريقية[1]».

وفي طريق عودة أبي زكرياء «وَسْوَس إليه الموحّدون (الحفصيون) باستبداد يَغمُراسن، وأشاروا عليه بإقامة منافسيه، من زناتة وأمراء

---

(1) قارن: العبر، 6، ص 607 فما بعدها؛ Zerkechi: op.cit., P.38 - 39؛ أنظر. بَرشفيك: المرجع السابق، ص 60.



المغرب الأوسط، شجي (شحيا) في صدره، ومعترضا عن مراميه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيّه، فأجابهم، وقلّد كلاً من عبد القوي بن عطية التّوجينيّ، والعباس ابن منديل المغراوي، ومنصور المليكشي، أمر قومه ووطنه... وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية، على سنن يغمراسن قريعهم»، حسب تعبير عبد الرحمن بن خلدون[1]، وبمعنى آخر، أشار عليه الخبراء العسكريون، مِن أصحابه، بإقامة منطقة عَازلة بينه وبين خلفاء الدولة الموحدية، في المغرب الأوسط، وهذا اقتراح إِستراتيجي وليس مجرّد وسوسة من الوساوس التي يمكن أن يكون دافعها الغيرة والحسد.

وبهذه الصورة كان يُمكنُه، كما يرى برنْشفيك، إقامَة عدد من الدّوَيْلات التابعة له مباشرة، بينه وبين خصمه السابق، يغمراسن، مكوّنة مجموعة من الحصون الكفيلة بحماية إمارته، من أيّ هجوم قادم من ناحيتها الغربية، بقدر ما تُسهّل عليه شنّ غارات على المغرب[2]. مع ملاحظة أن استبدال برنشفيك لمصطلح «المغرب الأوسط» في نص ابن خلدون، بمصطلح «الجزائر الوسطى» في غير محله، لأن مصطلح الجزائر، وليس الجزائر الوسطى، ظهر فيما بعد، كما أن مصطلح المغرب الأوسط الذي أطلقه ابن خلدون، على غرب الجزائر الحالية،

(1) العبر، 6، ص 610.

(2) برنشفيك: المرجع السابق، ص 61.



وقَسم من وسطها، يصل إلى مليانة تقريبا، وكان يطلق، أيام الدولة الحمادية، على القسم الآخر من الجزائر الوسطى الحالية، إضافة إلى نواحيها الشرقية التي تمتدّ إلى إقليم بونة (عنابة)، وكانت له حاضرتان متتاليتان، هما: قلعة بني حماد، فبجاية؛ وبمعنى آخر فإن إطار المغرب الأوسط هو ما كان مجالا لقبائل البرانس، وأهمها كتامة وصنهاجة شرقا، وقبائل البُتر، وأهمها زناتة غربا، ومن أهم حواضره: تاهرت وأشير وقلعة بني حماد وبجاية وتلمسان ووجدة، غير أن قسمه الشرقي صار، مع قيام الدولة الحفصية، تابعا إداريا لإفريقية التي كانت حاضرتها مدينة تونس، وبقيت عاصمته هي نفسها، بجاية، ولم يطرأ على إطاره الجغرافي أي تغيير يذكر؛ ومع أن ولاية بجاية الحفصية، كانت تتوسّط مناطق الصّراع بين يغمراسن وأبي زكرياء إلاّ أن ابن خلدون الذي تحدث عنه لم يُبرز لها أي دور فيه، فإن لم يكن لها فيه أي دور فعلا، فما السبب في ذلك؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال.

وضعية بجاية الإدارية بعد وفاة واليها الحفصي الأول.

هلك والي بجاية الأوّل، الأمير أبا يحي زكرياء، سنة 646هـ.[1]/ 1248 - 1249م.، تاركا وراءه مَنْصِبين ساميّين شاغرين في الإمارة

(1) العبر، 6، ص 628؛ حسب الزركشي فإن الذي توفي في هذا التاريخ ببجاية هو أمير تونس أبو زكرياء (op.cit., P.41) وهذا خطأ واضح لأن نفس المؤلف يحدّد تاريخ وفاة أبي زكرياء كغيره من المؤرخين سنة 647هـ/1249 - 1250م، (op.cit., P.43).



الحفصيــة، هما: ولاية العهــد وولاية بجاية، فانشــغل والده بتعويض الأولــى، «فعقد العهد، من بعده، لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد»[1]، وغض الطرف، على ما يبدو، عن الثانية، وهذا ما يفسّــر عدم إشــارة المؤرخين إلى مسؤول تلك الولاية، أثناء الجولة التي قام بها السلطان أبــو زكريــاء فيهــا، حيث وصل إلــى جهة قسـنطينة للإشــراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية، فعرض العساكر بها وأصابه هنالك مرض فرجع إلى قســنطينة حتــى خفّ عنه، فقصد بونــة فتوفى بظاهرها، سـنة 647هـ.[2]/ 1249 – 1250م.، فهل لــو كان لبجاية وال، آنذاك، كان سيبقى بعيدا عن أحداث هذه الجولة التي تمت داخل إطار ولايته؟

المهم أنه بعد وفــاة أبي زكرياء في بونة، بويع ابنه ووليّ عهده، الأمير أبو عبد الله، وَأضاف إلى تسمية «أمير» كلمة «المؤمنين»، فأصبح يسمّى أمير المؤمنين ثم تلقب بالمستنصر بالله[3]. وكان بين المستنصر وبين أخيه الأمير أبي إســحاق حساســية ملحوظة: فلما خرج المستنصر، ذات يوم من ســنة 651هـ./ 1253م.، من مدينة تونس، في مهمة ســلطانية، انتهز شقيقه أبو إسحاق الفرصة «ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوهُ برَوَايَا(*) من نواحي نقاوس... وبايع له ظافر، مولى أبيه، النازع إليهم... وقصدوا

---

(1) العبر، 6، ص 623.

(2) نفس المصدر، ص 624.

(3) قارن. العبر، 6، 626؛ op.cit., P.44 : Zerkechi.

(*) يسميها ابن خلدون هنا «روايا»؛ ويسميها في مكان آخر «زراية» (العبر، 6، ص 662).

بِسْكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فَضلُ بن علي بن حسن بن مُزني، من مشيختها ... ثم بايع له أهل بسكرة...»[1] وأخذ الجميع يتأهبون للاستيلاء على قابس، وآنذاك تخلى عنه ظافر، وتسبب ذلك في تشتّت صفوف أتباعه ولجوئه إلى تلمسان فإلى الأندلس.

والمعروف أن كُلاّ من نقاوس، التي تقع روايا في ضواحيها، وبسكرة كانتا تدخلان في إطار ولاية بجاية؛ فهل انفصلت هاتان المنطقتان عنها، كما انفَصلت عنها قسنطينة، في أوّل خلافة المستنصر؟ ذلك أن هذه الأخيرة خلُصت لبني النعمان، من مشيخة هنتاتة، لما كان لهم من ظهور أيام الأمير أبي زكرياء، فصاروا يولّون عليها أقاربهم، ثم وقفوا ضد المستنصر، عندما ثار عليه ابن محمد اللحياني[2]، وبعدما تغلب المستنصر، على تلك الثورة التفَتَ إليهم سنة 657هـ./ 1208 – 1209م.، وقضى عليهم، قبل أن يزحف على الزّاب ويقضي على ثورة المسمّى ابن أبي عُمارة[3]. فمن الواضح إذا، أنّ والي بجاية لم يكن مَعنيّا بالمشاكل السياسية لهذه المناطق، مما يعني أنها خرجت عن نطاق ولايته، أو أنه لم يُعيَّن بعدُ على الولاية المذكورة، خَلَفًا لواليها الأوّل، الأمير أبي يحي زكرياء، بعد وفاته.

(1) العبر، 6، ص 632.

(2) عن هذه الثورة أنظر. العبر، 6، ص 627 – 628.

(3) العبر، 6، 633 – 634؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 71 – 72.



ولاية أبي هلال عياد على بجاية ونشاطه فيها.

لم يتطرق ابن خلدون، وهو المصدر الرئيسي في هذا الموضوع، لمسألة ولاية بجاية إلاّ بمناسبة حديثه عن ثورة أبي عليّ الملياني، صاحب مليانة، الذي خلع طاعة الحَفصيّين وراح يدعو لنفسه، بعدما رأى تقلّص نفوذهم، وما نشأ من صراع، بين قبيلة مغرواة وبين أمير تلمسان، يَغْمُراسن بن زيان، في المغرب الأوسط، وكان تابعا لهم، يسيطر على المناطق الواقعة من تلمسان إلى بجاية؛ عندئذ رماه السلطان الحفصي بأخيه الأمير أبي حفص، سنة 659هـ./ 1261 – 1262م.، فهزمه إلى المغرب الأقصى وعقد على المدينة إلى ابن منديل المغراوي، ثم كرّ راجعا إلى تونس، فوصله، وهو في طريقه إليها، كِتابُ السلطان بالعقد له على بجاية وإمارتها، لكنه أبدى عدم رغبته في هذا المنصب، وتَفضيلَه البقاء في تونس بجوار السلطان، وعلم هذا الأخير بالأمر، فعيّن عليها الشيخ أبا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وعاد أبو حفص إلى الحضرة سنة 661هـ./ 1263[1] – 1264م.

وفي نفس تلك السنة لحق أبو القاسم بن أبي زيد، وهو ابن عم الخليفة، برياح ونزل عند شبل بن موسى، رئيس الدّواودة منهم،

1) العبر، 6، ص 656 فما بعدها؛ يذكر برنشفيك أن بجاية كان يحكمها في أوّل الأمر أحد إخوة السلطان، الأمير أبي حفص، ثم انْتُزعت منه سنة 660هـ./ 1262، وعُهِدَ بها إلى الهنتاتي أبي هلال...» (المرجع السابق، ص 99 – 100) وهذا غير صحيح.



لخوفه من ابن عمه، لِمَا أُشيع عنه بأنه يُثير الفتنة ضدّه، بسبب قيامه بإصلاح نقديّ فاشل(*). وعلى الرغم من أن شبل بن موسى بايعه، إلاّ أنه لم ينتظر ابن عمه السلطان عندما علم أنه يعتزم الخروج إليه، فلحق بتلمسان ثم بالأندلس، وانتظر المستنصر سنة 664هـ./ 1263م.، ليقوم بحملة تأديبية ضد قبيلة رِيّاح التي آوته وبايعته، ولاحقها إلى آخر وطنها المِسِيلة، حيث توغلت في الصحراء، وقَدِم إليه هناك أمير بني توجين الزناتيين، محمد بن عبد القوي، ليجدّد له بيعته، فأقطع له مدينة مقرّة وبلد أوماش مِن عَمَل الزاب، وعاد كلّ منهما إلى مقرّه[1].

ومنذ ذلك الوقت فقط، أخذ نشاط والي بجاية يطفُو على سطح الأحداث السياسية، أي بعد ثلاث سنوات من تعيينه في منصبه، ذلك أن السلطان الحفصي، بعد عودته إلى تونس، وكانت قبيلة الدواودة فرّت أمامه إلى الصحراء وبعثت له من هناك «بطاعة ممرضة فتقبلها»[2] و«أوعز إلى أبي هلال عياد «... بإصطناعهم واستئلافهم،

(*) ذلك أن السلطان استحدث سكّة من النحاس، مقدّرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق، تسهيلا على الناس في المعاملات، سماها الحندوس، وكثر فيها التزوير، وأكثر السلطان في تسليط العقوبات على المُزوّرين، وتوقع حدوث ثورة بسبب ذلك، وأشيع أن أبا القاسم بن أبي يزيد هو المحرّض عليها، فخشي على نفسه، رغم أن السلطان تراجع عن إصلاحه وعفى عنه (العبر، 6، ص 658 – 659).

(1) العبر، 6، ص 658 فما بعدها.

(2) العبر، ص 661.



لتكــون وفادتهم عليه، من غير عهد»[1]، فلما راســله منهم بنو مســعود ابن ســلطان، الذين كانوا معسكرين بثنايا الزاب، يطلبون منه أن يلعب دور الوســاطة بينهــم وبــين المســتنصر، ويُبّلغوه رغبتهم فــي مراجعة طاعته «أشــار عليهم بالوفادة على الســلطان، وفــاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشــارته»[2]، فلما قــام هذا الأخير بحملة علــى تلك النواحي، ســنة 666هـ./ 1267 – 1268م.، ووَفَد عليه رؤساؤهم «تقبض عليهم... وانتُهبت أســلابهم، وضُربت أعناقهم، ونُصّبت أشلاؤهم بزرايا، حيث كانــت بيعتهم لأبي القاســم ابن أبي زيد، وبعث رؤوســهم إلى بســكرة فنصّبت بها»[3] ثم اقتحم أحياءهم، واستمر في مطاردتهم حتى أجازوا وادي شــدى، جنوب الزّاب، وتوغلوا في الصحراء، فعاد الســلطان من حيــث أتى، في حين «لحق فُلّ الدّواودة بملــوك زناتة... فأجاروهم... وملأوا أيديهم بالصّلات، ومرابطهم بالخيل، وأحياءهم بالإبل، ورجعوا إلى مواطنهم، فتغلبــوا على واركلا، وقصور ريغة واقتطعوها من أيّالة الســلطان، ثــم زحفوا إلــى الزاب فجمع إليهــم عاملُه ابــن عَتُّو، وكان موطنــا بمقرّة، ولقيهم على حــدود أرض الزاب فهزموه.. (و) قتلوه... واستطالوا على الزاب، وجبل أوراس، وبلاد الحضنة...»[4].

1) العبر، 6، ص 661.

2) نفسه

3) نفس المصدر، ص 662.

4) نفس المصدر، 6، ص 662 – 663.



وعلى الرغم من أن مسـرح الأحداث المشار إليها، كان ولاية بجاية، وأن طابعها كان عسكريا، إلاّ أن مُهمّة أبي هِلال عياد فيها كانت سياسية، بل دبلوماسية بحتَة، فلم تُشر المصادر إلى مشاركته فيما دار آنذاك من قتال، مثلما فعل فيما بعد، سنة 668هـ./ 1270م، عندما أرسل المستنصر بالله إلى مختلف الولايات والمناطق الخاضعة لدولته، لإمداده بأكبر عدد ممكن من مقاتليها لمجابهة حَمْلةِ لويس التاسع، أو القديس لويس، الصليبية على تونس(*)، فكان أبو هلال، صاحب بجاية، من الذين هبوا لتلبية ذلك النداء، إلى جانب «جموع العرب وسدويكش ووَلْهاصَة، وهُوّارة (و) ملوك المغرب من زناتة. وسَـرّح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر (بقيادة) ابنه زيان»[1]؛ وكان أبو هلال، صاحب بجاية، من بين القادة السبع الذين

(*) كان هدف هذه الحملة في البداية تخليص القدس والآثار اللاّتينية بالمشرق، ولما توقفت في ميناء كاغلياري، من جزيرة سردانيا، أَخبر قائدُها مساعديه عزمَه على التوجّه أوّلا إلى تونس، لأسباب غير معروفة، وبعد أربعة أيام وصلت إلى ميناء قرطاجة، وفي اليوم الموالي، 18 يوليو 1270م، نزل مقاتلوها على الأرض، وأخذوا في تحصين أنفسهم في انتظار وصول ملك صقلية شارل، أخي لويس التاسع، للشروع في الهجوم العام، غير أن وباء الإسهال تَفشّى في صفوفهم، وفتك بالكثير منهم، ومن بينهم الملك لويس التاسع نفسه، قبل وصول أخيه شارل الذي صار قائد الحملة الفعلي، أمام ابن أخيه فليب الثالث الذي أصبح ملكا لفرنسا، خلفا لأبيه؛ وبعد مناوشات محدودة بين الجيشين الصليبي والحفصي، دخل الطرفان في مفاوضات، انتهت بعقد صلح بينهما، انسحب على إثره الغُزاة، في مقابل حصولهم على تعويضات مالية (حول هذا الموضوع، أنظر برنشفيك ر.: المصدر السابق، ص 86 فما بعدها من عدة صفحات).

(1) العبر، 6، ص 669؛ من الواضح أن برنشفيك فَهِم نصّ ابن خلدون فهما خاطئا، فقال بأن والي بجاية والمغرب الأوسط أتى برجال القبائل من منطقة قسنطينة، بقيادة أبي زيان محمد بن عبد القويّ، أمير بني توجين (المرجع السابق، ص 91) فأبو=



أُسندت لهم مهمات قتالية تحت إشراف، يحي بن صالح ويحي من أبي بكر منهم[1]، غير أن الحرب بين الطرفين اقتصرت على وقوع مناوشات قليلة ثم دخلا في مفاوضات انتهت بالاتفاق على انسحاب المُعتدين، في مقابل حصولهم على تعويضات ما خسروه في تموين حملتهم[2]، وتمّ ذلك بعد أربعة أشهر من حلولهم بالمنطقة[3].

وبعد عودة أبي هلال سالما إلى مقرّ ولايته، بجاية، كلّفه السلطان بمُهمّة الزحف على الجزائر، لأنّ أهلها «لمّا رأوا تقلّص ظلّ الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط، حدّثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلع ربقة الطاعة من أعناقهم، فجاهروا بالخلعان»[4]، ولما أخرج السلطان، سنة 669هـ./ 1271م.، حملة لإخضاعهم، باءت بالفشل؛ وقد سار والي بجاية على رأس جيشه إليهم سنة 671هـ./ 1272 – 1273م.، فحاصرهم مدّة عام، دون أن يتمكن من مدينتهم، وعاد من حيث أتى، ومات في مُعسكره ببني ورّا سنة 673هـ./ 1274 – 1275م[5].

=زيان، كما هو واضح من نص ابن خلدون، كان قائدا لبني توجين، من قومه، فقط، وكان لكل قبيلة أو مجموعة أخرى قائد منها.

1) العبر، 6، 669.

2) العبر، 6، 670 – 671؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 93.

3) المؤنس، ص 136.

4) العبر، 6، 674.

5) العبر، 6، ص 674؛ Féraud. op. cit., P. 175:

ولاية محمد بن أبي هلال على بجاية ونشاطه فيها.

بعد مهلك أبي هلال، عقَد السلطان الحفصي على بجاية «من بعده لابنه محمد، فكان له غِنًى في ولايته، واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر»[1]، ولمّا أخرج هذا الأخير، من تونس، جيشا بريّا وآخر بحريا، بقيادة أبي الحسن بن ياسين، لمنازلة الجزائر سنة 674هـ./ 1275 - 1276م.، أصدر أوامره لعامل (والي) بجاية، لكي يشارك، بدوره، في تلك الحملة، فبعث جيشا بقيادة أبي العباس بن أبي الأعلام، وقد أحاطت تلك الجيوش بالمدينة، من كل جانب، وتمكنت من اقتحامها بالقوة، فنُهبت أموالها وقُتل وأسُر الكثير من رجالها، وانتُهكت أعراضها[2]، ولم يمض وقت طويل، بعد ذلك، حتى توفي السلطان المستنصر، في يوم عيد الأضحى من سنة 675هـ./ 16 مايو 1277م.

وبمجرّد إعلان تلك الوفاة «اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم[3] إلى «ابنه أبي زكرياء يحي فبايعوه ليلة مَهْلك أبيه وفي غدها، وتلقب الواثق»[4]» وبادر محمد بن أبي هلال بالدخول في طاعته وأرسل له، من بجاية، وفدا يؤكد بيعة أهلها له، غير أن أبا الحسن يحي بن عبد الملك

(1) العبر، 6، ص 674، ص 678؛ Féreaud: op. cit., P. 175.

(2) نفس المصدر، ص 674؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 99؛ Féraud: op.cit., P.175.

(3) العبر، 6، ص 676.

(4) العبر، 6، ص 676؛ المؤنس، 137؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 100.



المعروف باسم ابن الحببّر، الذي استبدّ على الدولة والسلطان، قلّد أخاه أبا العُلى إدريس ولاية بجاية، وولاية أشغالها «فقام بها، واقتنَى الأموال، وتحَكم في المشيخة، وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه، فهمّ إدريس بنكبته، فخشي محمد ... بَادِرته، وداخل بعض بطانته في قتله»[1].

وقد تم اغتياله فعلا، في 1 ذي القعدة سنة 677هـ./ 16 مارس 1279م.، في الوقت الذي عاد فيه الأمير أبو إسحاق، عمّ الواثق، من الأندلس حيث كان لاجئا، بعد فشل محاولته (الانقلابية) ضد أخيه المستنصر سنة 651هـ./ 1253 – 1254م.، فلما علم بموت هذا الأخير، رجع إلى العَدْوة، ونزَل على يَغْمُراسن بن زيان، في تلمسان، بهدف المطالبة (بحقّه)، في حين كان محمد بن أبي هلال يخشى على نفسه من بوادر سلطان تونس، ولم يبق أمامه وأمام أهل بجاية، من حل، سوى إرسال وفد إلى أبي إسحاق يقدّم له «بيعتهم و... يستحثونه للملك، فأجابهم، ودخل إليهم، في آخر ذي القعدة من سنته (677هـ)، فبايعه الملأ من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن أبي هلال ثم زحف في عساكره إلى قسنطينة فنازلها»[2] وكان الواثق عقد عليها لعبد

---

1. العبر، 6، ص 679؛ حسب الزركشي فإن أبا العلاء إدريس، تولّى ولاية الأشغال التي كان يتولاها، منذ عهد المستنصر محمد بن أبي هلال (op.cit., P.58)؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 105.

2. العبر، 6، 679؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 105 – 106؛ Féraud: op.cit., P.175.



العزيز بن عيسى بن داود، صهر ابن الحببّر، فمنع الأمير أبا إسحاق من الإستيلاء عليها[1].

ولما بلغ خبرُ الأمير، أبي إسحاق، إلى الواثق ووزيره المستبدّ عليه، أخرج إليه جيشا بقيادة عمه الآخر، أبي حفص ويساعده، في تلك المهمة، أبو زيد بن جامع، وقد «اضطرب رأي ابن الحببّر، في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره، فكتب الواثق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع، يُغري كل واحد منهما بصاحبه»[2] و بمعنى آخر، فإن ابن الحببّر دفع الواثق للتخلّص من خطر أبي حفص عن طريق هذه المكيدة، غير أن قائد الجيش ومساعدهُ تَفطّنا لها «فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحاق، وبعثوا إليه بذلك»[3] وعلم الواثق بالأمر، وهو بتونس، بدون حماية ولابطانه، فقرّر التنازل عن العرش لصالح عمّه أبي إسحاق، وأشهد الناس على ذلك، في بداية ربيع الأول سنة 678هـ./ منتصف أغسطس 1279م[4].

وعندما اتّصل الأمير أبو حفص وابن جامع بالأمير أبي إسحاق قَصَدَهما، وهما في باجة، وهناك بلغه خبر تنحّي ابن أخيه، الواثق، عن السلطة فارتحل الجميع إلى تونس، ودخلوها منتصف ربيع الآخر

(1) العبر، 6، 680؛ Zerkechi: op.cit., P.58؛ برنشفيك: نفس المصدر، ص 106.

(2) العبر، 6، 680؛ Zerkechi : op.cit., P.59.

(3) العبر، 6، 680؛ Zerkechi: op.cit., P.59.

(4) نفسه؛ Zerkechi: op.cit.,P.59؛ برنشفيك: نفس المرجع، ص 106؛ Féraud : op.cit., P.175 - 176.



سـنة 678هـ./ بداية سبتمبر 1279م.[1]، وكان «محمد بن أبي هلال شيخ دولته»[2]، أي وزيرا له، غير أنه لم يستمر في هذا المنصب مدة طويلة، فبمُجرّد ما تأكد أبو إسحاق من توطيد أقدامه في السلطة، تقبض عليه «وقتلـه... لمـا كان يتوقع منه، مـن المكروه في الدولة، ومـا عُرف به من المساعي في الفتنة»[3]، وبمعنى آخر، فإنّ محمدا ذهب ضحيّة الوشايات، التي ظلت تَفْتِك برجال البلاط، في عهد أبي إسحاق، كما كانت في عهد أسلافه. وقد طالت تلك الوشايات رجالاً آخرين، من بينهم أحمد بن أبي بكر بن سيّد الناس، رفيق وليّ العهد، أبي فارس عبد العزيز، وصديقه الحميم[4] فاغْتيل في آخر ربيع سنة 679هـ.[5]/ 1281 – 1282م.، ولما علم أبـو فارس بالأمر، ركب إلى أبيه ليعبّر له عن حزنه، فعزاه أبوه عن ذلك وبرّره له بما ظهر على صديقه من المكر والخديعة بالدولة[6].

---

1) حسـب Zerkechi فإن وصول أبي إسـحاق، من تلمسـان إلى بجايـة، كان يوم عيد الأضحى سنة 677، ووصل إلى تونس يوم الثلاثاء 5 ربيع الثاني 678هـ أو 679هـ، حسب الغرْناطي (op.cit., P.59).

2) العبر، 6، 681.

3) العبر، 6، 682.

4) أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 112؛ حسب الزركشي فإن أحمد كان يخدم أبا فارس سرًّا، عندما كان سجينا لدى عمه المستنصر (op.cit., P.61).

5) حـدّد ابن خلدون تاريخ هذا الاغتيال بآخر ربيع سـنة 69 (669)هـ.؛ (العبر، 6، ص 684 – 685) غيـر أن سـياق الأحداث يقضـي أن يكون حَدَثَ سـنة 679هـ؛ ويؤكد هذا التاريخ op.cit., P.61: Zerkechi.

6) العبر، 6، ص 685؛ op.cit., P.61: Zerkechi.

ولاية أبي فارس بن السلطان أبي إسحاق ونشاطه.

بهذه المناسبة عقد السلطان، لابنه أبي فارس «على بجاية وأعمالها، وأنفذه إليها أميرا مستقلا»[1] محاولا بذلك، التخفيف من ألمه وحسرته على ما حدث لصديقه، وأنفذ معه محمد بن أبي بكر بن الحسن بن خلدون، جدّ عبد الرحمن بن خلدون، صاحب كتاب العبر، ليشغل منصب حجابته، فخرج إليها سنة 679هـ.[2] / 1281 – 1282م، ولما مرّ، بوالي قسنطينة، أبي بكر بن موسى بن عيسى المعروف بابن الوزير[*]، قَعَد عن لقائه، وبعث يعتذر له ويستعطفه مع جماعة من الصلحاء، فقبل منه عذره وواصل سيره إلى مقرّ ولايته، بجاية. وكان ابن الوزير هذا شديد الطموح، ويرى أن قسنطينة معقل تلك المنطقة وحصنها، ممّا جعله يفكّر في الامتناع بها «والاستبداد على الدّولة»[3].

(1) العبر، 6، ص 685؛ op.cit., P.58: Zerkechi.

(2) يحدّد ابن خلدون تاريخ خروج أبي فارس من تونس إلى بجاية بسنة 669 (العبر، 6، ص 685) غير أن سيّاق الأحداث يقضي أن يكون خرج إليها سنة 679هـ؛ وقد صحح ابن خلدون نفسه في الصفحة الموالية، عندما تحدّث عن مرور نفس الأمير، وهو في طريقه إلى مقر ولاية بجاية، بقسنطينة سنة 679 هـ (العبر، 6، ص 686).

(*) كان ابن الوزير هذا مستخدما، لابن كلداسن الذي تولّى قسنطينة بعد ابن النعمان، أيام المستنصر، ولما وفد ابن كلداسن على الحضرة، تركه نائبا عنه بقسنطينة، وولاه المستنصر حافظا عليها، وولاّه عليها، بعد المستنصر، كلّ من الواثق وأبي إسحاق (العبر، 685 – 686).

(3) العبر، 6، ص 686.



وبعد مغادرة أبي فارس لقسنطينة عزم على التمرّد، وكان يعلم أن بِيدْرُو الثالث، ملك أرغون، يولي أهمية لشؤون إفريقية، كما كان يعلم، ولاشك، بما كان يقوم به من استعدادات حربية للهجوم على المسلمين[1]، فأرسل يطلب منه تزويده بجيش «يكون معه في ثغره، يردّد به الغزو، على أن يكون، فيما زعموا، داعية له فأجابه ووعده ببعث الأسطول إليه»[2]، عندئذ أعلن خلع طاعة الحفصيين، والدعوة لنفسه، آخر سنة 680هـ./ مارس - إبريل 1282م.، ولم يبق الأمير أبو فارس مكتوف الأيدي، أمام هذا الإعلان، بل إنه لم يُضيّع، على ما يبدو، وقتا طويلا، قبل أن يخرج إليه على رأس حملة، قصدت ميلة أوّلا، ثم توجّه منها إلى قسنطينة فحلّ بها في 1 ربيع سنة 681هـ./ 9 يونيو 1282م.، فحاصرها وقذف أسوارها بالمجانيق، ثم اقتحمها وقُتل فيها ابن الوزير وأخوه وأنصارهما. وأقام أبو فارس في المدينة ثلاثة أيام، بعث خلالها بشائر النصر إلى والده بتونس، ثم عاد بعدها إلى بجاية، ولما حُسمت المعركة وصل أسطول النصارى إلى مرسى القُل[3]، لأن الاستعدادات الحربية، في دولة أَرَغُون، كانت تجري ببطء، بسبب إفلاس الخزينة[4].

(1) أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 113.

(2) العبر، 6، ص 686.

(3) العبر، 6، ص 687؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 113 - 114.

(4) برنشفيك: المرجع السابق، ص 114.



وفي نفس ذلك العام، 681هـ.، اندلعت شرارة ثورة بمنطقة طرابلس، لها علاقة وطيدة ببجاية، إنها ثورة الدّعي ابن أبي عُمَارة: ذلك أن أحمد ابن مرزوق بن أبي عُمارة، وهو رجل قَدِم من المسيلة إلى بجاية حيث كان يحترف مهنة الخياطة، وكان يحدّث نفسه بالمُلك، وزعم أن العارفين كانوا يخبرونه بذلك، ثم لحق بصحراء سجلماسة، واختلط بعرب المَعقِل، مدّعيا أنه من آل البيت، وأنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة، ولما عجز عن إقناعهم بدعوته، غادر أرضهم إلى جهات طرابلس حيث نزل على قبيلة دُباب العربية، وقابل هناك الفتى نصير، مولى الواثق بن المستنصر، فتبيّن فيه شبها من الفضل، ابن مولاه، وأقنع العرب بذلك، فبايعوه وقام بأمره أميرُهم مرغم بن صابر بن عسكر، فحاول الاستيلاء على طرابلس، دون جدوى، إلاّ أنه تمكّن من بسط نفوذه على قبائل تلك النواحي وأخضع قابس، في رجب سنة 681هـ./ أكتوبر 1282م.، وبايعه أهل جَربة والحامة ونَفَزاوة وتوزر وقسطيلية وقفصة، فذاع صيته[1].

وعندئذ جهّز السلطان أبو إسحاق جيشا وأخرجه إليه، من تونس، بقيادة ابنه أبي زكرياء الذي سار في طريق القيروان، ومنها إلى تمودة

---

(1) العبر، 6، ص 689 – 690؛ المؤنس؛ ص 139؛ Zerkech: op.cit., P.63 - 64؛ برنشفيك: نفس المصدر، ص 116 – 117؛ Féraud: op.cit., pp.177 - 78؛ حسب الزركشي فإن رجلا وصل إلى دَبَاب في 4 محرم 681هـ. وادّعى أنه الفضل بن يحي الواثق بن المستنصر، وأنه فرّ من سجنه. ثم إن نَصير (أو نُصير) المعروف بالنّوبي، مولى الوَاثق، صرّحَ أنه يعرفه، وصدّقت قبيلة دَبَّاب هذا القول، في حين أن الفضل، ...كان قد أُعدم في تونس.. (op.cit., pp.62 - 63).



حيث بلغه نبأ استيلاء الدّعي على قفصة، ممّا أثّر سلبًا على مَعنويات جيشــه، فانفض مَن حوله، واضطر أن يعود، هو الآخر، إلى تونس في شــهر رمضان من نفس السنة، ديســمبر 1282م.، وعلم ابن أبي عُمارة بالأمــر، فقفز من قفصة إلى القيروان، واســتولى عليها وبايعه أهلها، واقتدى بهم أهل المهدية وصفاقس وسوســة، وشاع الخوف بين سكان تونس، وضرب الســلطان معســكره خارجها في شوال/ يناير 1283م.، اســتعدادا لمقاومته، وقَصَده الدَّعيُّ من القيروان، وفي الطريق انضم إلى صفوفه عدد من جيوش خصمه، وكبار رجالات الدولة، ومن بينهم كبير الدولة، موســى بن ياســين، مع عدد كبير مــن أصحابه، ولم يبق أمام السلطان، مِن حلّ، سوى الهروب إلى بجاية[1].

وكان الوقتُ وقتَ شتاء، شوال 681هـ./ يناير1283م.، فاحتمل أهله وولده، وســار في عزّ البرد، وكان يعاني من قلّة الأقوات، وشــدّة المطر والثلــج، ويُصَانــع القبائل، في طريقه، ببذل ماله، ولما مرّ بقسَــنطينة، منعــه عاملها عبد الله بن يوقيان الهَرْغي من دخولها، وحلّ ببجاية في ذي القعدة من نفس السنة/ فبراير 1283م.، فتمرّد عليه ابنه الأمير أبو فــارس، ومنعه من الدخول إلى قصــره، وأنزله بروض الرفيع، وأجبره

---

(1) العبر، 6، ص 691؛ المؤنس، 139؛ حســب، الزركشــي فإن أبا إسحاق عندما خرج من تونس قصد المحمّدية، في العشــرية الثانية من شــوال 681هـ.، غيــر أن المؤونة التي كان يحملها تســعون بغلا، نُهبت في معســكره، وانضمّ أغلب الجنود إلــى الدّعي... (Op.cit., P.64)؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 117.



على خلع نفسه لصالحه، قبل أن يحوّله إلى قصر الكوكب، ودعا الناس لبيعته، فكان له ذلك، وتلقّب بالمعتمد على الله، ثم استخلف على بجاية أخاه الأمير أبا زكرياء وزحف منها على الدعيّ، برفقة عمّه أبي حفص وإخوته[1].

وكان ابن أبي عُمارة استولى على حضرة الدولة، تونس، و«استكمل ألقاب الملك، وقسّم الخطط بين رجال الدولة، وصرف همَّهُ إلى غزو بجاية»[2] في الوقت الذي بلغه خبر الانقلاب، الذي قام به الأمير أبو فارس ضدّ وَالده، وأنه يستعد للقائه، فاعتقل أهل البيت الحفصي، وغادر تونس على رأس جيشه، في صفر سنة 682 هـ./ يونيو 1283م، وتقابل الجيشان في سهل مرماجنة، وسط القُطر التونسي الحالي، قرب قلعة سنان أو في فج الأبيار، بالقرب من قلعة سِنان[3]، الواقعة على ثماني فراسخ شمال شرق تبسة[4] فاشتبكا في معركة اختلّت فيها صفوف «أبي فارس، وتخاذل أنصاره، فقُتل... وانتهُب معسكره، وقُتل إخوته جميعا... وتخلّص عمّه الأمير أبو حفص»[5].

(1) العبر، 6، ص 692 – 693؛ المؤنس، ص 139؛ op.cit., P.64 - 65: Zerkechi؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 117؛ op.cit., P.178: Féraud.

(2) نفس المصدر، ص 692.

(3) العبر، 6، ص 693؛ برنشفيك: نفس المرجع، ص 117.

(4) op.cit., P.67, note 1: Zerkechi.

(5) نفس المصدر، ص 693 – 694؛ المؤنس، ص 139؛ op.cit., P.68: Zerkechi.



ولمّا وصل خبر تلك الوقعة إلى بجاية، اضطربت أحوال أهلها، وحاول قاضيهم، محمد بن عبد المنعم بن عتيق الجزائري، الحديث إليهم في الموضوع فثارت ثائرتهم، وحاول ابنه تأنيبهم فقتلوه، وأرسلوا والده القاضي إلى بَلَده، الجزائر، في البحر. وقدّموا محمد بن إسّرَغين ليحكمهم باسم الدّعي، فراح يلاحق السلطان أبا إسحاق وابنه أبا زكرياء، اللّذين خرجَا أثناء تلك الإضطربات في اتجاه تلمسان، فأدرك أوّلهما وتقبض عليه بجبل بني غبرين من زواوة، فاعتقله ببجاية إلى أن أرسل الدعيُّ محمدَ بن عيسى بن داود فقتله، في آخر ربيع الأول سنة 682هـ./ جوان 1283م، في حين نجا الثّاني إلى تلمسان[1].

وبذلك صفا الجوّ نهائيا إلى ابن أبي عُمارة، وشرع في ممارسة مقاليد الحكم بِتعيين كبار مساعديه، غير أنّ سياسته العنيفة تجاه الأعراب الذين كان لهم فضل كبير في ارتقائه إلى العرش كلّفته ثمنا باهضا، بعد حوالي سنة من تَسلّمه مقاليد الحكم: ذلك أنّ الناس شكوا إليه عيثهم، في بداية عهده، فراح يقتل بعضهم ويسجن البعض الآخر، فساء أثره في بني عمومتهم وراحوا يبحثون له عن بديل، من الأسرة الحاكمة، «وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه، من قلعة سنان»[2]، وكان قد لجأ إليها بعد هزيمة جيش ابن أخيه في مرماجنة،

(1) العبر، 6، ص 694؛ المؤنس، ص 139؛ Zerkechi: op.cit., P.69 - 70.

(2) العبر، 6، ص 695.

فوصلوا إليه بقيادة الأمير أبي الليل بن أحمد وبايعوه في ربيع الأول سنة 683هـ./ مايو - يونيو 1284م، وعلم ابن أبي عمارة بذلك فظن السوء بأهل دولته، وتقبض على بعضهم «فامتحنهم واستصفى أموالهم. ثم قتلهم...، وتوجّع لهم الناس...»[1] ممّا زاد من تقلّص شعبيته إلى الحدّ الذي جعله لا يقوَ على مقاومة زحف أبي حفص، عندما قصده في تونس، أكثرَ من عدّة أيام: فقد حاول الخروج من تونس لاعتراض طريقه لكن اضطراب صفوف جيشه جعله يعود إليها ويعسكر بظاهرها، في انتظار وصوله، ولم يتأخر أبو حفص عن الوصول، فعلا، بعدما دخلت البلاد في طاعته، فنزل قريبا منه في سحوم، وبعد عدة أيام من القتال تبرأ من ابن أبي عمارة أصحابه وانفضوا من حوله، فلاذ بالاختفاء في بيت رجل من العامة حيث تم القبض عليه ثمّ قتُله، بعد اعترافه بِنسبِه الحقيقي. ودخل الأمير أبو حفص منتصرا، في ربيع الآخر سنة 683هـ/ يوليو 1284م، وجُدِّدَت له البيعة، ولُقّب، بالمستنصر بالله، رغبة منه في إحياء ذكر أخيه الأكبر وعَهدِه السعيد[2].

استقلال بجاية عن الدولة الحفصية.

وقد لَحق بالأمير أبي زكرياء، في تلمسان، أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس، صنيعة أبيه وأخيه، وكان من الذين نجوا مع أبي

(1) العبر، 6، ص 695؛ برنشفيك: المصدر السابق، ص 119؛ Zerkechi: op.cit., PP.71 - 72.

(2) نفس المصدر، ص 695 - 696؛ المؤنس، ص 140؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 120.



حفص إلى قلعة سنان، فلما وصل هذا الأخير إلى السلطة، آثر عليه الفزازي، فتخلى عن خدمته، وسافر إلى تلمسان فاستحث أبا زكرياء «لطلب مُلكه. واستقرض من تجار بجاية، هنالك، مالاً أنفقه في إقامة أبّهة المُلك له، وجمع الرجال، واصطنع الأولياء»[1] وشاع خبر هذا الأمر فوصل إلى عثمان بن يغمراسن، فحاول صدّ صهره عنه، لِمَا كان قَطعه على نفسه، من طاعة السلطان أبي حفص، مثلما كان يفعل أبوه مع السلاطين الحفصيين، لكن أبا زكرياء عزم على المضي في طريقه، وخرج ذات يوم من سنة 683هـ./ 1285م، من تلمسان، متظاهرا بالصيد الذي كان يمارسهُ، أثناء إقامته بها، ونزل على داود بن هلال ابنُ عطاف، أمير بني يعقوب من زغبة[2]، الذي رفض تلبية طلب عثمان بردّه إليه، بل ارتحل معه بقومه إلى عطية بن سليمان بن سباع، رئيس الدواودة، ومن هناك ارتحل الجميع إلى ضواحي قسنطينة حيث دخل العرب وسدويكش طاعتهُ، في نفس تلك السنة[3].

وكان قد حدث في بجاية اضطراب بين سكانها، «أدّى إلى الخلاف والتباين، واستحثوا الأمير أبا زكرياء، فأغذّ السير إليهم، ودخلها

(1) العبر، 6، ص 699.

(2) العبر، 6، ص 699 – 700؛ في رأي برنشفيك فإن عثمان بن يغمراسن، عندما التجأ إليه صهره أبو زكرياء، كان قد اعترف بالدّعي الفضل، فخاب ظنّه فيه، ولم يجد لديه الدعم المطلوب لطرد الدّعي، فلجأ إلى الأعراب (المرجع السابق، ص 134).

(3) العبر، 6، ص 700.

سـنة أربع وثمانين»[1] 684هـ./ 1285م. ثم تمكّن، بعدها، من قسنطينة وأقيمـت فيها دعوته[2]، وبعدما بعث إليه أهل الجزائر وتدلس (دلّس) بطاعتهـم، تلقّب بالمنتخب لإحياء ديـن الله، وأغفل ذكر أمير المؤمنين، احترامـا لعمـه الخليفـة أبي حفـص، بالحضرة، حيث تقيـم جماعة الموحديـن، أهل الحـلّ والعقد[3]. غيـر أن ذلك لم يمنعـه من اقتطاع الناحية الغربية عن الدولة الحفصية والاسـتقلال بها[4]، وجعل بجاية عاصمة لها[5].

وهكذا قسـمت تلك الدولة إلى قسـمين؛ ويرى برنشفيك في ذلك: اسـتعادةً للانقسـام القديم الـذي أحدثهُ بنو حمّاد على حسـاب بني عمومتهم الزيريّين، في تونس، وأنّه سيحقق نوعا من التوازن السّياسي المُتغيّـر، بين الدوّل الإسـلامية الأربع التي ستتقاسـم الحكم في تلك الربـوع، ففي حين يتحالف السـلطان الحفصي مع صاحب تلمسـان

(1) العبر، 6، ص 700.

(2) نفسـه؛ يذكـر ابـن خلدون أن اسـتيلاء أبـي زكرياء على قسـنطينة كان سـابقا لاسـتيلائه على بجاية لكنه يسـتدرك قائلا «ويقال إن مُلكه لبجاية كان سـابقا على ملكه لقسنطينة، وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا» (العبر، 6، ص 700).

(3) العبر، 6، ص 700؛ في رأي برنشفيك، فإنه على الرغم من أنه لم يتجرأ على التلقب بلقب أمير المؤمنين، إلاّ أنه تلقّب، بوصفه مجرّد أمير، باللّقب الخلَفي «المنتخب لإحياء دين الله» (المرجع السابق، ص 134).

(4) العبر، 6، ص 700 – 701؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 134.

(5) برنشفيك: المرجع السابق، ص 134.



التابع إليه، ويدفع به ضدّ صاحب بجاية، يتعرّض صاحب تلمسان نفسه لهجمات جاره الغربي المريني، الذي لم يتردّد عن عقد النية على غزو تونس، دون جدوى، وبالنسبة لأبي حفص الذي لم تكن له أية قوة بتونس، فقد كانت صداقته لصاحب تلمسان، التابع له تبدو ضرورية، وهذا ما دعاه إلى توجيه بعض الهدايا إليه سنة 689هـ./ 1290م[1].

وبعدما رتَب المنتخب لإحياء دين الله أموره، ونصّب أبا الحسن ابن سيّد الناس حاجبا له، سار على رأس حملة عسكرية، إلى تونس في السنة الموالية، أي سنة 685هـ./ 1285 – 1286م، لكن جيشها تمكن من مقاومته، بقيادة الفازاري، فتوجّه إلى قابس فحَاصرها وألحق هزيمة نكراء بالمدافعين عنها ثم قصد مسراتة، فأطاعته القبائل المنتشرة في تلك المناطق، غير أنه علم هناك أن عثمان بن يغمراسن زحف على حضرته، بجاية، سنة 686هـ./ 1287م.، فانكفأ راجعا إليها[2].

وكان عثمان بن يغمراسن منزعجا من عدم مراعاة أبي زكرياء لنصيحته بعدم الخروج، ومِن عدم انْصياع داود بن عطاف لأمره بردّه إليه، وراح يُبرّيء ذمته لصاحب تونس، أبي حفص، بتجديد البيعة له، وأوفد إليه، لهذا الغرض، صَنيعَهُ عليّ بن محمد الخرُساني، وكانت له الغلبة في المغرب الأوسط، على قبيلتي: مغراوة وبني توجين الزناتيتين،

(1) أنظر: برنشفيك: المرجع السابق، ص 135.

(2) العبر، 6، 701 – 702؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 134.



ممّا جعل السلطان الحفصي يلجأ إليه، ويطلب منه أن يزحف على ثغر بجاية، مَعقِل أبي زكرياء ليُجبره على التراجع عن حربه في المناطق الشرقية التي بقيت تابعة لدولته، وكانت نظرة السلطان صائبة: فبمجرّد ما علم أبو زكرياء أن عاصمته عُرضة لحصار عثمان، سنة 686هـ./1287م.، عاد إليها مسرعا[1] وقد أجبرته هذه العملية، فعلا، على التّخلّي عن المناطق التابعة للسلطان في إفريقية[2] والاكتفاء بالمحافظة على سلامة دولته الفتية، بعد انسحاب عثمان من ترابها، وكان حاجبه أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، هو الساهر على تسيير شؤون دولته، منذ أن عقد له على الحجابة، بحيث فوّض إليه كلّما كان يجري خارج قصره «فاستولى على الدولة... وقام بأمر مخدومه أحسن قيام... إلى أن هلك سنة تسعين...»[3] (690 هـ./ 1291 – 1292م.) فرشّح، بدلا عنه، كاتبه أبا القاسم بن أبي جُبي، فصادق أبو زكرياء على اقتراحه، وصار هو الآخر، يدير شؤون الدولة بنفس الكفاءة، في بقية عهده وعهد ابنه أبي البقاء، بعده[4].

ومن أهمّ الانجازات التي حققها الحاجب ابن أبي جُبيّ لدولة بجاية، أيام أبي زكرياء، تمكينها من بسط نفوذها على منطقة الزاب

(1) العبر، 6، 702.

(2) أنظر. برنشفيك: المرجع السابق، ص 135.

(3) العبر، 6، ص 705.

(4) نفسه.



التـي تضم «كامل جنوب قسـنطينة، بما في ذلـك الحُضنة والأوراس ووادي ريغ وورقلة»[1]: ذلك أن السلطان الحفصي، أبا إسحاق، سبق له وأن عقد عليها لفضل بن علي بن مُزني، من مشائخ بسكرة، وبعد وفاة أبي إسـحاق تحالف ضده بعضُ أعدائه مع العرب المنتشرين بالمنطقة وقتلوه، سـنة 683هـ./ 1283 - 1284م.، ثم اسـتبدوا بالبلد، فصدّهم عنهـا بنو رمّـان(*) وبايعوا للأمير أبي حفص فـي تونس لكنهم توقعوا ردّة فعل من ابن عاملها السابق، منصور بن فضل بن مُزني، الذي لجأ إلى الحضرة، بعد موت أبيه، فكاتبوا السـلطان في شـأنه، ولَفّقوا له اتهامات، فاعتقله وأودعه السجن، مدة سبع سنوات، تَمكّن بعدها من الفـرار إلى جبـل أُوراس، حيث آواه العرب المقيمون هناك، وأحسـنوا إليـه، ثـم لحق ببجاية سـنة 692هـ./ 1293 - 1294م.، ورغّب ابن أبي جبّي في مِلك الزاب، وصَانَعه بأنواع الهدايا، وضَمِن له تحويل الدّعوة هناك لسـلطانه، أبي زكريـاء، وتحصيل جبايته إليـه، فاقتنع ابن أبي جبـي بالفكرة، وعقد له على الزاب وأمـدّه بالجيش المطلوب، فزحف

1) أنظر. برنشفيك: المرجع السابق، ص 140.

(*) يلاحـظ هنا أن برنشـفيك خالـف تماما مـا ورد في نص ابن خلـدون، المصدر الرئيسـي في هذه القضية، قائلا: «وكان السـلطان الحفصـي... قد عاهد بحكومة إقليم الزاب إلى... الفضل بن مزني، وبعد وفاة هذا الأخير، أثناء الاضطرابات التي رافقـت ارتقاء ابن أبي عمارة إلى الحكم...، انتقل إقليم الزاب إلى ... بني الرّمان..» (المرجـع السـابق، ص 140) وهذا الكلام يختلف تماما مـع الكلام الوارد في متن هذا البحث، وهو عبارة عن ملخص ما ورد في نص ابن خلدون، عن هذه القضية.



على بسكرة وحاصرها، فأرسل مشائخُها، من بني رُمّان، وفدًا إلى بجاية لإعلان طاعتهم للأمير أبي زكرياء، شريطة أن يُبعد عنهم عدوانَ ابن مُزني، فقبل ابن أبي جبي عرضهم، وأسند أحكامهم إلى قائد عسكره، وجعل دور ابن مزني مقتصرا على تحصيل الجباية، فدانوا بالطاعة[1].

تعرُّض بجاية لضغوط حفصية مرينية.

وبهذه العملية يكون نفوذ ولاية بجاية الحفصية، قد بلغ أقصى ما وصل إليه، في عهد الدولة الحمادية، أيام عزّها ولم يطرأ أيّ شيء على العلاقة بين الحضرتين: تونس وبجاية، بقية أيام السلطان أبي حفص، الذي توفي في 24 ذي الحجة 694هـ./ 4نوفمبر 1295م.[2]، غير أن الأمور تغيّرت في عهد خلفه السلطان أبي عبد الله محمد بن السلطان الواثق، المكنىّ بأبي عصيدة والملقّب بالمستنصر بالله[*]، إذ حاول هذا الأخير استرجاع نفوذ دولته على ناحيتها الغربية، من يد

(1) العبر، 6، ص 705 فما بعدها.

(2) العبر، 6، ص 710؛ op.cit., P.76: Zerkechi؛ المؤنس، ص 140.

(*) وهو ابن السلطان الواثق، من إحدى جواريه، فرت بعد مقتله في أحداث ثورة ابن أبي عُمارة، إلى رباط الوَليّ أبي محمد المرجان، حيث وضعت مولودها، فسُمي محمد، وَعقَّ عليه الشيخ محمد، وأطعم الفقراء عصيدة حنطة، فلقب بأبي عصيدة، ثم وصل إلى قصور قومه، بني حفص، ونشأ في ظِلّهم، إلى أن تمت له البيعة (العبر، 6، ص 710؛ op.cit., PP.76 - 77: Zerkechi؛ المؤنس، ص 140 – 141).



أبي زكرياء، منذ السنة الموالية لمبايعته على العرش 695هـ./ 1295م[1].، فشنّ هجومًا على أعمال قسنطينة، وصل فيه إلى ميلة ثم كرّ راجعا إلى عاصمته، من غير سبب ملحوظ[2].

وقد يكون ذلك راجعا إلى الحلف الذي عقده أبو زكرياء مع صهره عثمان بن يغمراسن، أمير تلمسان، الذي كان حتى ذلك الوقت مواليا لسلطان تونس، كي يتفرّغ لمجابهة هذا الأخير؛ وكانت مصلحة عثمان تقضي أن يتفق مع أبي زكرياء، حتى يستعين به، على صدّ الهجوم المريني على عاصمة بلاده. فاستنجد به، ولما أنجده بعساكر، اعترض جيشٌ مرينيّ طريقهم، بنواحي تادلس (دلّس)، وهزمهم شرّ هزيمة، وراح يلاحق فلولهم إلى بجاية، بقيادة أبي بجي، أخي السلطان يوسف ابن يعقوب، وبرفقة عثمان بن سبّاع، الذي سبق له وأن لجأ من المدينة المذكورة، إلى هذا الأخير، ليرغّبه في الاستيلاء عليها. ولما لم يتمكن القائد أبو يحي من تحقيق هدفه، نقل جيشه إلى تاكرارت وبلاد سدويكش، فعاث فيها فسادا قبل عودته إلى معسكره في تلمسان[3].

---

(1) العبر، 6، ص 713؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 143؛ يحدد الزركشي تاريخ تلك المحاولة بسنة 668هـ./ 1299م. (op.cit., P.77).

(2) العبر، 6، ص 713؛ op.cit., P.77: Zerkechi؛ يتوقع برنشفيك أن يكون هذا الإنسحاب المفاجئ راجعا إلى تعرض البلاد التونسية لخطر غير متوقع أو إلى هزيمة عسكرية في منطقة قسنطينة (المرجع السابق، ص 143).

(3) العبر، 6، 714؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 143 – 144.

واللاّفت هنا أن السلطان أبا عصيدة، لمّا علم بالحلف المعقود بين أبي زكرياء وبين صهره عثمان بن يغمراسن، بعث إلى عدوّهما، السلطان المريني يوسف بن يعقوب، وحَرّضه على بجاية ونواحيها، ونسج علاقة وطيدة معه، ومع أن جيش يوسف بن يعقوب كان كثير التردد على بجاية ونواحيها، إلاّ أن أبا عصيدة لم يقُم بأية مبادرة عسكرية ضدّها آنذاك، رغم أن الضغط المريني كان شديدا عليها، لدرجة جعلت حاكمها أبا زكرياء يتغاضى عن مواجهة ابن علاّن، وهو أحد مشائخ مدينة الجزائر، التابعة له، عندما استغلّ تلك الظروف، واستقل بها عن بلاده، بعد وفاة عاملها ابن أكمازير[1]. وقد يعود موقف أبي عصيدة من دولة أبي زكرياء، لأحد أمرين: إمّا لضعفه عن المواجهة، أو تطبيقا لاتّفاق عُقِد بينه وبين السلطان يوسف بن يعقوب المريني.

وبعد وفاة أبي زكرياء، في شهر رمضان سنة 700هـ./ جوان 1301م.، وتولية ابنه أبي البقاء خالد، الذي كان يتولّى قسنطينة منذ 698هـ./ 1298 - 1299م.، دخل في مفاوضات مع أبي عصيدة لمحاولة ثَنْيه عن تحريض السلطان المريني على بلاده، وعَيَّن للقيام بهذه المهمة وفدا، برئاسة أبي زكرياء الحفصي «شيخ المقاربة ببابه» ومعه القاضي أبو العباس الغبريني «كبير بجاية وصاحب شوراها»[2]، ولما

(1) العبر، 6، ص 717 - 718.

(2) العبر، 6، ص 718؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 144.



عاد الوفد إليه، دون تحقيق أية نتيجة(*). شكّل حاجبُه ابن أبي جبي، الذي كان «مستبدا على الدولة في حجابته»[1]، وفدا ترأسه بنفسه، وقام بمحاولة ثانية سنة 705هـ./ 1304 - 1305م.، فبالغ مدبّر الدولة، شيخ الموحدين أبو يحي زكرياء بن اللحياني، في تكريمه والحفاوة به، ووافقه في مسعاه، غير أن بطانة الأمير أبي البقاء، انتهزوا فرصة غيابه وأقنعوه بأنه تآمر عليه مع سلطان تونس، فوعده بتمكينه من ثغري: بجاية وقسنطينة، التي كان صهره عليّ بن الأمين عاملا لها، فلما عاد من تونس وجد أبا البقاء متنكرا له، على غير عادته، وصار كلّ منهما يحترس من صاحبه، مما دعى ابن أبي جبي إلى الإستئذان إلى الحج، وغادر بجاية بلا رجعة(**).

أمّا صهره أبو الحسن عليّ بن الأمين، الذي سبق وأن ولاّه ثغر قسنطينة، مستقلا بها، وحاجبا للسلطان أبي بكر بن الأمير أبي زكرياء، فإنه أصبح يخشى على نفسه من بوادر صاحب بجاية، مما دعاه إلى تحويل دعوته لصاحب تونس، وبعث يطلب منه المدد والنائب،

(*) انتهز بطانة السلطان أبي البقاء الفرصة، وأقنعوه أن الغبريني تآمر عليه مع أبي عصيدة لمهاجمته، فتقبض عليه وقتله سنة 704هـ./ 1304م. (العبر، 6، ص 719).

(1) العبر، 6، ص 720.

(**) لحق بقبائل ضواحي قسنطينة وبجاية، ثم انتقل إلى تونس فإلى المشرق، بعد قضاء فرضه، ثم عاد إلى المغرب فنزل تلمسان وحرّض أميرها، أبا حمّو بغزو بجاية (العبر، 6، ص 723 - 724).



فوصله رئيس الموحدين والدولة، أبو يحي زكرياء بن أحمد بن محمد اللحياني، شخصيا، وعقد البيعة لسلطانه سنة 704هـ./ 1304 – 1305م.، لكن السلطان أبا البقاء، سرعان ما نهض إليه من بجاية، فحاصره عدة أيام ثم تمكّن منه وقتله[1].

إعادة توحيد الدولة الحفصية تحت سلطة أمير بجاية أبي البقاء.

في نفس ذلك الوقت، تقريبا، توفي السلطان المريني، يوسف ابن يعقوب، وانسحب المرينيون من تلمسان، فتخلّص أبو البقاء من مضايقتهم، وأتيحت له فرصة استرجاع الجزائر إلى نفوذه، فزحف عليها سنة 706 أو707هـ./ 1307م أو 1308م، ولما حلّ بمتيجة انضم إليه عدد من القبائل[*] فحاصر المدينة المقصودة عدة أيام، ولما امتنعت عليه عاد إلى حضرته ببجاية، وترك منصور بن محمد، شيخ مليكش، في مقارعتها[2]. وقد نجم عن الظروف الجديدة، الناتجة عن وفاة يوسف ابن يعقوب، تغييرُ سياسة أبي عصيدة مع سلطان بجاية، الذي تخلص من القيود المرينية، واستعاد نفوذه على كثير من مناطق دولته، وكان له تحالف مع بني عبد

---

(1) العبر، 6، ص 727 – 728؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 145.

(*) مليكش بقيادة شيخها منصور بن محمد، ومغراوة بقيادة راشد بن محمد بن ثابت بن منديل، الذي فرّ أمام بني عبد الواد (العبر، 6، ص 729).

(2) العبر، 6، ص 728 – 729.



الواد، المستائين من التقارب الذي حدث على حسابهم، بين الحفصيين والمرينيين. وبناء على هذه المعطيات، قرّر حاكم تونس إرسال وفد إلى بجاية لعقد معاهدة سلم معها، فتم له ما أراد بشرط واحد، هو إعادة توحيد الدولة الحفصية، بعد وفاة أحد السلطانين: سلطان بجاية أو سلطان تونس، على أن يتولى أمرها من بقي منهما حيًّا(1).

وبقيت الأمور هادئة بين الدولتين الشقيقتين إلى أن هلك أبو عصيدة، في شهر ربيع الآخر من سنة 709هـ./ سبتمبر 1309م.، فخالف المتحكّمون في أمور دولته، نص المعاهدة المشار إليها بترشيحهم أحد المقربين إليه، من أحفاد جدّ الأسرة الحفصية، الأمير أبي زكرياء، لخلافته، لأنّه لم يُعقّب، أي لم يكن له ولد. ويسمّى السلطان الجديد أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر، أو أبو زكرياء أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وتمّت له البيعة. وكان أبو البقاء، عندما علم بمرض أبي عصيدة، غيرَ مطمئنّ على حرص أولئك المتنفّذين، على تطبيق تلك المعاهدة، فخرج من حضرته بهدف الاقتراب من تونس لمهاجمتها في الوقت المناسب، إذا اقتضى الأمر ذلك، مُظهِرا أنه يقصد الجزائر التي سبق لها وأن تمرّدت على دولته، منذ عهد أبيه، وقصد قصر جابر(*)، وهناك بلغة خبر وفاة أبي عصيدة ومبايعة أبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر خليفة له،

---

(1) العبر، 6، نفس المصدر، ص 729 – 730؛ برنشفيك، المرجع السابق، ص 145.

(*) على بعد سبعة فراسخ، غرب – شمال – غرب الكاف (op.cit., P.84, note 1: Zerkechi).

فجدّ السّير صوب تونس، وبعد أيام قليلة حلّ بها وتمكن، من هزيمة أنصار منافسه على السلطنة وقتله، من غير كبير عناء، ولُقّب السلطان المقتول، بعد ذلك، بالشهيد لأن حكمه لم يدم أكثر من سبعة عشر يوما، وخلا الجو لأبي البقاء فتربع على عرش الدولتين، ولقب الناصر لدين الله المنصور، ثم استضاف إلى هذا اللقب «المتوكل»[1].

دور والي بجاية في الصراع على السلطنة الحفصية

كان أبو البقاء عقد على بجاية، قبل خروجه منها للزحف على تونس، لعبد الرحمن بن يعقوب بن الخَلوفُ، الملقب بالمزوار، لما كان لوالده، كبير صنهاجة المنتشرة بنواحي بجاية، من دور كبير في الدفاع عن الدولة، خاصة ضد عساكر أبي يحي بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 703هـ./ 1304م.، وكان السلطان أبو زكرياء، وابنه أبو البقاء، يستخلفانه ببجاية عند أسفارهما عنها، ولمّا توفي خَلَفه، في رئاسة قومه، ابنه عبد الرحمن هذا فعُومل مثل أبيه. غير أن ابن خلدون، صاحب هذه المعلومات، يقول مرّة: إن أبا البقاء «جعله حاجبا لأمير قسنطينة، أخيه أبي بكر، فانتقل إليها»[2]، ويقول، مرّة أخرى، إنه «استخلفه.. على بجاية... سنة تسع (709هـ./ 1309 – 1310م.) وأنزله

(1) العبر، 6، ص 732 – 733؛ المؤنس، ص 141 فما بعدها؛ Zerkechi :op.cit., P.84 sq.

(2) العبر، 6، ص 736.



بها»[1]؛ وقد تكون هذه المعلومة الأخيرة هي الأصح: لأن الزركشي ذكر، في حديثه عن ذلك الزحف، أن أبا البقاء، عند وصوله إلى قسنطينة «ترك بها نائبا، وهو الفقيه أبو الحسن عليّ بن عمر، ثم واصل طريقه نحو تونس»[2]، وذكر نفس المؤلف، في مكان آخر، أن «ولاية قسنطينة أُسندت لشقيق السلطان، الأمير أبي يحي أبي بكر، الذي انتقل إليها»[3]، ممّا يعني أن هذا الأخير، لم يكن واليا على قسنطينة، عند انطلاق حملة أخيه على تونس، حتى يكون له حاجب يقيم معه، بل انتقل إليها بعد الانتصار الذي حققه أخوه في هذه المدينة الأخيرة.

ومن المؤكّد أن الأمير أبا بكر، أو أبا يحي أبا بكر، هو الذي قاوم ابن عمه، الأمير يحي بن خالد بن السلطان أبي إسحاق، بعدما اختلف مع السلطان أبي البقاء في تونس، وحظي بتأييد صاحب الأشغال (وزير المالية) منصور بن فضل بن مُزني، الذي كان في خلاف مع الحاجب أبي عبد الرحمن يعقوب بن غُمر، وعقد يحي لمنصور على حجابته، وجمع منصور ليحي المقاتلين من العرب، فحاصر بهم قسنطينة عدة أيام، دون أن يتمكن منها، إلاّ أن ابن مُزني سرعان ما تخلى عن مؤازرته، بعد إطلاعه على تآمره عليه مع «زعنفة من الأوغاد»، وانصرف عنه

(1) العبر، 6، ص 738.

(2) op.cit., P.84 .

(3) Ibid, P.88 .

إلى بلده، وراجع طاعة السلطان وبطانته وحاجبه، فتقبلوه. ولم يبق أمام الأمير يحي، الذي انفضت جموع عساكره من حوله، سوى اللجوء إلى تلمسان ليستعين على أمره، فنزل على أميرها أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن، ولما هلك، بعد أيام من مقدمه، وخَلَفَه في منصبه، أَخوه أبو حمّو موسى، أمَدّه بجيش زحف به على المدينة المستهدفة، ولما امتنعت عليه، مثل المرة السابقة، اضطر إلى الاعتزال عن الحياة العمومية، ودعاه ابن مُزني إلى بسكرة فأقام بها بقية أيامه[1].

ويبدو أن أبا البقاء، لم يكن في مستوى مسؤوليته الجديدة، في تونس: ذلك أنه عكف على لذّاته وبَطَش بعدد من أشياخ أنصاره، سدويكش وأثبج، واستفحلت الأمور حتى أصبح حاجبه ابن غمر، وصاحب أشغاله، ابن مُزني، يخشيان شرّه، فأعملا الحيلة للابتعاد عنه، باستغضاب راشد بن محمد، أمير مغراوة الزناتية، فرحل عنه إلى بلاده، في المغرب الأوسط[*]، مما جعله يخشاه على مصير بجاية ونواحيها، لِمَا كان له من علاقة وطيدة مع عاملها ابن الخلوف الصنهاجي، ولما أحاط السلطان مساعديْه عِلْمًا بانشغاله، واستشارهُمَا في كيفية تفادي انفصال تلك

---

(1) العبر، 6، 734 – 735؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 158.

(*) تنطوي تلك الحيلة على استغضاب ابن غمر لأمير مغراوة الزناتية، راشد بن محمد، بتحريض بعض خدم القصر على قتل بعض حشم راشد، بعد رفعه إلى الحاجب في مقعد حكمه، فغضب الأمير الزناتي لذلك غضبا شديدا، وغادر تونس (العبر، 6، 736 – 737).



الولاية على الدولة، وَجد الحاجب سبيلا إلى قصده، فطلب منه أن يعقد له شـخصيا على حجابة أخيه أبي بكر في قسـنطينة، وأن يُولي عليّا، بن عمه، على الحجابة في تونس نائبا عنه، وأن يصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب، فوافق السلطان على هذه الاقتراحات، وسار كل واحد إلى مقرّ عمله[1].

وبعدمـا باشـر ابن غمـر مهمة خدمـة الأمير أبي بكـر، وتصرّف فـي حجابته، أخذ يحرّضه علـى الثورة ضدّ أخيه، الـذي علم بالأمر وأخذ يسـتعدّ للمواجهة، وشـعر حاجبه الجديد، عليّ بن غمر، بِقَلقِه فخشـي على نفسـه، والتحق بابن عمّه في قسـنطينة، في حين جهّز السـلطان جيشـا وأرسـله بقيادة مولاه ظافر الكبير، فسار في اتجاه المدينـة المذكورة، ولمـا حلّ بباجة توقـف، وهناك أعلن ابـن غمر خلع طاعـة أبي البقاء، وتبعه في ذلـك الأمير أبا بكر، فأخذ له البيعة على الناس سـنة 711هـ./ 1311 – 1312م.، وتلقّب بالمتوكّل وأقاما معسـكرا بظاهر المدينة، وكتبا إلى عبد الرحمن بن خلوف، والي بجاية، يدعوانه إلى أخذ البيعة لأبي بكر على من يليه بمدينته وأعمالها، فأبى وجاهر بخلافهما، وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد[2].

---

(1) العبـر، 6، ص 736 – 737؛ يلاحظ هنا أن برنشـفيك لـم يفهم نص ابن خلدون فهما جيّدا، فسجل معلومات تخالفه تماما (أنظر. برنشفيك: المرجع السابق، ص 158 – 159).

(2) العبر، 6، ص 738 – 739.



ولمـا اِطّلـع الأمير أبو بكر على موقف ابن خلـوف، انطلق على رأس جيشــه، من ظاهر قسنطينة نحو بجاية، فلما أطل عليها نصب خيامه، ونشــب القتـال بين الطرفين، في حين كانت الرسـل تتـردّد بينهما في المصالحة التي فشـلت بسبب اشتراط ابن الخلوف، على أبي بكر، عزل حاجبه ابن غمر، ثم اضطربت صفوف أبي بكر فجأة لخوف أنصاره من «لقاء صنهاجة، ومن معهم من مغراوة، أهل الشـوكة والعصبية والعديد والقوة»[1]. فاضطر للانسحاب إلى قسنطينة، في فلّ من جيشه، وبعث خصمه جيشـا خلفه فاقتحـم مدينة ميلة قبل أن يصل إلى قسـنطينة ويحاصرها أيّاما، ثم ينسحب إلى بجاية. و توقع أبو بكر أن يزحف عليه جيش أخيه الذي كان متربصا بباجة بقيادة ظافر الكبير[2].

وفي تلك الأثناء علم أن شيخ الموحدين، في عهد أبي عصيدة، قد عاد من الحجاز، بعد تأديّته فريضة الحج، ولمّا وصل إلى طرابلس، دعا لنفسه لمَا وجد فـي إفريقية من اضطراب، فبُويع، وكثـر أنصاره من العرب[3]، فَحَضَرتْه فكرةُ إيفاد حاجبه ابن غمر إليه، لإعلان دعمه له، بهدف إشغال أهل الحضرة (تونس) عنه، وتواطأ أبو بكر مع حاجبه، وأظهر أنه فرّ عنه، وبمجرد أن غادره «غَدَا .. على منازله فكبسـها وسَطَا بحاشيته»[4] و ولّى

(1) العبر، 6، ص 739.

(2) العبر، 6، ص 739 – 740.

(3) نفس المصدر، ص 740؛ المؤنس، ص 142؛ Zerkechi: P. 89, op. cit.

(4) نفسـه؛ حسـب الزركشـي فـإن الخلـوف عندمـا علـم بالإجـراء الـذي قـام بـه ابن غمـر، بعـث، هو الآخر، رُسـلا إلـى ابن اللحيانـي يحملون لـه هدايا ويعدونه بالمسـاعدة (op.cit., P.89).



حجابتَه، رئيسَ أهل الجبل المطل على قسنطيينة، والفُلّ من كتامة، حَسن بـن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت، ثم زحف، مرة أخرى، على بجاية سـنة 712هـ./ 1312م.، بعدما استخلف على البلد أخا الحاجب الجديد عبد اللـه بن ثابت، وكان ابن خلوف قد راجع حسـاباته السياسـية، بعدما صدّق الإشـاعة التي راجت بتنكّر أبي بكر لحاجبه ابن غمر، وسُخطه عليه، وتيقّن من اضطراب حال السـلطان أبي البقاء، وأصبح يسـعى لنيل حجابة أبي بكر وأوفد إليه وسـطاء، يُبلّغونه هذه الرغبة ويُوثّقون معه عهدا بذلك(*)، ثم قابله بفرجيوة، من بلاد سـدويكش، وهو متّجه إلـى بجاية، فرحب به أبو بكر، ثم دعاه ليلا، إلى رِواقِه فتناول الخمر، وسـط مجموعة من مواليه العُلج الذين اسـتفزوه، ولما غضب، تناولوه طعنـا بخناجرهـم إلى أن قتلـوه، وتم القبض بعد ذلك على حاشـيته وقومـه، وصار طريق بجاية مفتوحا أمـام أبي بكر، ودخلها، على حين غفلة[1].

نشوب صراع بين سلطان بجاية وأمير تلمسان.

قبل ذلك بقليل، أي في شـهر رجـب 711هـ./ نوفمبر1311م.، تمكن ابن اللّحياني من تحقيق نصره النهائي على أبي البقاء، ودخوله تونس،

(*) من هؤلاء عثمان بن شـبل، وعثمان بن سـباع بن يحي، من عرب الدواودة، والولي يعقوب البلاري، من نواحي قسنطينة (العبر، 6، 741).

(1) العبر، 6، 741.



حيث أخذت له البيعة العامة[1]، ولما استقرت له الأمور «أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مُرسِله السلطان أبي يحي (أبي بكر)، بعد أن وثّق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما يرضيه...»[2]، وبذلك أصبحت الدولة الحفصية مقسّمة، من جديد، إلى دولتين، شرقية، عاصمتها تونس، وغربية وعاصمتها بجاية[3].

وكان السلطان أبو يحي أبو بكر، بعدما هزمه ابن خلوف سنة 710هـ./ 1311م.، بعث مولاه سعيد بن يخلف إلى أبي حمّو موسى بن عثمان بن يغمراسن، الذي انتهز فرصة وفاة السلطان يوسف بن يعقوب المريني ليتوسع في المغرب الأوسط، مستوليا على أعمال مغرواة وبني تُوجين، وعلى الجزائر من ابن علاّن، وعلى تادلس من ابن خلوف، فطلب منه أبو يحي أن يتحالف معه ضد ابن خلوف، فلما بلغه مقتل هذا الأخير واستيلاء أبي يحي على بجاية، ادّعى أنها له، بمقتضى الاتفاق المبرم بينهما، ووافق ذلك وصول صنهاجة إليه، بعد مقتل أميرهم، إضافة إلى عثمان بن سبّاع بن يحي والحاجب السابق ابن أبي جبّي، بعد عودته من الحج، ورَغّبهُ كلُّ هؤلاء واستحثّوه للاستيلاء على بجاية، فأخرج إليها حملة بقيادة محمد بن عمه يوسف بن يغمراسن، ومسعود بن عمه أبي

(1) العبر، 6، ص 741 – 742؛ المؤنس، ص 142؛ Zerkechi: P. 91, op. cit.

(2) العبر، 6، ص 743؛ Zerkechi: P. 93, op. cit.

(3) برنشفيك: المرجع السابق، ص 160.



عامر إبراهيم، ومولاه مســامح، والحاجب الســابق ابن أبي جبي، وفي الطريق تخلوا عن هذا الأخير بشــلف، وهلك بجبل الزان(*) ولما وصلوا إلــى بجاية حاصروها ثم جاوزوها شــرقا، إلى جبل ابــن ثابت، وعاثوا فســادا في تلك النواحــي، لكنّهم اضطــرّوا إلى العــودة، بعدما وجدوا مقاومة عنيفة، وقد شــيّدوا في طريق عودتهم، حصنا بأصفون (أزفون الحالي)، وشــحنوه بالأقوات، ولمّا رجعوا إلى صاحبهم وبّخهم وعزلهم، وقد جرت تلك الأحداث خلال سنة 713هـ./ 1313 – 1314م.[1].

ولــم يبــق الســلطان أبو يحي أبــو بكر مكتــوف الأيــدي، بعد ذلك الانسحاب، بل جهّز أسطولا بحريا وجيشا برّيا وأخرجهما، من بجاية وقســنطينة، إلى حصن أَصْفُون سنة 714هـ./ 1314 – 1315م.، فخُرّب وانتهبــت أقواته وعدده، ممّا لم يمنع أبا حمّو مــن إخراج، حملة ثانية لحصار عاصمته، ســنة 715هـ/ 1315 – 1316م.، وعلى رأســها مسعود ابن عمّه أبي عامر إبراهيم بن يَغْمُراسن، ولما باشر حصارها بلغه وقوع تمرّد على أبي حمّو، شــارك فيه كلٌّ من محمد بن يوسف بن يغمراسن وبنو توجين، فهزموه واستولوا على معسكره، فأفرج مسعود، من فوره، علــى بجاية وعاد من حيث أتي، في حين بعث قائد تلك الثورة، محمد

(*) كتبــه ابــن خلدون جبل الــزاب، والصحيح جبل الزان، وهي سلســلة جبل أكفادو، غرب بجاية (راجع Féraud: op.cit., P.183, note 1).

(1) العبــر، 6، 745 – 746؛ Féraud: op.cit., PP. 182 - 183؛ برنشــفيك: المرجــع الســابق، ص 162.

ابن يوسف، إلى السلطان أبي يحي بطاعته، فتقبلها بكل فرح وسرور، ووعده بالنّصـرة، ونَقَل الامتيـازات، التي كانت ليغمراسـن بإفريقية إليـه، وبعد ذلك توقفـت محاولات بني عبد الواد ضِد بجاية، بسـبب انشغالهم بمشاكلهم الداخلية[1].

سـلطان بجاية أبو يحي أبو بكر يوحّد الدولة الحفصية مرة أخرى.

وعندئذ تحَيَّل ابن غمر، حاجب السـلطان أبي يحي، في إبعاده عن بجاية، لانفراده بحكمها، خوفًا على نفسـه منه[*]، فأغراه بالاسـتيلاء على إفريقية، من يد صاحبها ابن اللّحياني، وأعدّ له العُدّة لذلك، فخرج السـلطان إلى قسنطينة سنة 715هـ./ 1315م.، وكان على حجابته، منذ ذلـك الخروج، محمد بن القالـون، ومن هناك غزا بـلاد هوّارة، فجمع جبايتها ثم عاد إليها سـنة 316هـ./ 1316م.، ليقوم بآخر الترتيبات قبل

(1) العبر، 6، ص 746؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 162 – 163؛ Féraud :op.cit, P.185.

(*) ذلك أن الحاجب ابن غمر كان مسـتبدا على السلطان أبي يحي، ويرى أن مصيره بيـده، وصار يحرضه علـى بطانته فيقتلهم وينفيهم، وربما كان السـلطان غير راض عـن ذلك الاسـتبداد، وقـد حاول بعض سـكان قسـنطينة تحريضه على قتله سـنة 713هـ/1313م.، لكن ابن غمر اكتشـف خُطّتهم في الوقت المناسـب فأوقع بهم، وعاد السـلطان من قسـنطينة إلى بجاية، في نفس السـنة، وبقي اسـتبداد حاجبه عليه، كمـا كان، لكنـه لم يَعُد يتحمله لدرجة جعلته، ذات يوم، يسـطو على أحد المقربين من حاجبه ويقتله دون علمه، ولما اكتشف جثته، في الصباح، مُلقاة في الطريق، قيل له إن السلطان هو من فعل ذلك، فأصبح يخشى على نفسه منه (العبر، 6، ص 746،747).



انطلاقه نحو تونس: فاستخلف على قسنطينة حاجبه الجديد محمد ابن القالون، وبعث يطلب من حاجبه الأعظم في بجاية، ابن غُمر، تزويده بالمال، فبعث إليه هذا الأخير منصور بن فضْل بن مُزني، عامل الزاب، ليقيم إنفاقه(*)، واستخلفه على حجابته وكان انطلاق حملته من قسنطينة، نحو تونس في جمادى الأول أو الثاني 717هـ.[1]/ 1317م.، ولمّا انتهى إلى باجة، وجد حاميتها انسحبت إلى الحضرة، التي سبق وأن غادرها السلطان ابن اللحياني إلى قابس، بعدما استخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، فلما راسله رجال دولته في أمر الدفاع عنها ضد هجوم أبي يحي، اعتذر لهم، وأطلق أيدهم فيما يتاح لهم من أموالها ورجالها، فما كان عليهم إلاّ أن أطلقوا ابنه محمد، المكنى أبا ضربة، من السجن وتوجهوا به إلى القيروان، في حين وصل السلطان أبو يحي إلى روض السناجرة، في شعبان 717هـ./ أكتوبر- نوفمبر1317م.، وخرج إليه الناس، وتردّدوا في بيعته، في انتظار أخبار أبي ضربة وأصحابه، وبعد سبعة أيام علموا أن أصحاب هذا الأخير بايعوه، وأنه في طريقه إليهم، ولم يكن أبو يحي قد استكمل البيعة، فعَاد إلى قسنطينة، ودخل أبو ضربة تونس، منتصف شعبان 717هـ./ أكتوبر1317م.، وتلقّب بالمستنصر[2].

(*)وكان ابن غمر، عيّنه على أشغال عمل الزاب وجبل أوراس والحضنة وسدويكش وعياض وسائر أعمال الضاحية فكان هو المسؤول عن جبايتها (العبر، 6، ص 750).

(1) قارن: العبر، 6، ص 750؛ Zerkechi: op.cit., P.94.

(2) العبر، 6، ص 746 فما بعدها من عدة صفحات؛ Zerkechi: op.cit., P.94 sq.



أما أبو يحي أبو بكر، فقد سرّح، أثناء عودته، منصور بن مزني إلى ابن غمر، من بجاية، كما بعث له من قسنطينة قائده محمد بن سيّد الناس لـ«يهيئ قصوره ببجاية للتحوّل إليها، فردّه ابن غمر وتنكّر»[1] إلاّ أنه عندما طالبه بالمدد، بعث إليه بسبعة من رجال الدولة[*] مع سبعة جيوش، وبعض فحول زناتة، فيمن كان معهم من قومهم[**]، مما جعله يغض عنه الطرف، فلما التحقوا به أعاد الكرّة على تونس، في شهر صفر سنة 718هـ./ إبريل 1318م.، وعلى حجابته عبد الله بن القالون ومساعده أبو الحسن بن عمر، ولما حلّ بالأُربُس اتصل به كبير هوّارة، سليمان بن جامع، وأخبره أن أبا ضربة استعد لمقاومته في باجة، ثم انسحب فجأة، فراح يبحث عنه حتى وصل مشارف القيروان، حيث خرج إليه عاملها ومشائخها فبايعوه، ومن هناك رجع إلى تونس. وكان أبو ضربة قد أناب عنه فيها محمد بن العلاّق، فحاول الدفاع عنها مدّة ساعة ثم اقتُحمت وقُتل هو نفسه، وذلك يوم الخميس 7 ربيع الثاني 718هـ./8 جوان 1318م.، وأُخذت البيعة من جديد للسلطان، ولقب بالمتوكل على الله. وأوّل إجراء قام به هو تعيين ميمون بن أبي زيد على شُرطة تونس، واستخلافه على هذه الأخيرة، ثم رحل في اتباع أبي ضربة، وبعدما ألحق به هزيمتين

---

(1) العبر، 6، ص 757.

(*) هؤلاء هم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السّنان، وأخوه ومحمد المديوني، ومحمد المجرسي ومحمد البطوني (العبر، 6، ص 752).

(**) منهم عبد الحق بن عثمان، من رؤساء بني مرين، وأبو راشد بن محمد بن يوسف، من شيوخ بني عبد الواد (العبر، 6، ص 750).



متتاليتين، لجأ إلى المهدية وتحصّن بها، واستقامت إفريقية على طاعة المتوكل على الله، إلاّ المهدية وطرابلس[1]، وبذلك تمكّن هذا السلطان من إعادة الوحدة الحفصية، كما فعل أخوه أبو البقاء قبله[2].

تعيين أبي زكرياء بن السلطان أبي يحي أبي بكر واليا على بجاية.

كان أبو يحي أبوبكر قد عقد لحاجبه أبي عبد الرحمن بن غمر، بعدما زوّده بما كان طلبه منه من مدد، على كلّ من بجاية وقسنطينة، ولما تمكن من السيطرة على مختلف أنحاء البلاد، بعث إلى أبي عبد الرحمن بن عمه محمد أو عليّ بن غمر[*]، فعقد له على قسنطينة وأخرجه إليها وبقي هو مستبدا «بالثّغر (بجاية) وما إليه من الأعمال، مقتصرًا على ذكر السلطان في الخطبة، واسمِه في السكة...»[3] ولم يمض وقت طويل حتى أصيب بمرض، فبعث يستقدم ابن عمه من مكان عمله بقسنطينة «وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان»[4] وبعد أيام

---

(1) العبر، 6، ص 752 فما بعدها من عدة صفحات؛ Zerkechi: P. 97 sq, op. cit.؛ برنشفيك: PP. 163 – 64, op. cit.

(2) أنظر: برنشفيك: المرجع السابق، ص 164.

(*) يسميه، ابن خلدون، مرّة، محمد (ص. 756) ومرّتين عليّ (ص. 757).

(3) العبر، 6، ص 756.

(4) العبر، 6، ص 757.



قلائل توفي، في شـوال سنة 719هـ./ 1319م.، وقام ابن عمه بأمر بجاية، وبمجرد ما علم السـلطان بتلك الوفاة، سـارع بإرسـال ابن سيّد الناس، فجلب له أثاث قصره وذخائره، واستقدم معه وَالي بجاية الجديد[1].

وأهمّ السلطانَ الحفصي شأنُ بجاية، التي كان بنو عبد الواد يسرّون علـى احتلالها، فاتخذ قرارا يقضـي بتكثيف حامية الثغور الغربية، أي زيادة عدد المدافعين عنها، وإنزال أبنائه بها، لحمايتها، وبناءً عليه عقد على قسنطينة لابنه الأمير أبي عبد الله، وعلى بجاية لابنه الآخر، الأمير أبـي زكرياء، وجعل حجابتهمـا لحاجبه الخاص، أبـي عبد الله محمد ابن القالون، مسـتبدا عليهما، لصغر سنهما، وأمره بالإقامة في بجاية لمقاومة ما قد تتعرض له من حصار. وفي بداية سـنة 720هـ./ 1320م.، خرج هؤلاء مصحوبين بتعزيزات عسكرية إلى مقرات أعمالهم[2].

وبقي منصب حاجب السـلطان أبي يحي أبي بكر شـاغرا، يشـغلهُ نظريا أبو عبد الله محمد بـن عبد العزيز الكُردي، الملقب بالمزوار[*]، وكان مقدّمـا على بطانة السـلطان المعروفـين بالدّخلة فوجد الطريق فسـيحا أمامه للسّعاية في الحاجب عنده، وسانده في سعيه، صاحب

(1) العبر، 6، ص 757.

(2) العبر، 6، ص 757 – 758.

(*) يطلـق ابـن خلدون تسـميّتين مختلفتين على هذا الحاجب: الأولـى (أبو عبد الله محمـد بن القالـون)، والثانية (محمد ابن القالون المعـروف بالمزوار) أنظر: العبر، 6، ص 757 فما بعدها من عدّة صفحات.



الأشغال أبو القاسم بن عبد العزيز، فتمكنا من إقناعه بما أراداه، فعزله وولىّ على بجاية، محمد بن سيد الناس، ليقاوم مُحاصِريها ويتولى حجابة أميرها. وكرّ محمد بن القالون راجعا إلى الحضرة، تونس، وهو يَعلَم تغيّر أبي يحي أبي بكر له، فلما حلّ بقسنطينة حدّثته نفسه بالامتناع بها، لكن شيوخها رفضوا فكرته، فأرسلهم إلى تونس تنكيلا بهم، وعلم السلطان بما جرى، فعزم على استضافة الحجابة، حجابة الأمير أبي عبد الله، بقسنطينة لابن سيّد الناس، ثمّ تراجع عن رأيه أمام تحذير مشيختها له منه، وصَرَفها إلى مولاه ظافر الكبير، وعقد له عليها «فقدمها، وقام بأمرها، واستعمل ذَوَيْه وحاشيته في وجوه خدمتها، وصرف مَن كان هنالك من الخدّام، أهل الحضرة إلى بلدهم.... واستقل بأمره....»[1]، وبمعنى آخر فإن قسنطينة قد استقلت عن بجاية، وأصبحت تابعة إلى الحضرة مباشرة.

وكانت بونة (عنابة) هي الأخرى، مستقلة عن بجاية من أوّل ارتقاء أبي يحي أبي بكر على عرش السلطنة، حيث عقد آنذاك، لمولاه مسرور المَعْلوجي على ولايتها، فاستمر يدير شؤونها بعنف إلى أن مات، فعقد السلطان عليها لابنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها، وولّى على حجابته وقيادة عسكره مولاه ظافرا السنان[2].

---

(1) العبر، 6، ص 760.

(2) نفس المصدر، 6، ص 773.

ونفس الشـــيء بالنســبة لبلاد الزّاب الذي ســبق للحاجب أبي عبد الرحمن بن غمر، المســتبد ببجاية، وأن ضمّ لعاملها، منصور بن فضل ابن مزني، عمل جبل أوراس، والخضنة، وســدويكش وعياض، وسائر أعمــال الضاحيــة، لِمَا لاحظه مــن كفاءة هذا العامل فــي جمع المال، فكان هو المســؤول عــن جباية كل تلــك الأعمال[1] لحســاب الحاجب المذكــور الــذي كان يتولى أمــر بجايــة، وبالتالي فإن الأعمال المشــار إليهــا، كانت جميعها تابعــة لولايته التي كان نطاقهــا الجغرافي يمتدّ إلــى ورجلان (ورجلــة)، ثم كان خروج حاجب الســلطان أبي يحي أبي بكــر، ابن الحكيم، من تونس ســنة 744هــ./ 1344 - 1345م.، إلى جبل أوراس لاقتضــاء مغارمــه، وتوغله في أرض الزاب، لاســتيفاء جبايته من عامله يوسف بن منصور (ابن مزني) وتقدمه إلى ريغ حيث اقتحم تُقّورت ونهب أموالها[2]. إن ما قام به ابن الحكيم في تلك المناطق يعني أنها لم تعد تابعة لولاية بجاية، بل أصبحت ملحقة مباشــرة بالحضرة الحفصية، مثلها مثل قسنطينة وعنابة.

والمفيــد أن نطــاق ولاية بجاية الجغرافي أخذ يضيــق، أكثر فأكثر، إلــى أن اقتصر على المدينة وضواحيهــا، فأصبحت تحدّها (تخومها) المسيلة ومَقرّة[3] وبقيت ولايتها لمحمد بن أبي الحسين بن سيّد الناس،

(1) العبر، 6، ص 750.

(2) أنظر ابن خلدون، العبر، 6، ص 797.

(3) العبر، 6، ص 804.



حتى وفاة حاجب السلطان أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالمزوار، أو محمد بن القالون المعروف بالمزوار، سنة 727هـ./ 132م.، عندئذ استقدمه العاهل الحفصي لحضرته كي يوليه منصب حجابته(*) وجدّد له العقد على حجابة ابنه، أبي زكرياء ببجاية، فعيّن فيها، بدَوْره، صنيعته أبا عبد الله محمد بن فرحون للنيابة عنه، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد[1] أو ابن المزيد[2]. وقد استمر ابن سيّد الناس في تأدية مهامه إلى ربيع سنة 733هـ./ ديسمبر 1332م.، وعندئذ تقبّض عليه السلطان فعذبه ثم قتله(**)، كما تقبّض عَلَى ابن فرحون، في الوقت الذي أصبح فيه أمير بجاية، أبو زكرياء، متمسكا بزمام أموره، ففوّض إليه والدُه أمرها، «وبعث إليه ظافرُ السنان، مولى أبيه الأمير أبي زكرياء الأوسط، قائدا على عسكره، والكاتبَ أبا

(*) عُرض هذا المنصب على محمد بن خلدون، جدّ المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الأقرب، فاعتذر واقترح على السلطان تعيين صاحب الثّغر (بجاية) بديلا عنه (العبر، 6، ص 771).

(1) العبر، 6، ص 771؛ Zerkechi: P. 100, op. cit.

(2) نفس المصدر، ص 781.

(**) يعود سبب ذلك إلى كونه تآمر عليه، ذات يوم، قبل توليته منصب الحجابة، حيث اتفق مع قائد أبي تاشفين العبد الوادي، موسى بنُ علي، على أن يبطش كل واحد منهما بسلطانه، وعلم السلطانان بالأمر، فقتل أبو تاشفين قائده، أمّا أبو يحي أبو بكر فأغضى لابن سيد الناس عنها، بل قلّده بعدها حجابته، وفوّض إليه أمور سلطانه «لمكانه من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه» ولم يتولّ أمره إلاّ بعدما خرّب حصن تيمرزدكت (تيمززدكت)، الذي أقامه بنو عبد الواد على مشارفها (العبر، 6، ص 781 – 782).



إســحاق بن غلان، متصرفا في حجابته، فأقام ببابه مدّة، ثم صرفهما إلى الحضرة»[1]، وكأنه أراد أن يتخلّص من وصاية والده عليه.

تخلّص والي بجاية، الأمير أبي زكرياء الأوسط، من وصاية والده

يَكْمُــن دليــل ذلك فــي كونه تولــى بنفســه تعيين حاجبــه، وهو أبو العباس أحمد بن أبي زكرياء الرّندي، فشغل ذلك المنصب إلى أنْ هلك، وبعدئذ انزعج السـلطان من اسـتحواذ غيره، من السوقة أو الأمراء، على حجابة ابنه، فعيّن له في ذلك المنصب، كبير الموحدين، أبا محمد ابــن تافراكين، حوالي ســنة 740هـ./ 1340م.، فمارس سياســة تعظيم أُبهته، وجهّز له جيشــا، خرج على رأسه لتفقّد أحوال أعماله، غير أنّ تلك السياســة جلبت له سُــخط أعيان المدينة، الذين لم يعد بإمكانهم الاتصــال بأميرهم، وكان في مقدّمة هؤلاء: القاضي ابن أبي يوســف، فما كان على ابن تافراكين إلاّ أن استُعفي من منصبه فأُعفي، بعد أَقل من سنة من تعيينه فيه[2].

وقد أســند الأمير أبو زكرياء هذه المهمة، بعد ذلك، إلى أبي عبد الله محمد بن فرحون، الذي ســبق وأن تولاّها له، في عهد ابن سيّد الناس،

(1) العبر، 6، ص 804.

(2) العبر، 6، ص 804 – 805.



وكان والده قد أوفده، بعد قتل هذا الأخير إلى مَلك المغرب أبي الحسن المريني، مع الأسطول الذي أمدّه به عند اجتيازه إلى طريف، بقيادة أخيه زيد بن فرحون، قائد البحر ببجاية، فلما رجع أبو عبد الله من سفارته، أذن له بالمقام، عند الأمير أبي زكرياء، وتولّى منصب حجابته، واستمر في مهمته إلى أن هلك، فأُسندت تلك الخطة إلى ابن القَشّاش، من صنائع الدولة، ثم عزله بأبي القاسم بن علناس، من طبقات الكُتّاب، ثم عزله بعليّ بن محمد بن المنت الحضرمي، وكان طموحًا للرئاسة، فقام ببعض الإصلاحات وحقّق بعض الإنجازات الهادفة إلى إبراز هيبة سلطة الأمير «فجهّز له العساكر وجال في نواحي أعماله»[1] لكن أبا زكرياء توفي في إحدى جولاته تلك، بتاكرارت، من أعمال ولايته، من مرض أصابه في ربيع الأول سنة 747هـ./ يونيو 1346م.[2].

ولاية أبي عبد الله بن أبي زكرياء على بجاية

لما وصل خبر موت أبي زكرياء إلى والده بتونس، عقد على ولايته لأصغر إخوته، الأمير أبي حفص، وأخرج معه أبا القاسم بن علناس. ومن المفيد الإشارة هنا، إلى نص ابن خلدون الذي ورد فيه خبر وفاة أبي زكرياء وتعيين خلف له في منصبه، إذ جاء فيه مايلي «وبادر حاجبه الأول (أي حاجب أبي زكرياء) أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة

(1) العبر، 6، ص 805.

(2) نفس المصدر، ص 805 – 806؛ Zerkechi: op.cit., P.117.



(تونس) وأنمى الخبر إلى الخليفة، فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص، كان معه بالحضرة وهو من أصاغر ولده...، وخرج معه أبو القاسم بن علناس..»[1] وهذا الكلام لا يعني حتما ما ذهب إليه Féraud، اعتمادا على هذا النص، من أن «الحاجب القديم (الأول)، ابن علناس، أسرع إلى الحضرة وتحصل على تسمية الأمير أبي حفص»[2] في المنصب الشاغر. والمهم أن الوالي الجديد دخل بجاية على حين غفلة، وحمله بعض بطانته على إظهار القوّة والصرامة، فخشي الناس على أنفسهم، وذات يوم حدثت ضجة اتفق فيها الناس على التوثب بالحاكم الجديد، وساروا بسلاحهم إلى القصبة، فاقتحموا داره ونهبوها ثم أخرجوه منها، وقصدوا دارَ ابنِ أميرهم الراحل، أبي زكرياء، وهو الأمير أبو عبد الله، وهُم يهتفون بإمارته، وكان في حِجر مولى أبيه فارح، وعند اختباره أبدى استعدادا لتولية شؤون الإمارة، وسافر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة، لإحاطة جدّه السلطان علما بذلك، وبقي هو ينتظر أوامره لكن الحاجب عاد إلى المدينة مصحوبا بوال آخر لم يكن منتظرا، فما كان على الأمير أبي عبد الله إلا أن سلّم بالأمر الواقع، و شرع في الاستعداد بالرحيل للالتحاق بالحضرة، وبينما هو كذلك وصل إليه هؤلاء الثوار وبايعوه، بإذن عمّه الأمير أبي حفص، الذي عاد من فوره لتونس، بعد شهر من

(1) العبر، 6، 806؛ قارن .op.cit., P.117: Zerkechi

(2) op.cit., P.192.



تعيينــه في ذلك المنصب، فما كان على الســلطان إلاّ أن تدارك الأمر، وبعث للبجائيين أبا عبد الله بن ســليمان، من مشيخة الموحدين وكبار الصالحين لتهدئــة خواطرهم، وفي حوزته عقــد تولية حفيده الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء. ولم يمض وقت طويل حتى توفي الســلطان أبو يحي أبو بكر نفســه، يوم الأربعاء 2 رجب 747هـ./ 21 أكتوبر 1346م[1].

صراع الحفصيين مع بني عبد الواد على بجاية.

عانت مدينة بجاية، الكثير من هجمات ومضايقات أمراء تلمســان، من بني عبد الواد، منذ أن انتصر منهم الأمير أبو حمّو موسى على ابن عمه محمد بن يُوســف بن يغمراســن، وانتزع منه بلاد مغرواة وتوجين الزناتيين، وابتنــى بالوادي، وادي الصومام، علــى مرحلتين منها قلعة بكــر[*]، لحشــد الجيش فيها وحصــار بجاية، غير أنّ وفــاة أبي حمّو وتولية ابنه أبي تاشــفين ســنة 718هـ./ 1318م.، جعلتاها تعرف هُدنة، اســتغلها الأمير أبو يحي أبو بكر للاســتيلاء على تونس، والاستحواذ علــى عــرش الدولة الحفصية. لكنّ أبا تاشــفين ســرعان ما خرج من تلمسان لبســط نفوذه على أعماله، فقَتل محمد بن يوسف الذي سبق

(1) أنظر العبر، 6، ص 806 – 807؛ Zerkechi: op.cit., P.118.

(*) بالنســبة لبرانشــفيك فإنّ أوّل حصن بناه بنو عبد الوادي، علــى وادي الصومام، قرب بجاية هو حصن تغار (المرجع السابق، ص 178).

وأن هزمه والده، بمعقله من جبل وانشريس، ومن هناك زحف على بجاية، فأطلّ عليها سنة 719هـ./ 1319م.، وبَدَا له مِن إحكام حصنها وكثرة مُقاتليها ما جعله يراجع حساباته ويعود من حيث أتى[1].

وبقيت الأمور على هذه الحالة، هادئة، إلى سنة 723هـ./ 1323م.؛ وليس هناك ما يبرّر قول برنشفيك «فبدأت الهجومات ضد بجاية، منذ سنة 719هـ./ 1319م.، وتكرّرت بقوة في كل سنة تقريبا»[2]: ففي سنة 723هـ إذًا، بعد فشل ثورة محمد بن أبي عمران ضدّ السلطان أبي يحي أبي بكر[3]، تخلّى أحدُ أنصاره الأساسيين عنه، وهو حمزة بن عمر، من مشائخ بني سُليم، واتصل بأبي ضربة بن السلطان اللّحياني الذي كان متحصنا بالمهدية، مقترحًا عليه السفر معه إلى تلمسان للإستعانة بصاحبها، ضد السلطان الحفصي، ثم سافرا معا، فوفدا على أبي تاشفين، وعرضا عليه مساعدتهما له لتمكينه من بجاية، إذَا أمدّهما بجيش يشغلان به صاحب تونس عن مددها، فلبّى أبو تاشفين طلبهما، بتزويدهما بآلاف العساكر، وعلى رأسهم موسى ابن عليّ الكُردي وعدد كبير من رجالات الدولة، ولما بلغ السلطان أبا يحي أبا بكر خبر تقدّمهم في اتجاهه، خرج إليهم من تونس، فالتقى

(1) العبر، 6، ص 756 – 757؛ Féraud. op.cit., PP. 186 - 87:

(2) المرجع السابق، ص 178.

(3) عن هذه الثورة، أنظر العبر، 6، ص 760 فما بعدها من عدة صفحات.



الطرفان في منطقة رغيس، بين درنة وقسنطينة، في شهر شعبان من سنة 723هـ./ أغسطس 1323م.، فاندلع بينهما قتال كان النصر في نهايته لصالح الحفصيين، الذين عادوا بَعْدهُ إلى حضرتهم، وعاد كلّ من القائد موسى بن عليّ الكردي، وأبي ضربة إلى تلمسان حيث توفى هذا الأخير[1].

لكن حمزة بن عمر استمر في حربه ضدّ أبي يحي أبي بكر إلى أن أوهن قومَهُ الكُعوبَ، ويَئسوا من الانتصار، فلما أحسّ أنهم بدأوا يتذمرون منه وفد، مرّة أخرى، على أبي تاشفين، بصحبة بعض نظرائه من بني سُليْم، وحاجب بجاية السابق ابن القالون. فأمدّهم أبو تاشفين، هذه المرة أيضا، بقائده موسى بن عليّ الكردي، على رأس كتيبة عسكرية، ونصّب لهم، لمُلك تونس، إبراهيم بن الشهيد الذي كان لاجئا عنده، واستعمل على حجابته محمد بن يحي بن القالون، فلما بدأ زحفهم خرج السلطان أبو بكر يعترض طريقهم، وعند حلوله بقسنطينة، عاجلوا ونزلوا بساحتها، قبل أن ينتهي من استعداداته الحربية، فأقام القائد التلمساني لمحاربته بعساكر بني عبد الواد سنة 724هـ./ 1324م.، في حين واصل إبراهيم بن الشهيد، وحمزة بن عمر ومن معهما طريقهم إلى تونس، فدخلوها سنة 725هـ./ 1325م.، وبقوا بها إلى أن استردّها منهم أبو يحي أبو بكر، عند عودته من قسنطينة

(1) العبر، 6، ص 764 – 765.

في نفس السنة، بعد ما تخلى موسى بن علي عن حصارها وعاد إلى تلمسان[1].

ويلاحظ أن بجاية لم تكن لها أية علاقة بهذه الأحداث الأخيرة إلاّ أن ابن خلدون، المعاصر لها، يربطها ببعضها على أساس أن همّ أبي تاشفين، بعد توليه الحكم، كان الاستيلاء على تلك المدينة، فأكثر من إخراج حملاته العسكرية إليها، ومن إطالة حصارها، في حين أولاها السلطان أبو بكر عناية خاصة، فعيّن بها أكفأ رجالات دولته وزوّدها بما تحتاجه من إمكانيات مالية وعسكرية للصّمود في وجهه، كما حرص على إظهار استعداده لتزويدها بالمدد المطلوب في الوقت المناسب. وهذا ما جعل أبا تاشفين يحرص على تشتيت جهده وإشغاله بما يُوهن عزمه عن التفكير في مهاجمة حشود عساكره المتربّصة بها في قلعة بكر. وكان أهم ما لجأ إليه، لتحقيق هدفه هذا، هو تحريض الثائرين عليه، وخاصة منهم حمزة بن عمر، وفي هذا الإطار تَدخُل مساعدته له سنة 725هـ./ 1325م.، وتمكينه من دخول تونس ولو مؤقتا[2].

وقد رجع نفس القائد العبد الوادي لحصار قسنطينة سنة 728هـ./ 1327م.، ثم أغار على نواحيها، حيث جمع الأموال قبل توجّهه إلى وادي بجاية،

---

(1) العبر، 6، ص 766 – 767.

(2) نفس المصدر، ص 767 – 768.



الصّومام، ليختط مدينة بتيكلات(*) على مرحلة من هذه المدينة الأخيرة، وعلى حافة الطريق الذي يمرّ من الغرب إلى الشرق، تاركا بجاية في جهة البحر، فشيّدوها في مدّة أربعين يوما وأطلقوا عليها تسمية تيمرزدكت[1] أو تيمزردكت[2]، باسم حصن قديم لهم، شيّدوه بالجبل قبالة وجدة، وتَحّصن به يغمراسن من أبي السعيد المريني الذي هلك أثناء حصاره له، وشحنوها بالمواد الغذائية والأسلحة وعمّروها بالمقاتلين، من مشاة وفرسان[3]، وفِرَق القبائل المجاورة، وكان بإمكانها إيواء أكثر من ثلاثة آلاف رجل[4] «وأخذت بمخنق البلد»[5]، أي أن حاميتها أخذت الرهائن من أبناء القبائل المجاورة، كما أجبرتها على دفع الجباية إليها، وحرصت على قطع الاتصالات مع بجاية، فأزعجت هذه المدينة إلى أقصى حدٍّ، وظهرت فيها المجاعة[6].

(*) حسب féraud فإنه اختط مدينته بسوق الخميس، وأنّ تيكلات، في رأيه هي سوق الخميس (op.cit., P.188)؛ وحسب برنشفيك فإن هذا الحصن أقيم سنة 726هـ./ 1326م.، (المرجع السابق، ص 178).

(1) العبر، 6، ص 768.

(2) Féraud: op.cit., P.188؛ برنشفيك المرجع السابق، ص 178؛ كانت التسمية التي تطلق على هذا الموقع، في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، هي تيكلات، وهي في مكان خرائب مدينة Tubusuptus القديمة، وبالاعتماد على كومة الآثار القديمة التي تغطي الأرض، من أسوار وأقواس وأضرحة، والأعمال المائية، فإن هذه المدينة يبدو أنها كانت كبيرة (Féraud : op.cit., P. 188, note1).

(3) العبر، 6، 768.

(4) راجع برنشفيك: المرجع السابق، ص 178.

(5) العبر، 6، ص 768.

(6) أنظر: Féraud: P. 189, op. cit.

أقلقت هذه الوضعية السلطان أبا يحي أبا بكر، فأصدر أوامره، إلى قادة جيوشه، وأصحاب عمالاته، بالتحرك إلى بجاية لإمداد صاحبها محمد بن سيّد الناس للزحف على ذلك الحصن وتخريبه، وبناءً على ذلك وفد على ابن سيد الناس كلٌّ من ظافر الكبير صاحب قسنطينة، وعبد الله العاقل شيخ هوّارة، وظافر السّنان صاحب بونة، مع من كان معهم من المقاتلين، سنة 727هـ./ 1327م.، ولما علم قائد تيمززدكت بوصول هؤلاء، استنفر هو الآخر، جيوش بني عبد الواد المتمركزة خلف موقعه، فلما هاجم، خصومُه حصنَه تمكّن من هزيمتهم، وقتل أحد قادتهم، وهو ظافر الكبير، ولما حاولت فلولهم المنهزمة اللجوء إلى بجاية، منعها ابن سيّد الناس من دخولها، خشيةَ أن يكون قائد الحصن، عيسى بن موسى، قد أقنع بعضها بإحداث انقلاب عليه، فعادت كل منها من حيث أتت[1].

ويضيف Féraud إلى هذه الأحداث قوله «إن أبا تاشفين قام باتصالات مع بعض سكان بجاية، وعرف عن طريقهم نقطة ضعف المدينة فجاء ليدخلها منها لكن ابن سيد الناس استعادَ السيطرة على الأمور، بقتله الخونة، فابتعد سلطان بني عبد الواد، بعدما أسند قيادة الحصن إلى عيسى، أحد مشائخ قبيلته» وأمره في نفس الوقت، ببناء حصن أقرب من بجاية، وبناءً على ذلك شيّد بنو عبد الواد قلعة جديدة

(1) العبر، 6، ص 769؛ Féraud: op. cit., P. 189.



تعرف بالياقوتة، وبالضبط عند مصب النهر، قبالة بجاية، وتقع تلك القلعة على الضفة اليمنى لنهر الصومام، قبّالة جسر السّفن الذي شيّده، فيما بعد، الفرنسيون على هذا النهر، وبقيت خرائبة موجودة سنة 1849 (1)، علما أن ابن خلدون، المصدر الرئيسي في رواية هذه الأحداث لا يشير إلى مجيء أبي تاشفين إلى بجاية آنذاك، ويحدد برنشفيك تاريخ تشييد هذا الحصن بسنة 729هـ./ 1329م.

وعند الاقتراب من بجاية، على الضفة اليُسرى لواد الصومام، تظهر بقايا حصن يُسمى القصر، جدرانه من الآجر (pisé)، عُلوّها 7 أمتار وعرضها 1,50م. وسورها (enceinte) محاط بخندق (fossé) لا يقل عرضه عن 15م. وهذا الحصن يعود ولا شك، حسب Féraud، إلى العهد الذي ثبّت فيه أبو تاشفين جيوشه في الوادي لإزعاج مدينة بجاية باستمرار (2).

وخلاصة القول فإن بني عبد الواد رَكّزوا، آنذاك، على إقامة عدة منشآت عسكرية لاستخدامها في مضايقة بجاية والوصول، في نهاية المطاف إلى الاستيلاء إلاّ أنهم، لم يحققوا هدفهم، لكنهم لم ييئسوا بل استمروا في مضايقة السلطان أبي يحي أبي بكر، بإمداد الثائرين عليه حتى ينشغل عن بجاية، وهذا ما جعل سلطانهم أبا تاشفين يُنصِّب على الثائرين عليه، مَن لجأوا إلى بلاطه في تلمسان(*)، محمد بن أبي

---

(1) op. cit., PP. 189 – 190 et note1; P. 190.

(2) op. cit., P. 188, note1.

عمران(**)، لتولية أمر إفريقية ويُخرجه مع قائده يحي بن موسى إلى تونس سـنة 729هـ./ 1329م.، ولما بلغ السلطان الحفصي خبر زحفهم إليه، خرج هو الآخر يعترض طريقهم، وتقابل الطرفان في مكان يُسمّى الريّاس، من نواحي بلاد هوّارة بالقرب من مرماجنة[1] فاشتبكا في معركة هُزم فيها السلطان الحفصي وأصيب بجروح ولجأ على إثرها، إلى بونة، ومنها ركب البحر إلى بجاية.

استيلاء أبي الحسن المريني على بجاية وإفريقية

ضاق السلطان أبو يحي أبو بكر ذرعا بما سبّبه له بنو عبد الواد من انزعاجات، فقرّر الاستعانة عليهم بالسلطان أبي سعيد المريني، وأوفد إليه سفارة متكونة، أساسا، من ابنه، والي بجاية الأمير أبي زكرياء، وأبي محمد عبد الله بن تافراكين، من مشيخة الموحدين، بصفته مستشارا ومفاوضا[2].

(*) هؤلاء هم عبد الحق بن محمد بن عبد الحق، الذي كان يطالب بالعرش المريني فلجأ إلى الحفصيين، ثم تركهم ولجأ إلى بني عبد الواد، وأخذ يحرضهم على غزو الحفصيين؛ وشيخ بن سليم حمزة بن عمر؛ (العبر، 6، ص 774 – 775).

(**) هو العامل الذي تركه السلطان اللحياني على طرابلس، عندما غادرها إلى الإسكندرية، فخاض عدة معارك، إلى جانب أبي ضربة وبني هلال، ضدّ السلطان أبي يحي أبي بكر، وأدى به الفشل، في نهاية الأمر، إلى اللجوء إلى تلمسان حيث احتضنه أبو تاشفين (العبر، 6، ص 775).

(1) Zerkechi: op.cit., P.100, note3.

(2) العبر، 6، ص 774 فما بعدها من عدة صفحات؛ Zerkechi: op.cit., PP.100 - 101.



وفي تلــك الأثناء تقدم المنتصــرون في معركة الرّيــاس إلى تونس، فاستولوا عليها. وهناك ســيطر القائد العبد الوادي سيطرة محكمة، على ابن أبي عمران، ثم تركه وعاد إلى تلمسان، في حين انتقل السلطان الحفصي من بجاية إلى قســنطينة حيث حشــد أنصاره وسار بهم إلى تونس فلم ينتظره بها أعداؤه. كما كُلّلت مهمة سفارته إلى أبي الحسن بنجــاح، حيث تم الاتفاق علــى محاربة العدوّ المشــترك والهجوم على عاصمته، تلمســان، فــي موعد ضبطوه، وتُوّجــت المعاهدة بعقد قرانٍ بين ابنة الســلطان الحفْصي، فاطمة، شقيقة الأمير أبي زكرياء، والي بجاية، وبين الأمير أبي الحســن بن السلطان أبي سعيد، وتمت عملية الزفاف سنة 731هـ./ 1331م[1].

وفي نفس تلك الســنة هلك الســلطان أبو ســعيد، وخلفــه ابنه أبو الحســن فراســل أبا تاشــفين في الكفّ عن محاربــة الحفصيين، ولما لم يتلق منه ردًا إيجابيا، شــن عليه حربا، دفاعا عنهم، ســنة 732هـ./ 1332م.، ولمــا وصل إلى تلمســان، انســحب جيش بني عبــد الواد من بجايــة وتوجه للدفاع عنها، وأخرج الســلطان أبو الحســن أســطولا، أبحــر من وهران إلــى بجاية، بقيادة محمد البطــوي، فدخلها وحظي باســتقبال رائع مــن أهلها و بينما كان الســلطان المريني ينتظر نظيره الحفصــي، في تاســالة، ليضربا، معا، حصارا على تلمســان، بلغه أن

1) العبر، 6، ص 776 – 777؛ قارن Zerkechi: op.cit., PP.101 - 102.

أخاه، السلطان أبا علي صاحب سجلماسة، قد ثار عليه، فكرّ راجعا إلى بلاده لإصلاح شؤونها[1].

أمّا السلطان الحفصي الذي خرج من تونس للإنضمام إليه، بحشوده العسكرية، فقد انتهى إلى بجاية وبعث مقدمات جيشه إلى ثغور (حصون) بني عبد الواد المحيطة بها، ثم صرف كل قوّاته إلى تيمززدكت، فلما وصلها وجدها خالية من حاميتها، فخربها وانتهب كل ما وجده فيها، من مال وسلاح، وبعد استرجاعه أعمال بجاية إليها، عرّج إلى المسيلة، وكان أبو تاشفين قد أقطع بلدَها، وجبل متنان ووانوغة، وجبل عياض، إلى أولاد سبّاع من الدواوده، مقابل تمسكهم بطاعته، وصيّروا كل تلك المناطق من أعمال المسيلة، فلما حلّ جيشه بها نهب نعمها وخرّب أسوارها، إلاّ أنه اضطر للعودة إلى تونس كي ينتزعها من عبد الواحد بن السلطان اللّحياني، الذي استولى عليها وهذا ما فعله، في نفس تلك السنة 732هـ./ 1331[2]م.

ولم تعرف بجاية بعد ذلك أحداثا تُذكر إلاّ بعد وفاة السلطان أبي يحي أبي بكر التي كانت سنة 747هـ./ 1346م.، في نفس السنة التي مات فيها واليها، ابنُه الأمير أبو زكرياء: فعندئذ أخذ حاجبه أبو محمد ابن تافراكين البيعة لابنه الأصغر، الأمير أبي حفص عمر، من مشيخة

---

(1) العبر، 6، ص 778 – 779؛ Zerkechi: op.cit., P.102.

(2) نفس المصدر، ص 780؛ Zerkechi: op.cit., P.103.



الموحديـن والمَوَالــي وطبقات الجنــد، ولمّا علم أخوه الأمير أبو العباس أحمــد، صاحــبُ أعمال الجريد بالأمــر، وكان أبوه قد ولاّه العهد ســنة 743هـ./ 1342 – 1343م.، دعا العرب إلى تأييده، فلما وافقوا زحف عليه بهــم، وعند وصوله القيروان انضم إليه أخوه أبو العباس، صاحب عمل سوسة، وجمع السلطان أبو حفص، من جهته، حشوده وخرج للقائه، غير أن حاجبه ابن تافراكين، أظهر أنّه رجع إلى تونس، عندما تراءى الجمعان المتحاربان بحجة أن له بها شغل، إلاّ أنه في واقع الأمر، نجا بنفسه إلى المغــرب(*). وقد نتج عن هذا الفرار، انهزام أبي حفْص واســتيلاء أخيه أبــي العباس على الحضرة لكنه لم يقض في قصره أكثر من ســبع ليال حتى اقتحمه عليه، بمساعدة جماعة من الغوغاء الذين أَلِفوا حياة اللهو والترف معه، ففتك به وبأخويه: خالد وعزّوز[1] وبهذا قدّم، في طبق من ذهب، إلى الســلطان المريني، أبي الحســن، ما كان يبحث عنه من حجة دبلوماسية للإستيلاء على إفريقية.

ذلك أنّ نفسَ هذا الأخير كانت تحدّثه بضمها إلى مملكته، وخاصة بعدما تمكّن من تلمســان يوم 27 رمضان 737هـ./ 1 مايو 1337م.، وقد عَدَل عن طموحاته في الأندلس، وركز اهتمامه على الناحية الشرقية

(*) يعود سبب فرار الحاجب ابن تافركين إلى كون بطانة السلطان كانوا يؤلبونه عليه، ويذكرونه بعلاقته به، أيام الســلطان أبيه، فخشــي الحاجب على نفسه، وأخذ يتحيّن الفرصة لتخليصها من بطشه المحتمل (العبر،6، ص 808).

1) العبر، 6، ص 807 فما بعدها من عدة صفحات؛ Zerkechi : op. cit. , P. 120 sq.

من بلاد المغرب، بعد الهزيمة التي ألحقتها قشتالة بأسطوله، أواخر سنة 740 هـ./ ربيع 1340م.، رغم إمداد السلطان الحفصي له بست عشرة قطعة بحرية، بقيادة زيد بن فرحون، قائد بحرية بجاية[1].

وعلى الرغم من هذا التوجّه الجديد فإن السلطان أبا الحسن عليّ، في رأي برنشفيك «عَامَلَ صهرَه (أبا يحي أبا بكر)، طوال حياته، معاملة حسنة، تُراعي كرامته وتجعله لا يحس كثيرا بالتبعية الأدبية، التي توصّل إلى فرضها عليه شيئا فشيئا»[2] بدليل أنه عندما عقد على ولاية عهده لابنه أبي العباس، أوفد حاجب هذا الأخير، أبا القاسم بن عَتّو بهدية، وحمل إليه «سِجل العهد...، وسأل منه أمضاه (إمضاءه) لمولاه (أبي العباس)، وكتاب (كتابة) ذلك بخطه، في سجله، فخطّه بيمينه وأحكم له عقده»[3].

فلما وصل السلطانَ المريني خبرُ مقتل أبي العباس وأخويه، غضِب لِمَا حدث من تراجع عمّا سبق وأن نال رضاه ووافق عليه بخط يده في سجلّه[4]، أي أنه وجد في هذه المسألة قميص عثمان، الذي أزاح من

(1) العبر، 6، ص 811؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 193 - 194.

(2) أنظر. برنشفيك، المرجع السابق، ص 193.

(3) العبر، 6، 811؛ op.cit., P.123: Zerkechi؛ أنظر برنشفيك، نفس المرجع، ص 194.

(4) نفسه؛ op.cit., P.123: Zerkech، أنظر برنشفيك المرجع السابق، ص 194؛ Féraud: P. 194 و op. cit.



طريقه العراقيل التي كانت تحُول دون توسـعّه شـرق بلاده، فآن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله.

وبعدما عقَد لابنه أبي عنان على ولاية المغرب الأوسط، أي تلمسان وأعمالها(1) ونظم صفوف جيشه بظاهر تلمسان، انطلق على رأسه في اتجاه الشـرق، في شهر صفر من سـنة 748هـ./ 1347م.، وانضمّ إليه، أثناء زحفه على تونس، عُمال ومشـائخ مناطق وقبائل كثيرة: من بينهم «صاحـب الزاب يوسـف بن منصور بن مزني...، (فلقيه) ببني حسـن مـن أعمال بجاية»(2) فعقد لكل منهم على بَلـده وعَمَله «وبعث مع أهل الجزائر الولاة للجباية»(3) تحت إشراف مسعود بن إبراهيم اليرنياني، ثم واصل طريقه إلى أن أطل على بجاية، فتردّد أهلها في مبايعته، أوّل الأمر، ثم أنابوا عنهم أميرها، أبا عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء، فقـدّم له طاعته، وفي المقابل نقله السـلطان إلى ندرومة، مع إخوانه، حيـث أقطعه ما يكفيه للعيش من جبايتها، ووّلى على بجاية عمالا من رجالـه. ثم زحف على قسـنطينة، فخرج إليه أبنـاء أميرها، أبي عبد اللـه، يتقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد فأتوه طاعتهم، ونقلهم بدورهم، إلى وَجْدة، وأقطعهم جبايتها، وولى على قسـنطينة رجالا ينتمون إليه

(1) Zerkechi: op.cit., P.123.

(2) العبـر، 6، ص 812؛ تـقـع بنـو حسـين علـى الطريـق، بـين بجـايـة وأصفـون (Féraud: op.cit., P.194, note1).

(3) العبر، 6، ص 812.

ولـم يجد ما يمنعه، بعد ذلك، من الاســتيلاء على تونس التي فرّ منها السلطان أبو حفص، لكنّ فِرقةً من الجيش المريني تمكّنت منه وقتلته، بالقرب من قابس، ودخل السلطان المريني تونس منتصرا، في جمادى الآخرة من سنته[1]، سبتمبر 1347م.، وتم له، بذلك، القضاء على الدولة الحفصية التي لم يبق منها «إلاّ ذُبالا في بونة»[2]، أي «شــرارة ضعيفة، بقيــت منها بارقةُ في بونة»[3] ويتعلق الأمر بوالي عنابة، الأمير الفضل ابن السلطان أبي بكر. وكان والده قد أوفده إلى بلاطه في موكب أخته عزونــة، التي زُفّت إليه بعد وفاة أختها فاطمة التي كانت في عصمته، وقبل وصوله إلى تلمسان، مقرّ صهره بلغه خبر وفاة والده، في 2 رجب 747هــ./19 أكتوبر 1346م.، ومراعاةً لتلــك الوفادة والصهارة، عقد له على بونة، أي أبقاه في منصبه[4].

استعادة الأمير أبي عبد الله محمد لولاية بجاية.

لـمّا اســتقرّ أبو الحســن في حضرتــه الجديدة، شــرع في إصدار قــرارات حكيمــة، ومن بينها واحــد يقضي بإلغاء الإتــاوات التي تعوّد الأعرابُ الرُّحل اســتخلاصها من الســكان الحضر، المقيمين في مدن

(1) نفسه، ص 812 فما بعدها؛ Zerkechi: op. cit., P. 124 sq؛ Féraud: op. cit., P. 195.

(2) العبر، 6، ص 814.

(3) Féraud: op. cit., P. 195.

(4) العبر، 6، ص 814؛ Féraud: op. cit., P. 195.



إفريقية وأريافها، حسب العُرف المعمول بـه، منذ امتلاكها إقطاعات حكومية، ممّا تسبب في إزعاجهم فراحوا يوحّدون صفوفهم من أجل الثورة عليه، لغرض الحفاظ على امتيازهم واتفقوا، في نهاية المطاف، على مبايعة أحمد بن عثمان بن أبي دبّوس، آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، وكان محْترفا بالخياطة في توزر، وجهّزوا له جيشا اشتبك بـه، مع الجيش الذي أخرجه إليه أبو الحسن من تونس، أيام الحج، من سنة 748هـ./ 1348م.، بالثنية: في منتصف الطريق بين تونس والقيروان، فهُزم لكنه سرعان ما أعاد تجميع صفوفه، ورجع إلى عدوّه في 2 محرم 749هـ./إبريل 1348م.، فتصادم معه، مرّة ثانية قرب القيروان، وهزمه ولم ينجُ من الهلاك إلاّ بأعجوبة، وانتهى به المطاف إلى تونس[1].

وكانت نتائج هذه الهزيمة وخيمة على أبي الحسن، إذ جرّدته نهائيا من هيبته السياسية والعسكرية: فقد كان من العادة بالمغرب، أن يفد عليه، نهاية كل سنة، عُمّاله بموارد جبايتهم والمحاسبة على أعمالهم؛ وفي تلك السنة (749هـ) قدموا إليه من مختلف أنحاء البلاد، ومعهم ابن مُزني عامل الزاب، بهديته وجبايته، والتقى جميع هؤلاء بقسنطينة، وهناك علموا بالهزيمة التي تكبّدها السلطان، فاضطربت أمورهم، وتطلع السّفهاء من الغوغاء إلى أخذ ما بأيديهم، وخشي أهل البلد

(1) العبر، 6، ص 815 فما بعدها؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 198 – 199.



علــى أنفســهم، وعمدوا إلى اســتدعاء أبي العبــاس الفضل من عمله ببونة، فلم يتأخر عن تلبية طلبهم، فدخل المدينة، وأعاد إليها ما ذهب من ســلطان قومه، ثم رحل إلى بجاية لِمَا أنس من تقبّل أهلها للدعوة الحفصيــة، وبمجرد ما أطل عليها، ثار ســكانها على عمّالها المرنيين، واســتباحوهم، فلم يفلتوا منهم إلاّ برقابهــم، ودخل الفضل إلى بجاية واســتولى على كرســيّ مُلكها، ونظّمها مع قســنطينة وبونة في ملكه. وأعاد ألقاب الخلافة ورســومها كما كانت، واعتــزم على الرحيل إلى الحضــرة؛ وبينما هو يحدّث نفســه بذلك، وصل الخبــر بقدوم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب[1].

حدث ذلك بعدما أُشيع خبرُ موت أبي الحسن، قرب القيروان، وكُتب فيــه عقدٌ وقّعه عدد من المرنيين، ممّا جعل ابنه أبا عنّان، والي المغرب الأوسط، يطالب بالعرش وتمت بيعته بتلمسان، في بداية عام 749هـ./ 1 إبريــل 1348م.. ثم انتقل بعدها إلى فــاس، وهناك اطّلع على حقيقة مــا جرى[2] لكنه لم يتراجــع عمّا اتخذه من إجراءات، خشــية تعرّضه لعقاب نتيجة ســلوكه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك: إذ سَــرّح الأمير أبا عبد الله محمد الخطي، ابن الأمير أبي زكرياء الثاني، صاحب بجاية،

(1) العبر، 6، ص 821 – 822؛ Féraud: P. 196 , op. cit.؛ بالنسبة للزركشي فإن الفضل هو الذي بادر بمراسلة سكان قســنطينة ليخبرهم أنه قادم إليهم ثم حاصرهم واقتحم مدينتهم في 1 محرم 749هـ/ 31 مارس 1348م. (Zerkechi : P.131 ,op.cit.).

(2) Zerkechi: PP. 130 – 131 , op. cit.



ليستردّ عمله، وأمدّه بالأموال، شريطة أن يتصدى لأبيه السلطان ويمنعه من المرور إليه عن طريق بلاده؛ وقد أسرع أبو عبد الله إلى ولايته السابقة، ولما وصلها وجدها في قبضة عمه الفضل، فضرب عليه حصارا، طال أمده، إلى أن تمكن مولاه وكافلهُ فارح، من استمالة بعض الأنصار من غَوغاء المدينة، مقابل أموال سرّبها لهم، ففتحوا له، بابا من أبوابها، وهو باب البرّ(*) في إحدى ليالي رمضان من سنة 749 هـ./ يناير1349م.، فاقتحمها غيلة على عمه، الذي حاول الفرار، لكنه لم يستطع، إذ أُلقي عليه القبض وجيء به إليه فمنّ عليه بإطلاق سراحه وإرساله في سفينة إلى بلاده بونة، في شوال من نفس العام[1].

وفي نفس ذلك الوقت تمكن المولى نبيل المعلوجي من استرجاع قسنطينة من العامل الذي تركه الفضل بها، وأقام بها الدعوة لأبي زيد ابن أميرها السابق أبي عبد الله، وكان الأمير أبو عنان اصطحبه معه، عند انتقاله من تلمسان إلى فاس، هو وأخوته، ومن هناك سرّحهم إلى إمارتهم بقسنطينة، بعدما أخذ عليهم عهدًا مشابها للعهد الذي أخذه على ابن عمّهم، أمير بجاية، أي أنهم تعهّدوا له بمنع والده من اجتياز أرضهم إليه. ووصل هؤلاء الإخوة إلى قسنطينة، بعد نبيل، واستعاد أبو زيد إمارته فيها. واستقل كلّ واحد من الأمراء الحَفصيين الثلاثة

(*) كان هذا الباب يفتح فوق جبل خليفة، قرب الممرّ الذي كان يؤدي إلى قلعة Clauzel في بداية الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر (أنظر: Féraud :op.cit., P.197note1).

(1) العبر، 6، ص 822 فما بعدها؛ Zerkechi :op.cit., PP.132 - 33؛ Féraud : op.cit., PP.197-98.



بإمارتـه: أحدهم في بجاية، والثاني في قسـنطينة، والثالث في بونة، حدث كلّ هذا قبل أن يغادر السلطان أبو الحسن تونس[1].

وقد اضطر هذا الأخير إلى مغادرتها، في بداية شوال سنة 750هـ./ أواخر ديسـمبر 1349م.، بعدما قامت ضده ثورات، في مختلف أنحاء إفريقية، وبعد خمسـة أيام من إبحاره، دفعته ضرورةُ التزَوّد بالماء إلى الإرسـاء في ميناء بجاية، غير أن أميرهـا، أبا عبد الله محمد، حاول منع نزوله وأمر أهل سـواحله بعدم تزويده بالماء والأقوات، وفاءً للعهد الذي قطعة على نفسـه مع أبي عنّان، إلاّ أنّ أبا الحسـن ومَن كان معه أخـذوا، عُنـوة، احتياجهم من الماء ثم أبحروا، مـرّة أخرى، لكنّ الرياح بعثرت قطع أسطولهم وتحطمت السفينة التي كان السلطان على متنها على صخرة من ساحل بجاية، غير بعيد عن الشاطئ، فتشبّث بها وكاد يهلك، وشـاء القدر أن يَأتـي مركبٌ لإنقاذه، ثم مكّنه تحسـن الأحوال الجويـة من الوصـول إلى الجزائر، وكانت تابعة لـه، قبل ذلك، فمكث فيهـا بعض الوقت حتى التقط أنفاسـه، وغادرها بعد ذلك، إلى جبال الأطلس الكبير حيث توفي بعد حوالي سنة ونصف، في جمادى الثاني 752هـ./ 1351م.، بعدما خاض معارك كثيرة ضدّ ابنه أبي عنان[2].

---

(1) العبر، 6، ص 823 – 824؛ Féraud :op.cit., PP.197 - 98.

(2) قـارن، العبـر، 6، ص 831؛ Zerkechi :op.cit., PP.136 sq؛ أنظـر برنشـفيك: المرجـع السابق، ص 201.



تنازل الأمير أبي عبد الله محمد على بجاية لأبي عنّان المريني.

وما تجدر ملاحظته على ما جرى آنذاك، من الأحداث التي نشّـطها المتنافسُـون على وراثة العرش الحَفصي، أن المصادر لا تشـير إلى وجود أمير بجاية، أبي عبد الله محمد، بينهم، سوى مرّة واحدة، وفي إطار آخر تقريبا، إذ أغار على قسنطينة التي تُركت لنفسها، فحاصر حاميتها وزحف على جهاتها، فأتلف زروعها وهاجم سـهولها، ولم يَعُد إلى مدينته، تفاديا للصدام مع المرينيين الذين قاموا بحملة، آنذاك؛ على المغرب الأوسط وقد قام أبو عبد الله بغارته تلك، بإيعاز وإمداد ابن تافراكين، حاجب السلطان أبي إسحاق إبراهيم، والذي أيّده بعض الأعراب وعارضه بعضهم الآخر، وعلى رأسـهم أبو العباس بن مكي الذي بايع أبا زيد، صاحب قسـنطينة، وتولى حجابته، وخاض هذان الطرفان المتصارعان على العرش الحفصي عدة معـارك، كان النصر فيها لصالح أنصار أبي زيد الذين كانوا ينهبون الأموال في المناطق المحصورة ما بين تونس وأُبّة، قرب الأربس، كما حدث سنة 752هـ./ 1351م.[1]، فكان من الطبيعي أن يلجأ ابن تافراكين إلى من بإمكانه أن يُخفّف الضغط عنه ويشتت جهد خصومه، وقد وجد ذلك في شخص أمير بجاية، أبي عبد الله الذي لبّى طلبه، لكنه اضطر أن يعود إلى مدينته أمام الزّحف المريني.

---

1) قارن، العبر، 6، ص 828 – 829؛ Zerkechi: op.cit., P.144.

وكان أبـو عنّـان، عندما أخذ البيعة لنفسـه، في تلمسـان، وانتقل إلى فاس، بالمغرب الأقصى في بداية سـنة 749هـ./1إبريل1348م.، عقد على ولايـة تلمسـان لعثمان بن يحي بن محمـد بن جرّار، من بنـي عبد الواد، فأخذ لنفسـه البيعة وأعاد حكم قومه في تلك البلاد. وكانت بتونس، مع السـلطان أبي الحسن، فرقة عسكرية من بني عبد الواد، تَداول أفرادُها، بعد الأحداث التي كان القيروان مسرحا لها، واتفقوا على مبايعة عثمان بن عبد الرّحمن بن يحي بن يَغْمُراسن بن زيان، ثم ساروا إلى تلمسان حيث ثار السكان على المغتصب الذي سلّم لهم المدينة، وأُودع السجن إلى أن مات[1].

وفي سـنة 753هـ./ 1351 – 1352م.، قام السـلطان أبو عنان بحملة على المغرب الأوسط، أوقع فيها ببني عبد الواد واستولى على بلادهم، ونجـا بعضهم إلى بجاية، فأوّعز إلى أميرها، أبي عبد الله، بأسـرهم فلبي طلبه(*)، وتمكّن من إلقاء القبض على عدد من أمرائهم، فأوثقهم وبعـث بهم إلى صديقه[2] الذي أخرج جيشـا أو خرج هو نفسـه، على

---

(1) Zerkechi: op.cit., P.131.

(*) وكانـت تربطهما صداقة، عندما أقام هذا الأخيـر بندرومة، أيام ولاية أبي عنان على تلمسـان، مما قرّب المسافة بينهما، وبفضل ذلك وجد أبو عبد الله سبيل العودة إلى مُلكه (العبر، 6، ص 831).

(2) العبـر، 6، ص 831 – 832؛ Zerkechi: op. cit., PP. 145 – 146؛ يفيد الزركشـي أن أبا عبد الله هو الذي أخذ هؤلاء الأسرى إلى أبي عنّان، فقابله خارج المدية، فشكره وعاد بهم إلى تلمسان حيث قتل منهم أبا ثابت الزعيم ووزيره وأودع السجن أبا زياد محمد (op. cit., P. 146)؛ أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 206 – 207.



رأسه، للاستيلاء على الثغور وتوسيع حدود دولته: فاستولى على الجزائر ومليانة والمدية[1].

ولما سافر أبو عبد الله إلى أبي عنّان، أثناء تلك الحملة أو بعدها، حظي باستقبال رائع لكن أبا عنّان دسّ إليه من أقنعه بالتنازل عن بجاية في مقابل إقطاعه مكناسة المغرب، زيادة عما سيجد لدى السلطان من الاحترام والتقدير، فما كان عليه إلاّ الموافقة «على اليأس والكره»[2]، وشهد مجلس أبي عنان على رغبته في ذلك، وتمت إجراءات ذلك التغيير، إلاّ أن السلطان المريني قام، بعد أيام قليلة بنقله إلى «المغرب» أي إلى فاس «بأهله وولده»[3] دون استشارته هذه المرة، أي أنه وضعه تحت الإقامة الجبرية.

بجاية قاعدة انطلاق عمليات المرينيين على قسنطينة.

عقد أبو عنان على بجاية، لعُمر بن علي بن الوزير، من بني واطاس[4] أو عمر بن عليّ بن الوزير بن أبي واطاس[5]، لِمَا كان من صلة، بين نسبه ونسب سكانها الصنهاجيين، فانتقل إليها من المدية[6]، غير أن «أولياء

---

1) قارن: العبر، 6، 832؛ Zerkechi. op. cit., PP. 145 – 46.

2) العبر، 6، ص 832؛ Zerkechi: op. cit., P. 146؛ Féraud: op.cit., P.198.

3) العبر، 6، ص 832، قارن Zerkechi: op.cit., P.146.

4) العبر، 6، ص 832.

5) Zerkechi: op.cit., P.146.

6) المرية (في نص ابن خلدون، ص 832) والصواب هو المدية.



الدعــوة الحفصية بها، مــن صنهاجة والموالي»[1] وعلى رأســهم زعيم صنهاجــة منصور بن إبراهيم بن الحــاج، وربما بإيعاز من فارح، مولى الأمير أبي عبد الله، هاجموه، بمقره في القصبة وأجهزوا عليه بمعية القاضــي ابن فركان، ولما اتصل خبر ذلك بفارح انتقل إلى عين المكان، وتبادل الناس الرأي، في شــأن استدعاء صاحب قسنطينة محمد بن أبي زيد، لتولية أمورهم، وبعثوا يستحثونه للقدوم عليهم، وبعد انتظار عدّة أيــام، «تآمر الملأ من أهل بجاية» أي اتفق أعيانها على التمســك بدعوة صاحب المغرب، خوفا من ردّ فعله، فثاروا على فارح وقتلوه، أيام التشريق من سنة 753هـ./ حوالي منتصف يناير1353م.، وبعثوا برأسه إلى الســلطان المريني بتلمسان، وفي انتظار قراره بادروا إلى استقدام عاملــه المرينــي على تَدّلس، وهــو يحي بن عمر بن عبد المؤمن، لســدّ الفراغ إلى أن ســرح إليها أبو عنان حاجبه، أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو، فدخلها فاتح سنة 754هـ./ فبراير 1353م[2].

وعندئذ فــرّت منها صنهاجة والتحق كبراؤها، ومن ثاروا منها ضد بني مرين، بتونس وتقبّض الحاجب على مَن شــك في حســن نواياهم، من أعيان المدينــة ومحرّكي الغوغاء، من أهلها، فنقلهم إلى المغرب أي فــاس، ثم صرف نظــره إلى إعادة تنظيم أمور البلاّد، فراح يســتدعي

(1) العبر، 6، ص 832.

(2) العبر، 6، ص 832؛ أنظر: Féraud : op.cit., PP.199 - 200.



كبراء العرب وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسنطينة فلما وفدوا عليه(*)، عاد بهم إلى المغرب برفقة أبنائهم ليتركوهم كرهائن، يضمنون بهم ولاءهم للدولة؛ وعند وصولهم إلى البلاط جلس لهم السلطان جلوسا فخما، ووزع عليهم هدايا معتبرة، وقدّم لهم عقودًا، مُنحت لهم بموجبها إقطاعات؛ وأخذ منهم، في المقابل، تعهداتهم ومواثيقهم على طاعته، ثم تركوا رهائنهم، قبل عودتهم إلى مواطنهم[1].

ويبدو أن أبا عنان استعمل على بجاية، أثناء انشغال حاجبه بمهمته هذه، الوزير موسى بن إبراهيم اليرنياني، ولما تمت المهمة بنجاح، عقد عليها وعلى أعمالها لنفس الحاجب وردّه إليها، مع تكليفه بمهمة أخرى ألاَ وهي محاربة قسنطينة، وكان ذلك في شهر رجب من نفس العام[2] (754هـ./ 1353م)؛ وأوعز السلطان، في آن واحد، إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش، والنزول ببني باورار (ياورار)، آخر عمل بجاية، في كتيبة جهّزها هنالك لمضايقة قسنطينة، وجباية مناطقها تحت إشراف الحاجب ببجاية، فلما نفّذ موسى رغبة السلطان، وهدّد الجيش المريني سكان قسنطينة بالحرب والحصار، خرج نبيل حاجبُ أميرهم، أبي زيد، إلى أهل ضاحية بونة ومن كانوا على طاعته من قبائل سدويكش

(*) كان من بين الوافدين إليه: يوسف بن مُزني، صاحب الزاب، وشيوخ الدواودة (العبر، 6، ص 833).

1- العبر، 6، ص 833 – 834؛ Féraud :op.cit., P.200.

2- العبر، 6، ص 234؛ Féraud :op.cit., P.200.

والـدواوة فجمعهم وزحف بهم إلـى أرض بجاية، حينئذ، بعث الحاجب ببجاية يستقدم أنصاره الدواودة، في مشاتيهم الصحراوية، فلما أتوه تحرك إلى أعدائه، ربيع سنة 755هـ./ 1354م.، وحاول نبيل الحاجب اعتراض طريقه، فهزمه إلى قسنطينة فإلى ميلة وأخيرا عقد الطرفان صلحا بينهما. فانتهز حاجب بجاية الفرصة وقام بتفقد نواحي أعماله فوصل إلى المسيلة، وبعدما جبى مغارمها انكفأ راجعا إلى مقر ولايته حيث أدركته المنية بداية سنة 756هـ./ 1356م[1].

وكان صاحب قسنطينة، الأمير أبو زيد استدعى أخاه أبا العَباس، الذي سبق وأن استعمله على أولاد مهلهل، وحاجبه أبا العباس بن مكي سنة 753هـ./ 1351 – 1352م.، لمحاولة الاستيلاء على تونس. وقد قدم أبو العباس على أخيه بأنصاره من أولاد مهلهل، بقيادة شيخهم خالد، وتبادل أبو زيد الدور مع أخيه، حيث ذهب هو مع خالد لمنازلة تونس، واستخلف أبا العباس على قسنطينة، فأقام بها مدّة، وعساكرُ بني مرين تملأ ضاحيتها، ورأى أولياؤه أنه جدير بحمايتها منهم، فبايعوه سنة 755هـ./ 1354م[2].

وعقد السلطان المريني على بجاية وأعمالها، بعد الحاجب المتوفى، لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد، فلما حلّ بها زحف إلى قسنطينة

(1) العبر، 6، ص 834 – 835.

(2) نفس المصدر، ص 288؛ فما بعدها.



وَامتنعت عليه، فرجع إلى مقرّ عمله، وفي العام الموالي، سنة 757هـ./ 1357م.، أعاد محاولته ونصب عليها المجانيق، فامتنعت عليه، مرّة أخرى، ثم أشيع في معسكره خبر موت السلطان أبي عنان، فتفرّق مقاتلوه، وأحرق مجانيقه قبل عودته إلى بجاية حيث أخذ يجهّز جيشا في بني باورار بقيادة موسى بن إبراهيم اليرنياني، عامل سدويكش[1].

ولمّا تنفّس مخنق الحصار عن قسنطينة، حاول أميرها الأوّل، أبو زيد، العودة إليها بعد فشله في الاستيلاء على تونس، فوجد أخاه أبا العباس قد استبد بها، فعَدَل عنها إلى بونة حيث راسل ابن تافراكين، خصمه على تونس، وطلب منه السماح له بالإقامة في الحضرة، مقابل تنازله له عن بونة، فَقَبِل ابن تافراكين، ونُفّذ الاتفاق؛ ثم إن الكفاءة الدفاعية التي أظهرها السلطان أبو العباس جعلت أولاد المهدي بن يوسف، من قبيلة سدويكش، يحرّضونه على غزو موسى بن إبراهيم المعسّكر ببني بَاورار، فوافقهم وأخرج معهم جيشا بقيادة أخيه أبي

(1) العبر، 6، ص 835؛ فما بعدها من عدة صفحات؛ حسب الزركشي فإن أبا عنّان عقد على بجاية إلى وزيره عبد الله بن علي، بداية سنة 755هـ./ يناير1354م؛ (op.cit., PP.146 - 147)؛ ويذكر صاحب نفس المصدر، في مكان آخر، أن والي بجاية هذا، حاصر قسنطينة سنة 757هـ./ 1356م.، رغم مقاومتها له، لدرجة جعلت أبا زيد، قائدها، يبحث عن وسيلة تخلصه من صرامة الحصار، والفرار إلى الصحراء أو غيرها (op.cit., P.148)؛ وينسب Féraud أحداث هذين الحصارين الفاشلين إلى حاجب بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو، وهو ما لا يتفق مع نص ابن خلدون الذي اعتمد عليه في ذلك (أنظر: op.cit., PP.201 - 202).

يحي زكرياء، فقاموا بهجوم مفاجئ على معسكر موسى وكبدّوه هزيمة نكراء، وأصيب هو نفسه بجروح بليغة، ولُوحق أنصاره بالقتل والنهب، ولجأ الناجون منهم إلى بجاية، ومنها إلى فاس[1].

وقد أورد الزركشي رواية أخرى لسير تلك الأحداث، مفادها: أن شائعة بموت السلطان المريني، انتشرت، في نهاية سنة 757هـ./ 1356م.، تقريبا، بمعسكر المحاصرين، في حين أنه كان مريضا فقط. ويعود أصل تلك الإشاعة إلى أن الوزير عبد الله بن عليّ ابتعد عن قسنطينة ليُعسكر في وادي القُطن حيث جاءه فارس برسالة من أبي عنّان يأمره فيها بالعودة إلى بجاية، فأحرق المجانيق والآلات الثقيلة الأخرى، قبل انسحابه. وعند علْم أبي العباس بما جرى، جهّز فرقة من الجيش، بالتنسيق مع بني يوسف وسكان تلك الجهة، فنظموا هجوما ليليا، في ذي الحجة 757هـ./ ديسمبر 1356م.، وانكبّ المحاصِرون على النهب، وأَجْبَروا الفرسان على الفرار، وقتلوا وَلدَيْن لموسى بن إبراهيم، وجُرح الوزير نفسه، ففرّ إلى المغرب[2].

واللاّفت حسب هذه الرواية الأخيرة أن الوزير عبد الله بن علي، والي بجاية شارك في هذا الحصار، إلى جانب عامل سدويكش موسى ابن إبراهيم، وهو الذي جُرحَ في ذلك الهجوم الليلي، في حين أنه،

---

(1) العبر، 6، ص 840 – 841؛ أنظر Féraud: op.cit., P.201.

(2) Zerkechi: op.cit., PP.150 - 151.



حسب الرواية الأولى، رواية ابن خلدون، المعاصر لتلك الأحداث، لم يشارك فيها، ولم يغادر مدينته ولم يُصب بأي أذًى وإنما الذي أصابتهُ جراح هو موسى بن إبراهيم، وهو الذي سافر إلى أبي عنّان «وشكى له... بقعود عبد الله بن علي... عن نصره، فسخطه ونكبه، وعقد مكانه ليحي بن ميمون بن مصمود»[1].

استقلال بجاية عن المرينيين.

أثارت نتائج هذه المعركة حفيظة أبي عنان، فجهّز جيشا جعل على مقدمته وزيره فارس بن ميمون وزحف على إثره سنة 758هـ./ 1357م، إلى قسنطينة فحاصرها، واستولى عليها، بعدما أمّن سلطانها أبا العباس، ثم أرسلهُ في سفينة إلى سبتة، حيث أقام تحت الحراسة مع أعيان مدينته[2]. وعقد على قسنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني يابان، وراسل كُلاّ من بونة وتونس، فدخلت الأولى في طاعته ورفضتها الثانية، فرماها بجيشَيْن: بريّ وبحريّ، فتمكنا منها، وفر حاكمها، الحاجب أبو محمد بن تافراكين إلى المهدية، في رمضان 758هـ./ 1357م.، لكن شيخ الدواودة، يعقوب بن علي، سُرعان ما أعلن ثورة ضد أبي عنان، بحجة أنه أساء معاملة العرب، بمطالبتهم بالرهن ومنعهم من تحصيل الإتاوات التي تعوّدوا الاستفادة بها، ولما قصده

(1) العبر، 6، ص 841.

(2) العبر، 6، ص 841 – 842؛ .Zerkechi: op.cit., PP.151 - 152

السلطان المريني سار أمامه إلى الصحراء، فعجز عن ملاحقته وعاد إلى قسنطينة، ومنها حاول التوجه نحو تونس. ولما علم أصحابه أن سلطانها السابق أبا إسحاق، ومن معه من العرب، يستعدون لاعتراض طريقهم، أخذوا يَنْفَضون مِن حوله، ويتسلّلون إلى المغرب، فلما تبيّن له أن عددهم تقلص، إلى حد كبير، لحق بهم هو الآخر[1]، وبعدما استراح بقية سنة 758هـ.، أخرج حملة عسكرية بقيادة وزيره سليمان ابن داود، وانضمت إليه قبائل الدواودة وأولاد سبّاع، ويوسف بن مزني، عامل الزاب، فسار في نواحي قسنطينة، وانتهى إلى آخر منطقة بونة، فاقتضى المغارم وانكفأ راجعا إلى المغرب، وبعد ذلك مباشرة هلك سنةَ 759هـ./ 1358م[2].

والملاحظ أن المصادر لا تشير إلى أي دور لبجاية، في أحداث هاتين الحملتين الأخيرتين، بل إن سكانها كانوا يعانون، خلال تلك الفترة، من تعسّف وقسوة واليها يحي بن ميمون عليهم، وكان مقربا من السلطان أبي عنّان، فانتهزوا فرصة وفاة هذا الأخير، واتصلوا بحاجب تونس، أبي محمد بن تافراكين، طالبين منه أن ينقضّ عليه، فلبّى طلبهم بتجهيز جيش بقيادة السلطان أبي إسحاق، ورفقة ابنه أبي عبد الله، أي ابن الحاجب، وانضم إليه شيخ الدواودة، يعقوب بن علي

(1) العبر،6، 842 – 843؛ Zerkechi: op.cit., PP.153 - 154.

(2) نفس المصدر، ص 846.



واتجـه الجميع إلى بجايـة فلما أطلوا عليها، ثـار الغوغاء على الوالي الطاغية، وألقوا القبض عليه وعلى من كان معه من قومه، وشحنوهُ في سـفينة إلى تونس[1]. أو أن سلطان تونس، أبا إسحاق، قام بحملة على قسـنطينة التي كانت في قبضة المرينيين، فحاصرها مدّة ثم اتجه إلى بجاية، فثار سـكانها على يحي بن ميمون الذي أُرسل مقيّدا في البحر إلى تونس حيث أُودع السّجن[2].

أبو عبد الله محمد يَستعيد إمارة بجاية من عمّه أبي إسحاق.

دخل السـلطان أبو إسـحاق بجاية سـنة 761هـ./ 1359 – 1360م.، وكانت سـلطته بها نسبية، لأن حاجبه وكافله، ابن تافراكين، كان يسيّر له أموره من تونس، عن طريق ابنه أبي عبد الله، في بداية الأمر، لكن الحاجب سحب، بعد ذلك، ابنه إلى الحضرة، وعيّن أبا محمد بن عبد الواحد وزيرا للسـلطان، وكان يقوم بمهام الحاجب لديه، وقد اعتمد، في تسـيير شـؤون البلد على عليّ بن صالح، وهو مـن منحرفي أبناء بجاية، واسـتعان في القيام بمهمته بأشرارها ودعّارها، فأصبحت له بهم نفوذ، سيطر بها على الدولة[3].

1) العبر، 6، ص 846 – 847؛ Féraud: op.cit., P.202.

2) Zerkechi: op.cit., P.157.

3) العبر، 6، ص 847؛ Féraud: op.cit., P.202.

أمّا أمير بجاية السابق، أبو عبد الله محمد، الذي فَرض عليه أبو عنّان إقامة جبرية بفاس، فقد تقبض عليه، بعد وفاة هذا الأخير، وزيرُه الحسن ابن عمر، الذي نصّب ابنه محمد السعيد للأمر واعتقله، حذرا من قيامه باستعادة عمله، وكان يبغضه، ولمّا آل أمر بني مرين إلى السلطان أبي سالم(*) سّرحه من اعتقاله، ثمّ استعاد سيطرة دولته على تلمسان والمغرب الأوسط: وعلم حينئذ بثورة أهل بجاية على عاملهم، يحي بن ميمون ورجالات قبيلتهم، فامتعض لذلك، وعند عودته إلى المغرب (فاس)، اتخذ قرار التخلي عن الأعمال الشرقية: فتنازل للسلطان أبي العباس عن قسنطينة، إمارته السابقة، وبعث أمرًا إلى عاملها، منصُور بن خلوف، بالتخلي له عنها[1]، ولما سرّحه إليها سرّح معه ابن عمه الأمير أبي عبد الله ليسترد إمارته، بجاية، من عمه أبي إسحاق، انتقاما منه ممّا فعله بالمرينيين، أثناء استيلائه عليها. وسار الأميران، معًا، من فاس نحو بلديْهما، في جمادى من سنة 761هـ./ 1360م.، وفي حين استعاد أبو العباس إمارته بسهولة، من عاملها المريني منصور بن خلوف، الذي طبق أوامر سلطانه، فدخلها في شهر رمضان من نفس العام، فإنّ مهمة الأمير أبي عبد الله في بجاية كانت أكثر تعقيدًا[2].

(*) قام بأمر المرينيين، بعد وفاة أبي عنّان، وزيره الحسن بن عمر، ونصّب ابنه محمد السعيد للأمر ثم قفز على ملكهم أحد المطالبين، به وهو منصور بن سليمان وآل، أخيرا، إلى السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن، الذي عبر من الأندلس للمطالبة بحقه فيه (العبر، 6، ص 851؛ op.cit., P.157 sq: Zerkechi).

(1) ابن خلدون، 6، ص 851؛ op.cit., P.159: Zerkechi.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 852.



ذلك أن هذا الأخير اتصل، بعد دخول حدودها، بأولاد سبّاع، وهم من الدواودة المنتشرين في ضواحيها وصحراتها واستعان بهم في حصارها، دون جدوى، فرحل عنها إلى بني بَاوْرار، وحاول استخدام بعض فروع سدويكش في قضيته، إلاّ أنهم فضلوا الوقوف إلى جانب عمّه، فاضطر أن يلجأ إلى الصحراء، مع الدواودة، وقد لقي عناية كبيرة من هؤلاء: إذ تكفلوا بنفقة عياله، ومؤنة حشمه، وأنزلوه ببلد المسيلة التابع لهم، وتغاضوا له عن جبايتهم، وبقي على هذه الحال خمس سنوات، وهو يكرر سنويا محاولاته الفاشلة لاستعادة مدينته؛ وفي السنة الخامسة، ربما في نهايتها، تحوّل إلى فرع آخر، من الدّواودة، هو فرع أولاد علي ابن أحمد، ونزل على شيخه يعقوب بن عليّ، بمقرّة من بلاده؛ وقد أبدا أبُو إسْحاق رأيه في الالتحاق بتونس، بناءً على معلومات جعلته يتوقع مهلك حاجبه وكافله ابن تافراكين لكنه بقي مترددا، لأنها غير مؤكدة، وفي حالة زيفها، ستكون نتائج سفره وخيمة عليه. وكان انتشار خبر هذا الرأي كافيا لانحراف سكان المدينة عنه ومبادرتهم بدعوة أميرهم الأقدم، أبي عبد الله، ليأتيهم من مقرَّةَ، وأخذ له يعقوبُ بن عليّ العهدَ على رجال سدويكش المنتشرين في ضواحيها، فتقدّم إليها، وحاصرها عدة أيام، وفي تلك الأثناء تأكد الغوغاء، من أنصار أبي إسحاق، من عزمه على التخلي عنهم، فانفضوا من حول عريفهم، علي بن صالح، وانضموا إلى الأمير أبي عبد الله، بالرّسة، من ساحة البَلد، ثم قادوا إليه ابن عمّه، فعفى عنه، وخلى سبيله إلى حضرته، فلحق بها، واستولى



هو على بجاية، في رمضان عـام 765هـ./ جوان 1365م.، ثم قضى على عرفاء الغوغاء، أصحاب الفتنة، واستولى على أموالهم[1].

استيلاء سلطان قسنطينة أبي العباس على بجاية.

بعد شهرين من استقراره في بجاية، نهض أبو عبد الله إلى تدلس (دلّس)، وكانَ عمر بن موسى، عامل بني عبد الواد، قد غلب عليها، فتَملّكها، في آخر سـنة 765هـ./ 1364م.، وحينئذ اتصـل بالمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي كان مقيما بالأندلس، عند السـلطان أبي عبد اللـه بن الحجاج بن الأحمر، واستدعاه فلما امتثل لاستدعائه، وعَبَر البحر إليه، في جمادى سنة 766هـ./ 1365م.، قلّده حجابته، ودفع إليه أمور دولته، فقام بتلك المهمّة على أحسـن وجه[2] لكن الأمير أبا عبد الله، سرعان ما تنكر لرعيته فأساء معاملتها، ممّا جعل قلوبها تميل إلى ابن عمه، السـلطان أبي العباس، بقسنطينة، لأنه كان ألْيق للحكم وأكثر استقامة منه. وكانت بينهما نِزاعات، على حدود إمارتيهما، موروثة عن أبويْهما، وكانت لأبي العباس مآخذ على سلوك ابن عمه، أيّام كانا نزيلين على السلطان المريني أبي سالم، حتى أنه حاول تقديم نصيحة له، لكن دون جدوى[3].

---

(1) العبر، 6، ص 852 فما بعدها؛ Féraud :P. 203, op. cit.؛ برنشـفيك: المرجع السابق، ص 210؛ حسـب الزركشـي فإن خروج أبي إسـحاق من بجاية كان بَعْد عقد معاهدة سلام، مع أبي عبد الله .(op. cit., P. 157)

(2) العبر، 6، ص 854 – 855.

(3) العبر، 6، ص 857 – 858؛ Féraud. :P. 204, op. cit.



ولما استولى أبو عبد الله على بجاية أخذ يتحرّش بأبي العبّاس، غير أنّ يعقوب بن عليّ تخلى عن مؤازرته، ومال إلى مناصرة أبي العباس وساعده في إلحاق هزيمة بجيش أخرجه من بجاية لمضايقة تخوم قسنطينة. ولما خرج أبو عبد الله بنفسه على رأس حملة ثانية، تكبّد هزيمة بناحية سطيف، ولاحقه أبو العباس إلى تاكرارت، ثم تحصن ببجاية، في حين جال أبو العباس وصال في أعمالها، قبل أن يعود إلى قسنطينة. وقد زاد نفور السكان منه إلى الحد الذي جعلهم يتّصلون سرّا بخصمه ويحثّونه على القدوم إليهم، ويحصلون منه على وَعْد بتلبية طلبهم في العام المُوالي؛ وفي سنة 767هـ./ 1366م.، نفّذ وعده، وزحف على مدينتهم بعدد كبير من المناصرين، ولم يبق مع أبي عبد الله سوى عدد قليل من الأتباع، ومع ذلك فإنه بقي ينتظر معهم في لَبْزُو، آملا في عقد صلح مع ابن عمه، غير أنّ هذا الأخير شنّ عليه هجوما كاسحا، هزمه فيه ونهب عسكره، ولما حاول الإنسياب إلى مدينته تم القبض عليه وقتل[1].

وهكذا تمكّن السلطان أبو العباس أحمد من دخول بجاية في 19 شعبان 767هـ./ 3 مايو 1366م.، وكان حاجب أبي عبد الله، أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون مقيما بها فذهب لمقابلته، رفقة الكتاب الذين كانوا معه، فخصّهم الأمير المنتصر باستقبال لائق بمقامهم[2]. وأقام

(1) العبر، 6، ص 858 – 859؛ Zerkechi: op. cit., P. 164؛ Féraud: op. cit., PP. 204 – 5.

(2) العبر، 6، ص 859؛ Zerkechi: op. cit., P. 164.

ابن خلدون في خدمته بعض الوقت «بعض شهر» لكنه كان خائفا على نفسه، فاستأذنه في إعفائه من تلك الخدمة فأذن له «تكرما وفضلا وسعةَ صدرٍ ورحمةً»[1]، فراح ينزل على يعقوب بن عليّ الذي ساعد أبا العباس في تحقيق أوّل انتصار ضد أميره، ثم انتقل إلى بسكرة، ونزل على ابن مزني، وبقي ينتظر هناك، إلى أن صفا الجوّ، بعد ثلاث عشرة سنة، عندئذ عاد إليه مرّة أخرى فلم يُقصّر في حقه[2]. وكان على السلطان أبي العباس، بعد استيلائه على بجاية أن يتصدى لبني عبد الواد، أصحاب تلمسان.

ذلك أنّ ابن عمه، السلطان أبا عبد الله، سبق وأن عقد معهم، أثناء حربه معه، هُدنة تقضي بتنازله لهم عن تدلس التي كان الصراع دائرا بينه وبينهم بشأنها، وبهذه المناسبة أصهر إليه أبو حَمّو أميرُهم، في ابنته، أي خطبها منه، فعقد له عليها وزفّها إليه. فلما هُزم أبو عبد الله وقُتل؛ أظهر أبو حمّو غضبا شديدا، وجهّز جيشا خرج على رأسه إلى بجاية، بحُجة الانتقام لصهره، فلما انتهى إليها نصب معسكره في ساحتها وقاتلها أياما ثم «جَمَع الفَعَلَة على الآلات للحصار» أي أنّه طلب من العمال المتخصّصين إقامة آلات عليها لحصارها، وكان أبو العباس بداخلها في مكان مولاه بَشير، بتاكرارت مع جيشه، وفي

---

(1) العبر، 6، ص 859.

(2) نفسه.



صحبته أبو زيان بن عثمان بن عبد الرّحمن، وهو ابن عمّ أبي حمّو، ومن المطالبين بإمارة بني عبد الواد(*)، وكان عرب زغبة المنتشرون في المغرب الأوسط، مُنضوين تحت لواء أبي حمّو، وحَذِرين من مغبة أمره معهم، فراسلوا أبا زيان واتفقوا معه سرّا، على تخليهم عن صفوف ابن عمه، وإحداث اضطراب فيها، وعندما نشب القتال بينه وبين أهل المدينة، نفذوا ما وعدوا به في الخامس من ذي الحجة (15 أغسطس 1366م.)، وانفض معسكره، وقُتل الكثير من أصحابه، ونجا بنفسه إلى الجزائر فإلى تلمسان، وسار ابن عمه أبو زيان خلفه يُتابع أثره.

أمّا أبو العباس فخرج بعد انتصاره في تلك المعركة إلى تدلس واستولى عليها، ممّن كان بها من عمال بني عبد الواد، وصارت الثغور الغربية، من الدولة الحفصية، كلّها في ملكه، كما كانت في ملك جدّه الأمير أبي زكرياء الأوسط[1] أو الثاني[2].

(*) سبق لأبي زيان هذا أن لجأ من المغرب (فاس) إلى تونس، فنزل على السلطان أبي إسحاق، ورعى له حاجبه أبو محمد بن تافراكين حق بيته، فأوسع في كرامته؛ ولما استولى الأمير أبو عبد الله على تدلس دعاه ليوليه عليها، حتى يكون حائلا بينه وبين قومه، ويتفرّغ هو لمقارعة قسنطينة، فلبّى أبو زيان الدعوة، ولما حل بقسنطينة، صدّه الأمير أبو العباس عن سبيله، واعتقله عنده مكرّما، فلما زحف عليه أبو حمّو أطلقه من إعتقاله، ونصّبه للمُلك، وزوّدهُ ببعض الإمدادات الحربية، وأخرجه مع مولاه بشير ليفرّق به بني عبد الواد عن أبي حمّو الذي كان عنيفا معهم (العبر، 6، ص 861).

(1) العبر، 6، ص 860 فما بعدها؛ Féraud: op.cit., PP.205 - 6.

(2) Zerkechi: op.cit., P.165.

تولية الأخوين: أبي عبد الله محمد ثمّ أبي العباس أحمد على بجاية

كان أبو عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراكين، سبق وأن قصد أبا العباس، برفقة عرب أولاد مهلهل، بعد نزوعه من السلطان أبي إسحاق، صاحب الحضرة، في بداية عام 767هـ./ 1366م.، لحثه على غزو تونس لكنه اعتذر لهم، لانشغاله بالفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية، فانضموا إليه وساعدوه في الانتصار عليه، وبعدها أخرج معهم جيشا بقيادة أخيه أبي يحي زكرياء، فوصلوا إلى تونس وحاصروها أيّاما، ولما قاومتهم تركوها بعد عقد هدنة مع صاحبها، وعاد أبو يحي بجيشه إلى بجاية، ومعه ابن تافراكين[1]. وبقيت الأمور على حالها، إلى أن هلك السلطان أبو إسحاق سنة 770هـ./ 1368م.، ونُصِّب لخلافته ابنه الأمير خالد، وكان صبيا، لم يبلغ سنّ الرّشد، وقام بأمره مولى أبيه وحاجبه، منصور البالقي، وأطمعوا منصور بن حمزة، أمير بني كعب المتغلبين على ضاحيتهم، في مشاركته لهم في الأمر، ثم تَراجعوا فيما وعدوه به، مما جعله يلجأ إلى السلطان أبي العباس، ويستحثه لمُلكهم، فَقبل اقتراحه، وأخذ يستعد للتنفيذ لكنه لم يفعل إلاّ بعد أن قام بحملة على المسيلة، وكان بها إبراهيم بن عمه أبي زكرياء الأخير (الثالث). وكان أولاد سليمان من الدواودة بايعوه، للمطالبة بحقه في بجاية، من بعد أخيه أبي عبد الله، بإيحاء من أبي

(1) العبر، 6، ص 862 – 863؛ قارن: op.cit., P.165: Zerkechi.



حمّو، صاحب تلمسان، الذي قدّم له وعدا كاذبا بالإمداد، فلما انتهى أبو العباس إلى المسيلة نبذوا بيعة إبراهيم وتبرؤوا منه، ورجّعوه من حيث أتى فعاد السلطان إلى بجاية، ومنها سار إلى تونس، فلم يجد صعوبة تذكر في السيطرة عليها، وقَتَل المالقي وتقبّض على الأمير خالد الذي أُرسل مع أخيه، بحرا، إلى قسنطينة لكن الريح عصفت بسفينته، فانحرفت وماتا غريقين[1].

وكان السلطان أبو العباس فكّر، قبل الشروع في الزحف على إفريقية، فيمن هو جدير بولاية بجاية، فوقع اختياره على أكبر أبنائه سنا، وهو الأمير أبو عبد الله محمد فعقد له عليها وعلى «أعمالها، وأنزله بقصور المُلك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند»[2]؛ وأقام له حاجبا هو «محمد بن أبي مهدي، زعيم البلد، وقائد الأسطول، المتقدم على أهل الشطارة والرجولة، من رجل البلد ورُماتهم»[3] وأوصاه بالرجوع إليه، فقام هذا الأمير بمهمته على أحسن وجه وقرّب منه ابن أبي مهدي الذي قدّم خدمَاته بالطريقة التي ترضي والده السلطان، والأمير على دراية بما يجري، وبقي يقدّر حاجبه حق تقديره إلى أن توفي، في أوائل سنة 785هـ./ حوالي شهر

(1) العبر، 6، ص 866 فما بعدها؛ Zerkechi: op.cit., 168 sq.

(2) العبر، 6، ص 875؛ Féraud: op.cit., P.206.

(3) نفس المصدر، ص 896.

مارس 1383م.، وكان خبر هذه الوفاة من أوائل المعلومات التي بلغت عبد الرحمن بن خلدون، على ألسنة المسافرين وهو بالإسكندرية، في طريقه إلى المشرق، لقضاء فريضة الحج. فأضافه إلى تاريخه وأفاد أن والده، بعدما بلغه نعيُه بتونس بادر بإسناد ولايته إلى ابنه أبي العباس أحمد، وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي[1]؛ وبلغ ابن خلدون بعدها زحف السلطان الحفصي على أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب، سنة 786هـ./ 1383 - 1384م.، لاضْطراب طاعته له، وامتناعه عن تسديد مَغارِمه في أكثر السنين[2].

ذلك أن تبعية أحمد بن مزني، صاحب الزاب إلى الحفصيين كانت شكلية، وخاصة منذ وفاة والده يوسف ببسكرة، أوائل 767هـ./ سبتمبر1365م.، نظرا لبُعده عن مركز الدولة، ثم راح يستقبل يحي بن يملول، بعدما طردَهُ صهره السلطان من توزر، بل اتفق معه على تحريض القبائل العربية، المنتشرة في ولاية قسنطينة، وسلطان تلمسان، أبي حمو موسى، على أبي العباس؛ وكان أبو حمّو، بعد استرجاعه تدلس سنة 776هـ./1375م.، تنازل عن جبايتها لصالح الأمير إبراهيم بن أبي زكرياء، ابن عمّ السلطان الحفصي وخصمه، تأييدا له في المطالبة بولاية بجاية، ولم تكن ظروفه تسمح له بزيادة هذا الدعم إلاّ أنه اضطر

(1) العبر، 6، ص 896 - 897.

(2) العبر، 6، ص 897.



إلى التعهّد بتقديم إعانة عسكرية إلى ابن يملول، في مقابل وعد هذا الأخير باعتقال أشدّ منافسيه على الحكم، ابن عمه الأمير أبي زيان بن أبي سعيد، الذي كان لاجئا عنده في توزر، غير أن وفاة ابن يملول، حالت دون تطبيق بُنود ذلك الاتفاق، ولم يجد ابن مزني، مِنْ بُدّ له، أمام زحف السلطان الحفصي عليه، سوى الإسراع إلى الاستسلام[1].

ولم يسجل ابن خلدون، ولا غيره من المصادر، أية معلومات تخُصّ بجاية، بقية أيام السلطان أبي العباس أحمد بن المستنصر التي استمرت إلى سنة 796هـ.[2]/ 1393 – 1394م.

وقد استمر الوضع كذلك، أيام ابنه وخليفته السلطان أبي فارس عبد العزيز[3] أو عزوز[4]، باستثناء ما أفاد به الزركشي من أن هذا الأخير حاصر أخاه وواليه على قسنطينة، الأمير أبا بكر، نزولا عند رغبة سكانها، في شعبان 798هـ./ 1394م.، فاستولى عليها ومكث فيها

1) أنظر برنشفيك: المرجع السابق، ص 223 – 224؛ يلاحظ هنا أن برنشفيك يحدّد تاريخ ذلك الزحف بسنة 783هـ./ 1381 (ص.224)؛ في حين يحدده عبد الرحمن بن خلدون بسنة 786هـ./ 1383 – 1384 (كما تبيّن سابقا).

2) أنظر: Zerkechi: op.cit., P.183؛ المؤنس، ص 153؛ يلاحظ Féraud هنا أن كتَاب ابن خلدون لا يذهب أبعد من سنة 1394م (796هـ) (op.cit., P.207)، مضيفا انه ابتداء من ذلك التاريخ إلى أن استولى الاسبان على بجاية 1509م. يوجد فراغ مؤسف في حوليات هذه المدينة (op.cit., P.208).

3) Zerkechi: op.cit., P.184؛ المؤنس، ص 153.

4) العبر، 6، ص 909.

أكثر من شهر ثم عاد إلى حضرته، بعدما ترك بها مولاه القائد نبيل على جيشها «والشيخ أبا الفضل أبا القاسم بن تافراكين التمليلي عاملا على القصبة، وقام بواجباته على أحسن وجه، ولم يغادرها (قسنطينة) إلاّ لبجاية بصفته سفيرا»(1) ولم يضف الزركشي إلى هذا الخبر ما من شأنه أن يساعد على توضيح أمر هذه السفارة ولا متى كانت. ويقول نفس المصدر، في حديثه عن أحداث نفس السنة (798هـ.): إنّ «أبا العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد، وحفيد الخليفة أبي العباس أحمد، خرج [من بجاية]، ومنذ أن أعلن عن خضوعها لم يتأخر»(2) ولم يوضح الزركشي هنا أيضا كلامه الذي لا يُسْتَنْتَج منه أكثر من أن بجاية تعرّضت آنذاك للغزو وخضعت لغُزاتها.

أوضاع بجاية أيام السلطان أبي فارس الحفصي.

وكان حظ بجاية من المعلومات أكبر في الأحداث التي جرت بين السلطان أبي فارس وبين ابن عمه أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء، الذي سبق له وأن كبّده هزيمة ساحقة سنة 797هـ./ 1313 – 1314م.، فانتقل على إثرها من بونة، عن طريق البحر، للاستنجاد بأمير فاس، ثم وصلت جماعة من العرب إلى هذا الأخير لتحقيق نفس الغرض، فانضمت إلى الأمير أبي عبد الله محمد، وأخرج معهم السلطان المريني

(1) Zerkechi: op.cit., P.194.

(2) Zerkechi: op.cit., P.194.



جيشا قويّا، وسار الجميع إلى تخوم مقاطعة بجاية، حيث بايعته وفود من أعراب إفريقية، ممّا جعله يستغني على الجيش المريني ويسمح له بالعودة من حيث أتى، وعندما علم السلطان أبو فارس بوصول الأمير محمد خشي على بجاية، فعقد على ولايتها لأخيه زكرياء، قائد بونة، وأرسله إلى مقر عمله الجديد الذي تلقّى فيه صاحبه السابق، أبو النصر ظافر، أمرا بقتال محمد الذي هزمه ونهب معسكره، ثم سار إلى بجاية التي ثار سكانها على زكرياء وطردوه بحرا، فسيطر عليها محمد وأسند حكمها لابنه منصور، في حين خرج لاعتراض السلطان أبي فارس ومن معه من العرب. لكن أبا فارس مرّ من بجاية واستولى عليها بعد قتال دام بضعة أيام، بفضل مساعدات قدّمها له بعض السكان، فخرّب المنازل ونهبها. وبعدما أعاد ولاية بجاية، إلى صاحبها الأسبق، أي إلى أبي العباس أحمد بن أخيه أبي عبد الله محمد[1]، راح يلاحق خصمه إلى أن اشتبك معه، فهزم جيشه وقتله، في أوائل محرم 812هـ./ نهاية مايو 1409م.، بمكان يسمّى بليلة، إلى الشمال من بلد تمغزة[2]، أو أنه أعاد ولاية بجاية إلى ظافر الذي كان على رأسها قبل ذلك، في حين سار أبو العباس أحمد بن أخي المولى أبي عبد الله محمد، لقتال الأمير أبي عبد الله محمد[3]، وحقق، بطبيعة الحال، نفس النتيجة.

---

1) Zerkechi: op.cit., P.199sq.

2) Ibid, P.201.

3) أنظر: Zerkechi: op.cit., P.199 sq.



ومن المعلومات المقتضبة التي أوردها الزركشي، في شأن ولاية بجاية، أن مدينة الجزائر، التابعة لها تقليديا «استسلمت صلحا سنة 813هـ./ 1410م.»[1] لكنه لم يضف ما من شأنه أن يوضح ظروف هذا الاستسلام، ويفيد نفس المصدر بأن السلطان أبا فارس عَزل أبا البقاء خالد عن ولاية بجاية وعوّضه بابنه المعتمد، وصرفه إلى مقر عمله، وذلك سنة 824هـ.[2]/ 1421م.، ومما لا شك فيه أنها لم تخرج عن طاعة السلطان الحفصي، الذي أخذ نفوذه يتزايد إلى أن تمكّن من السيطرة على الدولتين العبد الوادية والمرينية، سنة 827هـ.[3]/ 1423 – 1424م.

ولم تتغير وضعية بجاية الإدارية إلاّ بعد وفاة وليّ عهد أبي فارس، أبي عبد الله، سنة 833هـ./ 1429م.، عندئذ رغب أخوه المعتمد، والي بجاية، في خلافته، فغادرها على رأس جيش معتبر، لتعزية والده، غير أنه اكتشف، عند وصوله، أن المنصب الذي كان يطمح إليه قد أُسند إلى المنتصر بن أخيه المتوفّى، محمد المنصور، ولما تباطأ في تنفيذ أمر والده بالعودة إلى مقرّ ولايته، تقبض عليه وحبسه في الشقة العليا من سقيفة قصر باردو، وعَقَد على ولاية بجاية لمولاه القائد أبي النعيم رضوان، وذلك سنة 834هـ.[4]/ 1429 – 1430م.، وليس هناك ما يدل

---

(1) Zerkechi : op.cit., P.202.

(2) Ibid, P.202 - 203.

(3) أنظر: Ibid, P.203.

(4) Zerkechi : Op. cit., P. 207 - 208.



على وقوع أي تغيير في إدارتها، بقية أيام أبي فارس، التي توقفت سنة 837هـ.[1]/ 1433 - 1434م.

محاولة والي بجاية أبي الحسن عليّ الاستقلال بها.

كانت المنية قد وافت السلطان أبا فارس، وهو مُتوجّه إلى تلمسان، على رأس حملة نظّمها ضد أميرها أحمد بن أبي حمّو موسى، الذي أخذ يُظهر بوادر الاستقلال، بمكان يسمّى ولجة السَّدْرة حيث تقع عَيْن الزّال، قرب جبل الونشريس، وهناك تمت بيعة ولي عهده، حفيده أبي عبد الله محمد المنتصر بن الأمير الشهيد، أبي عبد الله محمد المنصور، ومن هناك توجه إلى تونس، فلمّا وصل إلى المسيلة عقد لعمّه، أبي الحسن عليّ بن أبي فارس عبد العزيز، على بجاية وبعثه إليها[2]، إلاّ أن هذا السلطان لم يعمّر طويلا، بعد توليته الحكم، إذ لم يزد عهده عن سنة واحدة وشهرين واثني عشر يوما[3]، فلما مات، في ليلة الثاني عشر من شهر صفر 839هـ./ سبتمبر 1436 - 1435م.، بويع شقيقه أبو عُمر أو أبو عمرو عثمان[4] لخلافته، وعلى عكس سابقيه

(1) Zerkechi: op.cit., P.210 ؛ المؤنس، ص 155.

(2) Zerkechi : op.cit., P.210 - 11.

(3) Ibid, PP.210 – 11؛ بالنسبة لابن أبي دينار فإنه حكم عاما واحدا وشهرين وأحد عشر يوما (المؤنس، ص 156).

(4) قارن: Zerkechi: op.cit., P.126؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص 156.



من السلاطين، فقد طالت أيام حكمه، ولم يتوف إلاّ آخر شهر رمضان من سنة 893هـ.[1]/ أغسطس 1488م.

وعندما علم والي بجاية، الأمير أبو الحسن بن أبي فارس، بموته أعلن استقلاله، في الوقت الذي ألحق فيه السلطان عثمان هزيمة بعرب إفريقية، من أولاد أبي الليل، بمساعدة عرب آخرين، وهم أولاد مهلهل، بسبب قطعهم للطرق وتخريب أملاك الناس، وذلك سنة 839هـ.[2]/ 1436م.، وقد قصد أولاد أبي الليل، بعد هزيمتهم، بجاية وطلبوا من أميرها غزو تونس فوافق وحاصر، بالاتّفاق معهم، قسنطينة مدّة شهر تقريبا، لكن قائدها نبيل قاومه بكل شجاعة، وبنجاح فاضطر إلى رفع الحصار، وتوجه بصحبة عيسى بن محمد شيخ الدواودة إلى العاصمة الحفصية، بينما انضمّ إلى السلطان الذي خرج من معسكره سَبُع بن محمد، وهو شيخ آخر للدواودة، وسار السلطان، مدعوما بأولاد مهلهل وحلفائهم، إلى صَرَاط أو شواط حيث انضم إليه سعيد بن أحمد، شيخ حكيم وأنصارها من بني علي وغيرهم، وهناك، في مقابل وادي صراط، قرب تيفاش نشب قتال بين الطرفين، يوم الأربعاء 22 ربيع الأول 840هـ./ أكتوبر1436م.، استمر من الصباح إلى الرابعة مساء، تقريبا، ولم يخلص الأمير الحسن من القتل سوى الهروب، تاركا معسكره وذويه تحت رحمة

---

(1) المؤنس، ص 159.

(2) أنظر: op.cit., PP.221 - 22: Zerkechi.



المنتصرين، ولم يشعر بأمن نسبي إلاّ في بجاية حيث وصل مع أفضل فرسانه، وعاد السلطان بدوره إلى تونس[1].

وقاد السلطان، في نهاية نفس العام، حملة أخرى نحو مقاطعة بجاية وعسكَرَ في مَكّوس، حيث خاض معركة ضد عبد الله بن عمر بن صخر، شيخ قبيلة سيلين ثم عاد إلى تونس في بداية سنة 841هـ.[2]/ 4جويلية 1437م.، وفي جمادى الثاني 843هـ./ 1439م.، استولى على بجاية بعد فرار الأمير أبي الحسن منها، وأمّن سكانها الذين حضروا أمامه، على حياتهم وأرزاقهم، ثم عقد على ولايتها لابن عمه الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد، قبل عودته إلى عاصمته[3]. وفي بداية عام 846هـ./12 مايو 1442م.، علم عثمان أنّ محمد بن يحي السيليني المعروف بابن حجر، هاجم وقتل والي بجاية، الأمير أبي محمد عبد المؤمن، فأسند ذلك الموقع إلى شقيق الفقيد، الأمير أبي محمد عبد الملك[4].

وفي سنة 850هـ./29 مارس 1446م.، علم أيضا أن الأمير أبا الحسن انتهز فرصة إهمال قائد بجاية، أحمد بن بشير، ودخلها، فصمم على

1) Zerkechi: op.cit., P.222 sq.

2) Zerkechi: op. cit., P.225.

3) Ibid, P.227.

4) Ibid, P.230.



الخروج من تونس للزحف عليه وأرسل في مقدمته القائد نبيل الذي عسكر بالقرب منها، وعندئذ فر منها أبو الحسن إلى الجبال، بعدما مكث فيها عشرين يوما، واستولى عليها نبيل فولى عليها السلطان القائد محمد بن فرج، وعاد إلى تونس[1].

وفي بداية شهر رجب 856هـ./ جويلية 1452م.، وصل خبر قيام الأمير أبي الحسن بحصار مدينة بجاية، مع جماعة من سكان منطقتها، فبعث السلطان جيشا لنجدتها[2]. فلم ينتظر الحسن وصوله، بل انسحب على ما يبدو إلى بلاد حمزة، بدليل أن محمد بن سعيد السليني الذي طرده قومه، لجأ مع من بقي معه منهم، إلى قائد بسكرة، أبي زيد عبد الرحمن القلاعي، وطلب منه أن يحسن استقبال أهل بلاد حَمزة الذين سيأتون لمقابلته، حتى يلاطف بذلك الأمير أبا الحسن ويطمئنه[3]، مما يدلّ على أنّه كان يتربّص به. ومع أن هؤلاء أكّدوا لأبي الحسن ما حظوا به من استقبال لائق، في بسكرة، إلاّ أنّه نُصح بأخذ حذره منهم مما جعله يغادر بلادهم ويلجأ إلى شيخ سيلين، عبد الله بن عمر بن صخْر ويستقرَ أخيرا، عند ابن عمه سعيد بن عبد الرحمن بن محمد، عندئذ شرع محمد ابن سعيد في مفاوضة العرب،

(1) Zerkechi: Op. cit., P.231.

(2) Ibid, P.237.

(3) Id.



من جهة، وأبي عليّ منصور المزوار، قائد قسنطينة، من جهة أخرى، في شأن مصيره، وتحصل على وعد من المفاوض الأخير، بمنحه كلّ ما يطلبه، إذا تمكّن من توقيف أبي الحسن. وبالفعل أُنجزت هذه المهمة بنجاح وسُلّم الأسير إلى القائد المذكور الذي بعث يخبر السلطان بما جرى، وهو في طريقه إلى بجاية، ثم أرسله إليه فقتله[1].

إدارة بجاية في عهد السلطان عثمان.

واصل السلطان طريقه، برفقة معسكره، إلى بجاية، وبعث يأمر الأمير أبَا محمد عبد الملك، ابن عمه، بأن يحضر أمامه، مع أعيان المدينة ليجدّدوا لهُ ولاءهم، فنفّذ الأعيان وحدهم هذا الأمر، وامتنع الوالي عن ذلك غير أن السلطان أوفد إليه قاضي المعسكر، بصُحبة بَعض الفقهاء والأولياء الذين أقنعوه بإلحاحهم، ووصل برفقتهم، في 13 أو 23 من شهر شوال، إلى السلطان الذي كان ينتظره في أبي بَحّاب أو أبي مَحّان، قرب جبل أولاد رحمة، فأمضى ليلته في المعسكر، وفي الغد تمّ توقيفه وتقييده، وعقد السلطان على بجاية للقائد منصور وبعثه إليها مع أعيانها، أمّا هو فعاد مع معسكره ودخل عاصمته في 20 ذي الحجة، آخر شهر 856هـ.[2]/ 22 ديسمبر 1452م.

(1 Zerkechi: Op. cit., P. 237.

(2 Zerkechi: Op. cit., P. 239.



وتَبتغي الإشارة هنا إلى إمكانية تفسير تردّد أمير بجاية، عبد الملك، في تلبية أمر السلطان بخوفه منه، بسبب اتخاذه موقف مؤيد، لابن أخٍ، لمحمد بن سعيد السّليني، بعدما خلفه في رئاسة قبيلته التي طردته[1] في حين أن هذا الأخير قدّم خدمة جليلة للسلطان بتقبّضه على خصمه الأمير أبي الحسن الذي أتعبه كثيرا، ولم يكن ذلك التردّد هو الحل الأنسب.

وفي 10 من شوال 858هـ./ 3 أكتوبر 1454م.، انطلق السلطان مع معسكره في اتجاه الغرب، بسبب ما ورد من أخبار تفيد أن مثيري الشغب بمنطقة بجاية، ضايقوا قائد هذه المدينة، وقيّدوا حرية حركته. وقد أوقف، أثناء تقدمه، الأمير أبا بكر بن الأمير عبد المؤمن، بسبب رغبة البجائيين في جعله رئيسا لهم، بحجّة أن والده وعمّه كانت لهما نفس الوضعية سابقا.

وكان توقيف أبي بكر بالقرب من ميلة، وهو متوجّه من تونس إلى المعسكر، وقد أعيد إلى العاصمة حيث وصل يوم الأربعاء 26 جمادى الثانية 859هـ./ 1454م.، فوُضع في السجن مع رفقائه بالقصبة، وواصل السلطان طريقه إلى تاكُورة، حيث زاره رُؤساء بجاية الذين كانوا قد تخلصوا من خصومهم، وقالوا له: إن الأمور الآن هادئة تماما. فعزل قائد هذه المدينة، أبا عليّ منصور المزوار، وعيّن مكانه ابنه أبا

(1) Zerkechi: Op. cit., P.237.



فارس عبد العزيز، فالتحق بمنصبه يوم 29 جمادى الثانية 859هـ. أمّا هو فقد عاد بمعسكره إلى تونس[1].

وبعد خمس سنوات، أي في سنة 864هـ./ 1459 – 1460م.، خرج السلطان من تونس إلى مقاطعة بجاية، والتقى مع ابن والي هذه المدينة، أبي فارس عبد العزيز، فقصّ عليه ما وقع له مع محمد بن سعيد، وفرار هذا الأخير، فَبعث عثمان إلى هذا القائد وعدًا بالأمان، حمله له ابنُهُ ووليُّ عهده المسعود، فعاد ابن سعيد معه وحظي باستقبال جيّد ثم نُقل مع أفراد عائلته إلى تونس حيث كان يتقاضى نفقات معيشته، ثم عاد السلطان إلى قسنطينة[2]. وقد مكث محمد بن سعيد بتونس إلى أن خرج، مع السلطان في الحملة التي قام بها على تلمسان في 7 شوال 866هـ(*)/ 4 جويلية 1462، وعاد منها يوم الأربعاء 17 صفر 867هـ. لحصوله على بيعةِ وخضوعِ أميرها، دون أن يدخلها؛ وفي طريق عودته تلك، ردّ محمد بن سعيد بن صخر إلى بلاده، في بجاية وعاد هو إلى تونس فدخلها يوم الثلاثاء 18 جمادى الأولى 867هـ.[3]/ 7 فبراير1463م.

1) Zerkechi: op.cit., PP.242 - 43.

2) Ibid, PP.249-250.

(*) يعود سبب قيام السلطان بهذه الحملة إلى استيلاء الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت على تلمسان سنة 865هـ/1460م.، بعدما طرد أميرها، وهو عمه الأكبر السلطان أبو العباس أحمد بن أبي حمّو الذي انتقل إلى العُبّاد فإلى الأندلس، (Zerkechi: op.cit., P.251).

3) Zerkechi: op.cit., PP.252-253.



ومنذ هذا التاريخ 1463م(*)، وإلى تاريخ استيلاء الإسبان على بجاية، سنة 1509م، يوجد فراغ مؤسف في حوليات هذه المدينة، إذ لم يورد بشأنها أيّ خبر في بقية أيام حكم السلطان عثمان التي انتهت في آخر رمضان 893هـ./ أوائل سبتمبر 1488م[1]، ولا في أيام حفيده أبي زكرياء يحي، أو أبي زكرياء الثالث، التي استمرت إلى سنة 899هـ./ 1494م[2].

ولعلّها استمرت على ما كانت عليه، فيما مضى، سلطنة أو إمارة تابعة لتونس، تُشكّل إقطاعا لأمراء الأسرة الحفصية الحاكمة[3]. ولم تطفُ أخبارها على السطح من جديد، إلا في ظل الغزو الاسباني.

(*) وليس منذ سنة 1394م. التي توقف عندها ابن خلدون عن تناول تاريخ بلاد المغرب، مثلما ذكر (op.cit., P.207.: Féraud)

(1) أنظر: المؤنس، ص 156 فما بعدها؛ برنشفيك: المرجع السابق، ص 306.

(2) نفس المصدر، ص 159؛ برنشفيك، المرجع السابق، ص 307.

(3) أنظر. op.cit., PP.209: Féraud.

الفصل الرابع

بجاية في ظلّ الغزو الإسباني



ظروف بجاية السياسية عند تعرضها للغزو الإسباني.

لم تعد الدولة الحفصية متماسكة، كما كانت من قبل، أيام السلطان أبي عبد الله الحفصي، إذ استقلت عنها مناطق كثيرة[1] لدرجة جعلت ابن أبي دينار يعتبر ذلك «ختام بني أبي حفص»[2]. وكانت بجاية من بين تلك المناطق. وقد وصف أبو علي إبراهيم المريني، وهو من سكانها، وضعيّتها كما يلي: «تَولّى حكم سلطنة بجاية، على التوالي، عددٌ من الأمراء، وكثيرا ما صارت هذه المدينة مسرحا لصراعات فجّرتها منافسات بينهم. واستمرت تلك الوضعية قائمة، عند انتقال حُكمها إلى السلطان عبد العزيز بن الأمير أبي محمد عبد الله وكان أخوه، أبو بكر يحكم آنذاك قسنطينة.

«ورغبة من هذا الأخير في توسيع مناطق نفوذه، الْتفَتَ إلى مناطق نفوذ أخيه عبد العزيز وصمّم على إسقاطها، فقام بحملة على بجاية، استمرت في إزعاجها مدّة سنتين متتاليتين، رغبة منه في الاستيلاء عليها، لكنه وجد دائما مقاومة نشطة: فالسلطان عبد العزيز قاتل بِحزم، وتمكّن من البقاء في الحكم، لأنه أخذ احتياطه وجنّد فرقا

(1) المؤنس، ص 160.

(2) نفس المصدر، ص 161.



عسكرية كثيرة، كما جمع مُؤنا معتَبَرة: من طعام وسلاح، وفضلا عن ذلك، فإنّ ميناءها كان مليئا بسُفن على متنها بحارة مخلصين لقضيته.

«غير أن أبا بكر استمر في تهديد بجاية ومحاصرتها، من حين لآخر، وكان في كل مرّة، يخرّب الأرياف ويدمّر المساكن ويحرق المحاصيل.

«وفي بداية سنة 912هـ./ 1507م.، تقدّم من جديد أمام أسوار بجاية وحاصرها مدّة أربعين يوما، إلاّ أنّه بعدما عكف على قطع أشجار البساتين المجاورة لها، كان عليه أن يترك، هذه المرة أيضا، محاولته ويعود خائبا إلى قسنطينة. وبهذه المناسبة كتب له السلطان عبد العزيز رسالة، هذه عباراتها: «أنت يا من أَوْقَدَتْه الغيرة وأذْهله انْبِهار الطموح! إن الفشل الذي تكبّدته الآن، من شأنه أن يقنعك بعجز جهودك. فَكُفَّ إذًا عن خوض معركة أخرى، لمحاولة إسقاطي. كيف تستطيع التصديق أن يكون لي ضعف التّخلي لك عن مملكة اجتهدت في تأسيسها؟

«والأحرى أن تكفّ عن هذا الصراع الذي يَضرّ بك في أذهان السّكّان المتعبين، اِتبعْ ما أُقدّم لك من نصيحة؛ فإن طموحك لن يتأثّر؛ وَالوقت لم يَمضِ بَعدُ. وجِّهْ أنظارك التوسعية نحو إفريقية المتمرّدة التي تمتدّ خلفك.

«لكن أبا بكر، عِوَض أنْ يُصغي لنصائح أخيه الحكيمة، قام بحملة جديدة على بجاية سنة 913هـ./ 1508م.، وعندئذ عزم السلطان عبد



العزيــز علــى تَفاديه بِزَحفه شــخصيا علــى قســنطينة، وكانت أقدام خصمه وطئت أرض بجاية، فاشــتبك جيشاهما وتلقى أبو بكر هزيمة نكراءَ، فانتهز عبد العزيز فُرصتها ودخل منطقة الحُضنة، ومن هناك قصــد قســنطينة ففَتَحت له أبوابَها وتحصلت منــه على تنظيم جديد ومنظّم. وأثناء اِنشــغاله بتوطيد ســلطته في فتوحاتــه الجديدة تلقى خبر نزول النصارى في بجاية[1]».

وكانت قوّة السلطان عبد العزيز تعتمد على موقع حَاضِرَته، القريب من جبال منطقة القبائل، حيث كان بإمكانه جمع المقاتلين، وعلى ميناء كانت له تجارة كبرى مع الأمم النصرانية، إلاّ أن تلك العلاقات التجارية، مــع النصارى، توقفت على إثر قيام الجهاد في بلاد المغرب، وذلك بَعد تَمكُّن نصارى الأندلس من طرد مسلميها إلى البحر المتوسط، وعندئذ تلقى أمير بجاية أمرًا، من سلطان تونس، بالاستعداد لحرب النصارى غُزاة الأندلس، وبكل سرور تسارع المسلمون لتنفيذه[2].

وكان ســكان بجاية يصنعون السفن الخاصة بتلك المَهام، ويختارون لهــا الأبطال من رجالهم، ويغيرون بها فجــأة، على الأهداف المحدّدة،

---

(1) أبــو علــي إبراهيــم المرينــي (Abou Ali Ibrahim el-Mérini): عنــوان الأخبــار فيما مــرّ ببجايــة، مخطــوط نســخه مجهــول، وترجمــه إلــى الفرنســية شــارل فَيــرو (Féraud. Ch.: Revue africaine, 12ème année, N° 70, 1868, PP.248 - 49).

(2) Abou Ali Ibrahim el-Mérini: Op. cit., P.249.



لاختطاف ما أمكنهم، من غنائم مادية وبشرية، كما يهاجمون ما يعثرون عليه، في طريقهم، من بواخر العدوّ، وغالبا ما يعودون بالغنائم والسّبْي والأسرى الذين كثرت أعدادهم، وارتفعت أثمانهم لدرجة جعلت فداءهم شيئا متعذّرا، مِما تسبّب في تحالف أُمم الفرنجة مع بعضها للأخذ بالثأر منهم، فاجتمعت أساطيل جَنَوَة وبَرْشَلونة وغيرهما، وأقلعوا صوب المهدية، سنة 792هـ./ 1390م.، ففاجأوها بهجومهم لكن الحفصيين تمكنوا من صدّه[1].

واللاّفت هنا أن ابن خلدون يحمّل سكان بجاية المسؤولية المباشرة على هذا الهجوم الذي تعرّضت له المهدية، إلاّ أنه، كما هو واضح من روايته، لا يشير إطلاقا، لا هو ولا الزركشي الذي أورد، هو الآخر، خبر تلك الحملة، إلى أيّ دور حربيّ لهم فيه. وقد يعود ذلك إلى أنّ أَسَاطيلهم كانت منشغلة بهجماتها على سواحل الأندلس[2].

وفي رأي ابن خلدون دائما فإنّ السيطرة على جزر البحر الرومي (المتوسط)، بعد انقراض دولة الروم (البيزنطين)، كانت للمسلمين، إلى آخر دولة الموحدين، ثم استطاعت أمّة الفرنجة، المنتشرة إلى الشمال منه، أن تَملك جزرَه، وأن تملأ بأساطيلها فضاءه، وملكت سواحل الشام، وبيت المقدس، وعادت لها السيطرة على ذلك البحر،

(1) العبر، 6، ص 903 فما بعدها؛ Zerkechi :op.cit., PP.181 - 182؛ المؤنس، ص 153.

(2) أنظر: Abou Ali Ibrahim el-Merini : op.cit., PP.249 - 50.



ونافستها أساطيل بني مرين، ثم اختل مركز دولتها بإفرنسة، وافترقت على طوائف، في أهل برشلونة وجنوة والبندقية وغيرهم، ممّا يسّر مهمّة المتطلعين، من المسلمين إلى غزوهم، ومن بين هؤلاء أهل بجاية[1].

وما يمكن استنتاجه من كل هذا الكلام هنا أنّ آخر قوة بحرية إسلامية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، تمكنت من الحفاظ على ميزان القوى، بين المسلمين والنصارى، في ضفافه هي الدولة المرينية، في المغرب الأقصى، غير أن الضعف الذي حلّ بها، مع مرور الأيام، جعل دورها يتقلّص، في حين استمر نموّ تلك القوى المنبثقة عن دولة الإنفرجة؛ ومن بينها القوى التي برزت في الأندلس، وهذا ما يفسر تمكّن الإمبراطور الإسباني (الطاغية)(*) من احتلال المرسى الكبير عام 910هـ./ 1505 - 1506م.(**)، وأنزل فيه حامية من جيشه، دون أن يتمكن المسلمون من استعادتها[2] وهذا دليل قاطع على اضمحلال القوة البحرية المرينية.

وقد حاول سلطان بجاية، عبد العزيز، مَلْء ذلك الفراغ الأمني، فراح يتشاور مع سلطان تونس المُصمّم على نجدة سكان وهران لمساعدتهم

1) العبر، 6، ص 902 - 903.

(*) يطلق الكتاب المسلمون على الأباطرة المسيحيين تسمية طاغية، وهي مرادفة لكلمة مستبد (Ch.Féraud في أبو إبراهيم المريني؛ op.cit., P.249, note1).

(**) بالنسبة لأبي علي المريني فإن الاحتلال وقع على وهران، إلاّ أن مترجم نَصّه Ch. Féraud. صحّحه في هامش ترجمته، بحجة أن الاستيلاء على وهران كان فيما بعد، سنة 1509م. (op.cit., P.250, note1).

2) Abou Ali Ibrahim el-Merini: op.cit., P.250.

على طرد الغزاة (الكفار)، ولذلك طلب تعزيزات من كلّ المدن، وكان قوّاده يراقبون نشاط عتاد السفن، إلاّ أنَّ الحرب اندلعت بينه وبين أخيه الأمير أبي بكر، بعد إتمام تلك الاستعدادات، فلم يتمكن بعدئذ من قيادة جيش هذه النجدة بنفسه وكلّف، بتلك المهمة، ابنه أبا فارس فقاد الجيش الذي قصد وهران برًا، وقصدها وزيره محمد بن عبد الله الكناني وإبراهيم بن يونس بحرا. لكن الإسبان عَلِموا بتقدّم هذا الجيش نحوهم قبل وصوله فجهزوا حينا سفنهم لصدّ الهجوم، واشتبك الأسطولان، فَهُزم المسلمون واستشهد منهم عدد كبير في تلك المعركة البحرية[1]. أمّا الجيش البري الذي كان يقوده أبو فارس، فلم يَرِد في شأنه أي خبر، ممّا يعني أنه لم يُنسّق عمله مع الأسطول، وربما لم يشارك في القتال بالمرة. كما أن هزيمة أسطول بجاية، في المَرْسَى الكبير أو في وهران، تدلّ بكل تأكيد، على ضعفه، وبمعنى آخر لم يعد بإمكانه حمايتها من السقوط بيدي الطامعين في الاستيلاء عليها.

ويبدو أن «السفن الحربية المختلفة»[2] أو الصغيرة[3] التي كان البجائيون يجهزونها ويرسلونها «للقيام بالقرصنة في سواحل البلاد

(1) Abou Ali Ibrahim el-Merini: op.cit., P.250.

(2) الوزان الحسن المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجّي ومحمد الأخضر، ط.2، دار الغرب الإسلامي1983، ص 50.

(3) مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، ط. دار نشر المعرفة 1408 – 1409هـ./1988 – 1989م.، جـ.2، ص 377.



المسيحية»[1] أو «لغزو شواطئ إسبانيا»[2]، لم يكن الهدف من إنشائها استراتيجيا، لحماية ما صار يعرف فيما بعد، الأمن القومي، بل اقتَصر دورها على القيام بغارات ثأرية من النصارى عموما ونصارى الأندلس على الخصوص، وكانت الفائدة منها محدودة وهي القيام بالنهب والسلب، أي القرصنة، وكان النصارى يمارسونها، بدورهم، ولكن إلى جانب الحرص على تجهيز أساطيل قادرة على تحقيق طموحات أكبر من طموحات السلب والنهب الذي اتخذه المَلِك الاسباني فرديناند ذريعة لإرسال حملته البحرية، بقيادة بيدري نافار للاستيلاء على بجاية، كَرَدٍّ فعل على ما يقوم به قراصنتها على شواطئ بلاده[3].

الغزو الإسباني لمدينة بجاية.

يتّفق كلّ من أبي علي إبراهيم المريني ومَارْمُول كَرْبَخَال، في قولهما بمفاجأة هجوم الأسطول الإسباني، بقيادة الكونت بِيدْرِي نابَارُو، على سكان بجاية سنة 915هـ./ 1509م[4]، وكان ذلك الأسطول يتكون من أربع عشرة سفينة كبيرة محملة بالجنود[5]. ويردّ الحسن الوزان نجاح

1) الوزان: المصدر السابق، ص 50.

2) نفسه.

3) قارن الوزان نفسه؛ مارمول، المصدر السابق، ص 377.

4) قارن: op.cit., P.250؛ مارمول كربَخَال: المصدر السابق، جـ.2، ص 377.

5) مارمول: نفس المصدر، ص 377.



الإسبان في مهمتهم إلى كون البجائيين، «أناس طيّبون، ميّالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لاسيما منهم الأمراء الذين لم يعلنوا(*) الحرب قطّ على أحد. وقد ظهر جُبنهم جليا، إلى حدٍّ أنهم عندما جاءهم الكونت بيير نافار ببعض سفن النقل، فروا جميعا إلى الجبل، وعلى رأسهم المَلِك، حاملين معهم كل ما يَملكون، دون أن يتمشقوا حُساما، وأخذ الكونت بيير (بيدري) المدينة ونهَبَها، ثم شيّد بسرعة قلعة، قرب البحر في موضع ملائم من الشاطئ كما حصّن قلعة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة[1]».

غير أنّ الأمر، حسب أبي علي إبراهيم المريني، المعاصر لتلك الأحداث، لم يتم بتلك البساطة: فقد نزل جيش تلك الحملة فجأة «قرب بجاية، أسفل المكان الذي يوجد به ضريح سيدي السّبوكي»[2]، ويحدّد Féraud Ch . هذا الموقع شمال شرق المدينة، وهو الذي صار يُسمّى، بعد الاحتلال الفرنسي، وادي القردة، ويقع بين سنّ رأس كرْبون وبين الدعَائم الصخرية الممتدة إلى رأس بُواك (Bouak) ؛ والجُونُ أي الخليج الذي يكوّنه هذان الرأسان، يُسمَّى المرسى القديمة. وما بين ضريح الشيخ عيسى السبوكي وبين الشاطئ، في عمق ذلك الجون،

(*) في ترجمة النص «لم يشهروا الحرب» فاستبدلت بتعبير «لم يعلنوا»: إذ يقال أعلن الحرب وأشهر السلاح أو السيف».

(1) وصف إفريقيا، ص 51.

(2) op.cit., P.250؛ أنظر: الخريطة رقم 4، ص 382.



وُجدت بعد الاحتلال الفرنسي حديقة البحرية التابعة لإدارة الميناء[1]. وقد يكون ذاك هو المكان الذي نزل به جنود الأسطول الإسباني سنة 915هـ./ 1509 – 1510م.، حسب هذا الكاتب.

وكان ذلك الحيّ بكامله مَأْهولا بالأندلسيين الذين لجأوا إلى بجاية، بعد استيلاء النّصارى على بلادهم. وقد خصّصه لهم السلطان عبد العزيز، لعدم وجود إمكانية إيوائهم داخل المدينة. واستقر بعض هؤلاء اللاّجئين، أيضا، في البساتين الواقعة بجهة الوادي الكبير (الصومام)[2].

وهناك جمع النصارى بسرعة، كل العتاد الضروري للقيام بحصار طويل، في أكواخ بَنَوْها من ألواح، ثم بعثوا إلى سكان المدينة، وإلى الوزير المكلّف بشؤون السلطان، وإلى أبناء هذا الأخير الذين بقوا في عيْن المكان، يقترحون عليهم الاستسلام بدون مقاومة، فرُفض هذا الاقتراح وشُرع في القيام بتدابير الدفاع. ولما رأى النصارى أنهم فشلوا في هذا المسعى (الإستسلامي) أقاموا في الحين سِيّاجًا (palissade) من الخشب، شبيها بجدار، انطلاقا من حي سيدي عيسى السّبوكي، متبعين ذروة الأرض. وأقاموا في الجبل، ومن هناك كانوا يلقون قذائف (des boulets) على كلّ مَن يحاول اجتياز أبواب المدينة، واستمر الأمر كذلك، مدّة عشرة أيام؛ أو أن الإسبان تحصّنوا بخنادقهم، في ديار سيدي عيسى السبوكي، مدّة واحد

(1) Ch. Féraud : في Abou Ali Ibrahim el- Mérini: op.cit., P.250, note 2 .

(2) Abou Ali Ibrahim el-Mérini: op.cit., PP.251-52.



وعشرين يوما. تزوّدوا خلالها بما يحتاجونه؛ من ماء و مؤن، عن طريق سفن تأتي من وهران؛ وخلال تلك الفترة بكاملها كان الصراع عنيفا بين المقاتلين: ففي إحدى تلك الليالي ابتلت مجموعة من سكان المدينة مصيبة كبرى: ذلك أن أكثر المحاربين شجاعة، وعددهم عشرون وخمسمائة، نظموا هجوما. فركب بعضهم قوارب المدينة للإغارة من البحر، وكان على رفقائهم أن يتجنبوا مواقع العدو، مرورا بقمة الجبل، وخرج هؤلاء من بابي: أمسيون(*) وسادات؛ وخلال هذه الليلة قُتل عدد كبير من المسلمين، وكانت خسائر القادمين بحرا أقل، لأنهم تمكنوا من الابتعاد بسرعة، معتمدين على قوّة جذفهم واحتفائهم، بعد استيلائهم على بعض الغنائم. وفي الغد ساد بالمدينة رعب كبير، على إثر البكاء وصراخ اليأس الذي كانت تطلقه عائلات الذين قُتلوا في الهجوم المنُفّذ من جهة الجبل، وفي ذلك اليوم وصل إلى بجاية الأمير أبو فارس بن السلطان عبد العزيز[1].

فهذا الأخير لم يكن إذًا، متواجدا ببجاية، مثلما ذكر الحسن الوزان أعلاه، بل كان منشغلا بالصراع مع أخيه أبي بكر في قسنطينة، منذ أن كلّف ابنه أبا فارس بقيادة النجدة التي وجهها إلى المرسى الكبير أو وهران وتمكن آنذاك، من إخضاع قبائل العرب والسَّدْويكْش المنتشرة في تلك

(*) صار موقع هذا الباب، في عهد الاحتلال الفرنسي، بطريق المنارة، فوق المستشفى العسكري بقليل (Féraud: في أبو علي إبراهيم المريني: op.cit., PP. 252 - 53, note2).

(1) Ibid, PP.252 - 3.



النّواحـي، ومِنْ قَتْلِ إبراهيم بن وَدْلف الذي كان مناوئا له، والذي كان وراء الهجمات المتتالية التي كان أخوه أبو بكر يَشنها عليه. وقد وجد عبد العزيز في ابنه أبي فارس أحسـن عون، بفضل ما حققه من انتصار على القبائل العربيـة المتحالفة وجزء من قبيلة دُرَيْد، عندما هاجموه بتحريك من عمه أبي بكر، في إيكجان(*) من نواحي سطيف، وهو ما جعله، ولا شك، يكافئه بتوليته على قسنطينة عندما انضم إليه فيها[1].

ويشـهد والـد صاحب هذا المصـدر، أبو علي المرينـي، أنه كان مع السلطان عبد العزيز، عندما بلغه خبر نزول الإسبان ببجاية «فانتصب بَغْتة على كرسـيّه ونادى ابنه أبا فارس، وأمره بالذهاب فَوْرا مع جيش لنجـدة حضرتـه ومَنـعِ الأعداء مـن دخولهـا»[2] غير أن هـؤلاء كانوا سبقوه. وقد كان مع أبي فارس، عند وصوله، مقاتلون تسارعوا من كل المناطق، ومِن بينهم العرب وسـدويكش، وسـكان جبال كتامة والقبائل المجـاورة وجبـال زواوة. ووصل في آن واحد بعضٌ مـن بني عبد الواد وبني توجين[3].

(*) فـي النـص كجان (guedjan)، ويقرح مترجمه Féraud تسـمية إيكجـان (Iguedjan) الواقعة شمال سـطيف، في أرض بني سليمان الجبلية، غير بعيد عن قمّة بوعنداس (Bouandas؛ (op.cit., P.254, note 2: Abou Ali Ibrahim el- Mérini).

1) op.cit., P.251 : Abou-Ali Ibrahim el- Mérini.

2) Ibid.

3) Ibid, P.253



ودخل وَلدَا السلطان: أبو فارس وأبو عبد الله، وسط كل هؤلاء المجاهدين، مصحوبين بأربعة من أهم علماء المدينة(*) وكان عدد المجاهدين كبيرا لدرجة جعلت تقديرَه أمرا مستحيلا، وكانوا جميعا معسكرين في البساتين(1) الواقعة في أعلا المدينة، بين ما صار يسمى، بعد الاحتلال الفرنسي، القصبة وروضة العلف (parc à fourrage) والسهل الصغير (petite plaine). وكان الأولياء والفقهاء وأتقياء المدينة يحثونهم على الجهاد لتهييج شجاعتهم. فلم تَطُل مدة انتظار الهجوم على العدوّ(2).

وانقسمَ المسلمون إلى فرقتين: تسلّق أفراد إحداهما الجبل، وصعد أفراد الثانية على القوارب، وخرج وَلَدا السلطان من باب السادات وباب أمسيون، فكانا على رأس غالبية جيشهما، وبدأ الهجوم في آن واحد، برّا وبحرا؛ وكان المقاتلون ينادي بعضُهم بعضا، من كل الجهات ويتقدمون شيئا فشيئا، حتى الذروة التي تفصل حيّ سيدي عيسى عن المدينة، غير أن النصارى خرجوا فجأة من سياجهم، مرّة

(*) هؤلاء هم: أبو أحمد بن إسماعيل بن علي الكناني، الحاجب السابق للأمير إبراهيم المتوفيّ في عهد الأمير العباس، وأبو عيسى بن إبراهيم الهنتاتي، المكلف بشؤون السلطان، وأبو يوسف بن الحسن بن عليّ، من ذرية سيّد الناس، وأبو علي بن محمد، الخطيب.

(1) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : op.cit., P.253.

(2) Ibid, P. 251.



واحـدة، وصدوا المهاجمين إلى سـور المدينة، وقتلوا عددا كبيرا . بل إنهـم حاولوا الاسـتيلاء على الأبواب في عدة هجمـات متتالية؛ وهنا سـقط الكثير من المسلمين مختنقين تحت دفع الحشود الهاربة، ومن بين شـهداء الإيمان: رجال الدين وعلماء وأولياء ولاجئين أندلسـيين إلى بجاية؛ ويُقدّر أبو محمد بن عثمان التليلي، خطيب الجامع الكبير، عدد قتلى المسـلمين في هذه المعركة، التي حدثت في 25 من شـهر محرم، بأربعة آلاف وخمسمائة وعشرين قتيلا، سقطوا في المساحة المحصـورة بين بابي المدينة، وكان والدهُ من بينهم، عَثر على جثمانه قـرب البابيـن، مخترَقا بثلاث طعنات، وكان الأميـران من بين القتلى أيضا[1].

وسـرعان ما وصل خبر تلك النكسة إلى السلطان عبد العزيز، مع رواية ما جرى منذ يوم نزول النصـارى، وأُعلم أن العدو اقترح الأمان على سكان المدينة، إذا وافقوا على الخضوع لكن اللاّجئين الأندلسيين، قالوا: « نحن نعرف عن طريق التجربة، قلة الثقة في وعود هؤلاء الكفار، إنهـم خونة وغادرون لعهودهم» وهذا ما جعل سـكان بجاية يصمّمون على رفُض اقتراحات الأمان وعلى المقاومة، فأسرع السلطان بإرسال الجيش الذي بقي معه وكذلك عرب وقبائل تلك الناحية[2].

(1) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : op.cit., PP.253 - 54.

(2) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : op.cit., P.254.

غير أن الأمير أبا بكر، الذي انسحب إلى بَلَزْمة، بالقرب من باتنة، بعد انتصار أخيه عبد العزيز عليه في قسنطينة، بمجرد أن عَلِمَ بنزول النصارى في بجاية، قصدها مع مَن كان معه من المقاتلين، فحارب مدّة ثمانية أيام، كالأسد الهائج، وكان يمنع السكان من الفرار لكي يجبرهم على المقاومة، ودامت تلك الوضعية حتى اليوم الخامس من شهر صفر سنة 915هـ./ 25 مايو 1509م. وكان الانشقاق سائدا بين جيشي السلطان عبد العزيز وأخيه أبي بكر، فانتهز النصارى فُرصتَه للدخول في شوارع المدينة، وفي اليوم التالي قاموا بهجوم عام: برًّا وبحرًّا، وأوشك الأمير أبو بكر، الذي كان انسحب قرب قصر الكوكب(*)، أن يقع بين أيدي العدوّ. واسْتشهد كثير من جنوده دفاعا عنه، إلاّ أنه تمكن من مغادرة المدينة[1].

وترك سكان بجاية مساكنهم، مع طلوع النهار، منذ أن لاحظوا أن النصارى سيطروا على أعلا الجبل، ورأوا أنه لم يعد هناك أي أمل في نجاتهم، وأنه لم يبق أمامهم إلا الهروب مع نسائهم وأبنائهم. وكان من بين الفارين الشيخ ناصر المريني، رئيس وزراء السلطان، الذي اصطحب معه عائلة عبد العزيز وأوصلها في أمان إلى جبل بني عبد الجبار(**) وفرّ

(*) تحوّل في العهد العثماني إلى برج موسى وفي العد الفرنسي إلى حصن بارال (Féraud في op.cit., P.255, note2 : el- Mérini).

(1) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : op.cit., PP.254 - 55.

(**) تقع أرض بني عبد الجبار على الضفة اليُمنى لنهر الصومام، على بعد ست فراسخ من بجاية تقريبا (Abou-Ali Ibrahim el- Mérini في Féraud: op.cit., P.255, note3)؛ يقال إن البجائيين، وهم يبتعدون عن مدينتهم كانوا مجتمعين، فسماهم العرب عندئذ الميعاد (اجتماع الرجال Féraud: Ibid, P.256).



كذلك سي موفق، وسي صالح، وسي الحملاوي، أبناء الأمير إبراهيم الذي قتله ابن عمه السلطان عبد العزيز. وكان هؤلاء الثلاثة أَسرى في سجن المدينة فانتهزوا فرصة وجود الأمير أبي بكر لطلب تحريرهم وخرجوا فعلا، وحاربوا إلى جانب حاميهم حتى اللحظة الأخيرة من المقاومة. ولجأت مجموعة من سكان بجاية إلى جبال نواحي جيجل، ومنذ ذلك الوقت أُطلقت على هذا الجبل تسمية جبل بني ميعاد(*)، ولجأ البعض الآخر إلى زواوة، ومن بينهم كل الذين كان لهم عمل بدار الضرب لخوفهم من حقد أبي بكر، لوقوفهم ضدّه، ذات يوم، برفضهم ضرب السكة باسمه، وهناك من لجأ أخيرا إلى أولاد يعلى العجيسي، شرق جبل فرقان (Fergan)[1].

وهكذا يظهر أن سكان بجاية غادروها لكن ليس بالبساطة التي ذكرها كل من كَرْبَخَال مارمول والحسن الوزان اللّذان يتفقان على القول بأنهم بادروا إلى الفرار بمجرّد أن فوجئوا بنزول الجنود الإسبان، ولم يتّفقا حتى عند نقطة النزول هذه، وما إذا كانت في المدينة نفسها أم في أطرافها[2]، فلا تفاصيل ولا دقة في كلامهما، بل إن كلام الوزان عن بجاية يحمل تناقضا صارخا: فهو يعتبر، من

(*) يقال إن البجائين، وهم يبتعدون عن مدينتهم كانوا مجتمعين، فسماهم العرب عندئذ الميعاد (اجتماع الرجال) (Ibid, P.256: Féraud).

(1) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : op.cit., PP.255 - 56.

(2) أنظر: إفريقيا، ص 377؛ وصف إفريقيا، ص 51.



جهة، أهلها «على قدر عظيم من الغنى، يسلّحون (يجهزون) العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا ...»[1] وهذا ولا شك ما جعله يصفهم بالطِّيبة والميل «إلى المرح والموسيقى والرقص، لاسيما منهم الأمراء، الذين لم يشهروا (يشنوا) الحرب قط على أحد. وقد ظهر جُبنهم جليا إلى حدّ أنّهم، عندما جاءهم الكونت بيير (بيدري) نافارو، ببعض سفن النقل، فروا جميعا إلى الجبل، وعلى رأسهم المَلِك...»[2]. ويقول، في نفس المكان، من جهة أخرى، إن هؤلاء السكان يعيشون «في فقر، لأنّ الأراضي الزراعية غير خصبة، لا تستطيع أن تنتج حبوبا، لكنهم مغمورون بالثّمار، إذ يحيط بالمدينة عدد لا يُحصى من الحدائق (البساتين) العامرة بالأشجار...»[3].

علاقة الغزو الإسباني لبجاية بالقرصنة.

إنّ هذا الكلام المتناقض، في وصف سكان بجاية بالغناء والفقر، في آن واحد، ثم الاقتصار على ذكر سلبيات الغناء في سلوكهم، يفرض على المتمعن فيه أن يأخذه بتحفّظ كبير، وخاصة في جانبه المتعلّق بالحكم عليهم بالجبن نتيجة ثرائهم؛ علما أن ثراءهم، إذا تمّ التسليم

(1) وصف إفريقيا، ص 50.

(2) وصف إفريقيا، ص 51.

(3) نفس المصدر، ص 50.



به. كان ناتجا عن القرصنة، والقرصنة يمارسها الشجعان من الناس وليس جُبناؤهم، بصرف النظر عن الناحية الأخلاقية.

ويذكر مارمول، بدوره، أن أرض جهات بجاية «لا تأتي... بقمح كثير، ومع ذلك، فالسكان في سعة من عيشهم بفضل ما لهم من التجارة مع ...وربا، وكان عبد العزيز، أمير بجاية لينا ...، ولذلك عاش أهلها في السلم المديد إلى أن دفعهم الطمع في الإثراء إلى تجهيز سفن حربية صغيرة للقيام بالقرصنة في سواحل البلاد المسيحية، فأدّى ذلك إلى قيام المَلِك فيرديناند بالرّد على ما يقومون به من الإفساد، فأرسل دون بيدري نافار فاستولى على مدينتهم»[1].

وما يمكن ملاحظته على كلام مارمول هذا هو اعتباره أن بداية ممارسة سكان بجاية للقرصنة كانت في عهد السلطان عبد العزيز الذي وقع فيه الاحتلال الاسباني لبجاية، وأن هدفه كان الطمع في الإثراء، وهذا غير صحيح، لأن ابن خلدون تحدث عنها في حياته، نهاية القرن الرابع عشر، أي قبل أكثر من قرن، من ذلك التاريخ، كما تبيّن سابقا، وكان هدفها: في بداية ممارستها، على الأقل، هو إبعاد خطر المدّ الاسباني المسيحي على بلاد المغرب، بعدما أفلحت حركة الرّوكانكيسته في تحقيق هدفها المتمثل في القضاء على الإسلام بالأندلس، وطرد

1 وصف إفريقيا، ص 377.

المتمسّكين به منها أو قتلهم؛ وممّا لا شك فيه أن القرصنة تسببت، بعد انتشـارها في انكماش التجـارة البحرية بدرجة كبيرة، بسـبب ما كان التجـار، يتعرّضون لـه من المخاطر، في البحار، علـى أيدي القراصنة. وبالتالي فإن المدن التي كانت، مثل بجاية، تعتمد في اقتصادها، بدرجة كبيـرة، على تلك التجارة، لابد وأنها تأثرت سـلبا بهـذه الظاهرة، ومن هنـا تأتي ضرورة إيجـاد بديل لها، فكان هذا البديل هـو إيرادات هذه القرصنة ذاتها، رغم ما كانت تُسبّبه من مشاكل أمنية لكل الدول الواقعة على السواحل البحرية؛ ومن المنطقي أن تحاول أقوى تلك الدوّل إيجاد حلّ لما كانت تعانيه، بما في ذلك غزو المناطق التي كانت تُشكّل بُؤرًا لتلك الظاهرة، وفي هذا الإطار يمكن وضع احتلال إسبانيا لبجاية.

أهمية كتاب أبي علي المريني في علاج أحداث ذلك الغزو.

مع أن مارمول لا يتّهم، مثل الوزان، سكان بجاية بالجُبن إلاّ أنه يتفق معه في القول بأن الإسـبان دخلوا بدون أية مقاومـة[1] ولم يتعرّض أي منهما لأي تفصيل من تفاصيل ذلك الحدث التاريخي الهام، عكس أبي علي المريني الذي أفاض في وصف ما جرى، وكثيرا ما كان يوثق كلامه. بطريقة عصره، أي بذكر روايات الأشخاص الذين عايشوا تلك الوقائع، وهم شـهود عيان، يعرفهم شـخصيا، ومـن بينهم والده، الـذي روى له بأنّه كان بمعية السـلطان عبد العزيز، في قسنطينة، عندما وصله خبر

(1) قارن مارمول: المصدر السابق، 377؛ الوزان، المصدر السابق، ص 51.



نزول «الكفار»، في بجاية[1]. وبهذه الشهادة يمكن ترجيح خبره عن خبر توزان الذي أفاد أنّ السـلطان كان، عند نزول الإسبان، ببجاية وفرّ مع الهاربين «الجبناء مثله»[2]، وهناك وثائق أخرى استشهد بها عند تأليف كتابـه، ومنها مـا نقله عن كتاب أبي محمد بـن عبد الحق عن تحصين (العدو) الإسـبان في خنادق ديار سـيدي عيسـى، مدّة عشـرين يوما، بعد نزولهم ومـا تعرّضوا له من مقاومة هناك[3]؛ وما رواه له أبو محمد عثمـان التليلي، خطيب الجامع الكبير عن عدد قتلى المعركة التي دارت بـين هؤلاء المحتلين وبين الأمير أبي فارس بن السـلطان عبد العزيز[4]. كما يتبين أن أبا علي المريني عالج المسـألة بكل موضوعية، فلا يُلاحظ على أسـلوبه، باستثناء استخدامه لبعض المصطلحات كالكفار والعدوّ، أي ميل لطرف على حساب الطرف الآخر.

ومن ثم يمكن إعطاء مصداقية كبيرة لما كتبه، وتلخيصه كما يلي: نزل الإسبان، خارج بجاية سنة 915هـ./ 1509 - 1510م.، أسفل المكان الذي كان يضم ضريح سيدي عيسى السبوكي، وأخذوا يتحصنون في غياب السلطان عبد العزيز الذي كان بقسنطينة منشغلا في حرب ضد أخيه أبي بكر، وطلبوا من سكانها الاستسلام فرفضوا وقاوموهم، بما كانت

1. op.cit., P.251.

2. أنظر: نفس المصدر، ص 51.

3. Abou-Ali Ibrahim el- Mérini: op.cit., PP.252 - 53.

4. Ibid, P.254

لديهم من إمكانيات محدودة، دون جدوى، إلى أن وصلتهم النجدة التي أرسلها إليهم السلطان من قسنطينة، بقيادة ابنه أبي فارس، فخاضت معركة كبيرة ضد الغُزاة إلاّ أن هؤلاء كبّدوها هزيمة نكراء، في الوقت الـذي حل فيه ببجايــة الأمير أبو بكر، شـقيق السـلطان عبد العزيز وخصمــه، في آن واحــد، قادما من بَلَزْمة التي انسـحب إليها، بعد ما هزمه أخوه، في قسـنطينة وانتهز النصارى فرصة الشّـقاق الذي كان واقعا بين جَيْشــي الأخوين، فدخلوا المدينة، وفــي الغد، قاموا بهجوم عام، برًا وبحرًا، وألحقوا هزيمة كاسـحة بجيش أبي بكر الذي لم ينجُ من القتل إلاّ بأعجوبة؛ وهنا فرّ سكان بجاية في كل الاتّجاهات.

جهود السلطان أبي بكر في مقاومة إسبان بجاية.

تمّت سـيطرة النصــارى، نهائيا، علــى بجاية، ووُضع حــدّ لمقاومة سـكانها، في صفر 915هـ./ 25 مايو 1509م.، وكان حجم الكارثة كبيرا لدرجــة أنه لم ينجو أحد من الوزراء أو كبار موظفي الحكومة. غير أن أبا بكر الراغب في مواصلة الحرب ضدّ الكفار، شرع في البحث عمن يسـتطيع تكليفُه بمراقبة حركاتهم، فوقع اختياره على الأمير مُوَفّق بن إبراهيم، فنصّبه على قيادة سـكان جبــال كتامة، وفرض عليه الإقامة قــرب زيامــة(*) وبعدئذ نصب وزيــره إبراهيم بن يونــس على الجيش

(*) ميناء صغيــر في عمــق خليــج بجايــة، فــي موقــع Choba municipium القديمة (Féraud في Op. cit., P. 337, note 1 : Abou Ali Ibrahim el- Mérini).



المكلف بمراقبة أطراف الموقع. كما تمّ حشــد جماعات بني عبد الواد وتُوجين التي بقيّت، بعد حرب أبي حمّو بوادي بجاية حيث استقرت، فوضعها في سجل الجيش النظامي بعدما فرض عليها أن تُقْسِم اليمين على محاربة النصارى ومَنْعِهم من دخول المنطقة. ووزّع على هذا الجيش أراضي حُبوس مساجد بجاية الواقعة في الوادي. فقبل الجميع الشروط التي وُضعت عليهم، واحتلوا المواقع المخصصة لهم، كما وعد سكانُ جبال زواوة بتقديم مؤازرتهم، وعيّن عليهم الأمير، سي محمد بن إدريس الهوّاري قائدا، لِمَا كان يتمتع به والده من تأثير[1].

وعندما اتّخذ كل هذه الترتيبات، علم أبو بكر أن أخاه السلطان عبد العزيز، خرج من قسنطينة، وهو في طريقه إليه. فسار على الفور لمواجهته، والتقى به في تَكَرْكات، بين بجاية وسطيف، فتقبّض عليه وقتله، وتفرّق جيشهُ الذي أضعفته تلك الحرب وأربكه، على الخصوص، الموت البائس لسلطانه، ورجع الجنود إلى الوزير يوسف بن محمد النعماني الذي تخلف في قسنطينة، فأشار عليهم بإعادة تنظيم صفوفهم ومحاربة المغتصب أبي بكر. وأمر في آن واحد، كلّ شيوخ البلاد بقتله، جزاء ما ارتكبه من جريمة في حق أخيه السلطان. ودعا الناس لمبايعة آخِرِ أبناء عبد العزيز، العبّاس الذي قدِم لتَسلّم مقاليد الحكم، خلفًا لأبيه. وبعدئذ صار أبو بكر يخشى أن تحاك ضده

1. Abou-Ali Ibrahim el- Mérini : Op. cit., PP.337 - 38.



مكيـدة، فأبعـد عنـه كلّ من لا يثق فيـه، ثم توجه علـى رأس فرقة من أنصاره الأوفياء، فدخل قسـنطينة فجأة، في شـهر ربيـع الأول، وَأمر فـي البداية، بأسـر وقتل الوزير يوسـف الذي كان علـى رأس الحركة الثائرة عليه. وتصرف بنفس الشـدة مع مشـائخ العرب الذين شاركوا فيها، بِوَضع بعضهم في السـجن. وقتل بعضهـم الآخر؛ وقرّب منه أبا سـعيد بن إبراهيم الكناني، بتوليته منصب الوزير الأول، وإرساله على رأس جيش إلى نواحي بسكرة لمراقبة نوايَا الدّواودة(*). وكان نَجّاد بن إبراهيم... في صراع مع أخيه سـليمان ... وكانا يتنافسان على رئاسة قومهما (العرب). وكان السلطان عبد العزيز، فيما مضى فضَّل سليمان بمنحه السـيطرة علـى أولاد درّاج بن ماضي والـدواودة، أولاد محمد، والنفوذ على العرب الرّحل، في آن واحد؛ وقصد نجاد، مع أولاد سـبع ابن يحي، ورئيسـهم، حينذاك، عبد الله بن علـي بن عثمان...، الوزير الكناني في معسكره بمقاوس (نقاوس؟)، وقدموا له ولاءهم؛ ورغبة من السلطان أبي بكر في وضع حدّ لتنافس كبار قادة العرب، نصّب آنذاك، على الزاب أحمد ابن محمد بن يوسـف بن مُزني حتى يُقدّم مساعدته للوزيـر؛ وطافا معًـا جبال الأوراس، فظبطا الأمـور وقبضا الجبايات. وقضت هذه الحملة على نفوذ الدواودة في تلك الجهة، ممّا وضع حدًا

(*) لأن أبا بكر كان يخشى أن يستغل أولاد يعقوب بن علي والدواودة الآخرون المناوؤون لـه، الغضبَ الذي تسـبب في انتشـاره، فـي البـلاد، النَّصْرُ الذي حققـه النصارى. للاستيلاء على قسنطينة، (Op. cit., PP.338 :Abou-Ali Ibrahim el-Mérini).



نصائسـهم. وبعدما وصل جيش الوزير إلى حـدود إفريقية، عاد إلى قسنطينة[1].

وقبل ذلك بقليل، سار السلطان أبو بكر نحو بجاية وجعل تَاكرْكات مقـرًا لقيادته العامة، ومنهـا كان يخطط للقيام بحملـة على نصارى تلك المدينة. وزارهُ في تاكركات وزيره الكناني وكل القادة العرب الذين تبعـوه، فبايعـوه هناك، وولاهم المناصب، ثم فرض عليهم أن يرسـلوا إليه، كل ثلاثة أشـهر وحدة عسـكرية لمواصلة الجهاد وكُلّف سَـعْد بن مُزنـي، الذي أوفده أبوه إلى السـلطان، لإهدائه أَحْصِنة، بتجنيد تلك الوحدات بصفة خاصة[2].

وفـي تلك الأثناء علم أبو بكر أن العباس بن السـلطان عبد العزيز، اللاّجـيء بقلعة وَنوغة(*)، صارت له علاقـة مع نصارى بجاية، وطلب منهم إعادة تنصيبه على عرش أبيه، وكان فوق ذلك، يتآمر على جذب بني عبد الواد وبني توجين سـكان الوادي، لتأييد قضيته. وكان وزيره

1 - Abou-Ali Ibrahim el- Mérini: Op. cit., PP.338 - 39.

2 - Ibid, P.339.

(*) بقيت تلك القلعة تحمل نفس الإسـم، أثناء الاحتلال الفرنسي، وهي موقع عسكري، تقيم فوق صخرة، يصعب الوصول إليه، واستخدمهُ الأمير عبد القادر، عندما حاول بسط نفوذه على مقاطعة قسنطينة، فكان يضع بتلك القلعة مؤنه ومرضاه، إلى أن استولى عليها الجيش الفرنسي Féraud: في Abou-Ali Ibrahim el- Mérini: op.cit., P.339, note 2.

ابن ناصر يقوم له بكل تلك المساعي(*). وبلغ أبا بكر خبر عزم النصارى على القيام بغارة على الوادي، فأمر كلّ قوّاته بالإستعداد للدفاع خلف الـواد الكبير، حدث هذا في شــهر ربيع الثانــي. وكان النصارى تلقوا تعزيــزات جديــدة زادت كثيــرا من أعــداد حاميتهم، فانتشــروا على أطراف المدينة، واستولوا على البساتين المحيطة بها[1].

وبعدما جمع أبو بكر جيشه ونادى الناس للجهاد، أعطى إشارة الهجوم، بنفســه، وزحف على بجاية فضايقها بِشدّة، مدة خمسين يوما، دون أن يحصل على نتيجة مفيدة. ولما اضطر إلى الانســحاب، عزم على إعادة بناء القلاع التي ســبق وأن شــيّدها أبو تاشــفين، عندما حاصر بجاية، كاليَقوتة، وحصن بَكر وتَمْزيزدَكت أي تِكْلات، والتي حطمها الســلطان أبو يحي، وانتهت الأشــغال بها، بعد ثلاثة أشــهر، فوَضَع بمختلف تلك المواقع جنودا، مع عائلاتهم، ونقل لهم، من نواحي قسنطينة، كمية كبيرة مــن الحبوب لتموينهــم. وقد احتاط بأخذ رهائن مــن كل القبائل حتى يتمكن من الاعتماد أكثر على وفائهم له، لِمَا كان يخشــاه من دســائس الأمير العباس بن عبد العزيز. وبهذه الطريقة تمكن من إزعاج النصارى باســتمرار وحتى من الدخول ليلا إلى بعض شــوارع المدينــة، وقَتْل كل

(*) وفيمــا بعد، كلّف أبو بكر الناس بملاحقتــه، فتقبض عليه وقتله وتوجّه أيضا إلى قلعــة وَنُّوغة للقبض على الأمير العباس، إلاّ أنه فشــل أمــام الصعوبات التي أبرزها حصار تلك القلعة الطبيعية (op.cit., P.340, :Abou Ali Ibrahim el-Mérini) .

(1) Ibid, P.340.



من وقع بين يديه منهم. وتَمكّن في إحدى الليالي من الاستيلاء على باب البنود، غير أن الإسبان طردوه، بعد قتال طويل، فَقَد فيه الطرفان قتلى كثيرين، وبعد فشل أبي بكر عاد نحو قسنطينة، تاركا الأمير مُوفّق لمواصلة الأعمال الحربية، بالوحدات المقيمة في قلاع الوادي[1].

بعدما سيطر النّصارى على بجاية وخرّبوها، تحصنوا فيها حتى يَصمدوا، وسَجَنوا بعض سكانها، وعاد بعضهم الآخر إليها، بعدما وافقوا على الأمان الذي وُعدوا به، وقد أَطْلَع أبو سعيد بن أحمد بن طالب الزناتي، كاتبُ الأمير موفق، أبَا علي المريني، صاحبَ المصدر الرئيسي المعتمد في هذا العمل، على رسالة قدّر فيها قائدُ النصارى عدد السكان القدماء، الذين عادوا إلى بجاية بثمانية آلاف تقريبا، بمن فيهم الرجال والنساء والأطفال، وكَاتَبَ قائدُ النصارى الأميرَ العباسَ بن السلطان عبد العزيز، يدعوه أنْ يدخل، هو نفسه، إلى عاصمة والده، وهذه الرسالة التي تضمنت شروط الخضوع مكتوبة بيد إبراهيم بن حسن الأحمري الذي كان كاتبا (للكفار)[2].

وكان الذي يقوم بالوساطة بين النصارى وبين الأمير العباس، هو أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن القاضي الغبريني، وهو رجل مطلع على كل العلوم... وتمّ القبض عليه في فايد صنهاجة، فَسَاقَهُ السلطان

(1) Abou Ali Ibrahim el- Mérini: op.cit., PP.341.

(2) Ibid, P.341 - 342.



أبـو بكـر، بعد ذلـك، إلى قسـنطينة مع ابنه، ثـم أمر بقتلهمـا بعدما احتفظ بهما عدة أشـهر في السـجن. إلاّ أن هـذه العقوبة الصارمة، لم تمنع مواصلة الدسـائس مع النصارى، بِحِدّة: فأحمد بن الحضري الصنهاجي، قائد الوحدات التي تحرس وادي بجاية، كان يدخل المدينة بكثـرة حيث كانت له علاقـات متواصلة معهم، وكان يقتـدي به يَوميًا مُوالون لهم. وعند عودة السلطان أبي بكر إلى تِكلات، تقبّض على ابن الحضري الذي وُجدت في حوزته رسائل كان يتبادلها مع الأعداء[1].

وفي تلك الأثناء انتقل السلطان من تِكلات إلى حصن بَكر، وهي قلعة تقع في المضيـق المكوّن من الوادي، غير بعيد عن المدينة، وكان ذلك في 17 من شهر صفر عام 919هـ./ 1503 – 1504م.، وعَلِم النصارى بوجوده في تلك النقطة، فأغاروا عليه حينا. وتصديًا لهذا الهجوم، تولّى الأمير موفق قيـادة مقاتلي القبائل، وتولّى أخوه الأميـر صالح، قيادة الجيش النظامي والأندلسيين وبني عبد الواد، وتمّ صدّ النصارى، بعدما ابتلتهم مصيبـة كبيـرة، إذ قتل سـتة آلاف مـن جنودهم(*)، وانسـحب الباقي

(1) Abou-Ali Ibrahim el- Mérini: Op. cit., P. 342.

(*) يتوقـف Féraud عنـد هـذه النقطـة ملاحظـا أن العـدد الـذي يقدمـه المؤلف العربـي، يبيّن أنه يكتب من وجهة النظر الإسـلامية. ويرى أنـه توجد نفس المبالغة لـدى Marmol الـذي يقـدر، مثلمـا يتبيّـن لاحقـا، أن الإسـبان، فـي قيامهـم بحملـة خطيـرة، لـم يخسـروا سـوى رجـلا واحـدا، كان خـرج عـن الصفـوف (Abou Ali el-Mérini : Revue africaine, 12ème année 1868, N° 71, P.343) غيـر أن هـذه الملاحظـة لا تبدو وجيهة لسـببين، همـا: أوّلاً أن الحملة التي تحـدث عنهاMarmol



بسرعة، وأغلقوا أبواب المدينة واختبأوا وراء الأسوار وفي القلاع، وأخذ الجيش الإسلامي مواقعه أمام تلك الأسوار، آملا السيطرة عليها ودمر العدوّ. وأمر السلطان أبو بكر بنصب خيّامه على ضفاف واد الخميس(*) لمراقبة عمليات الحصار، وإعطائها نشاطا أكبر، بحضوره(1).

انشغال السلطان أبي بكر عن الإسبان بثورات داخلية.

في الوقت الذي وصلت فيه هذه العمليات إلى هذا الحدّ تلقى أبو بكر خبرَ غزو سلطان إفريقية لأراضيه، بالاستيلاء على بونة وتبسة، وبثورة الدّواودة بالزاب، وأن ابن أخيه، العباس بن عبد العزيز، انتهز فرصة هذه الحركات فخرج من قلعة وَنّوغة، ونجح في اجتذاب سكان المسيلة وحَمزة لقصيته. ولإيقاف هذه الثورة الهائلة التي قامت ضدّه، أرسل السلطان الأميرَ العلواني لمقاومة الأمير العباس وأُرسل الأمير صالح بن إبراهيم، من جهته، إلى الزاب ضد الدواودة، ولما أَدخل هذا الأخير الزاب إلى الطاعة، جال كلّ التخوم الشرقية، ومرّ إلى بونة التي فَتَحت له أبوابها، وأقام بعض

قام بها الإسبان، حسبما قال، ليلا وفاجأوا بها سكانا لم يكونوا ينتظرونها وبالتالي فهم لم يجدوا أية مقاومة (Ibid, P.345: Abou Ali el-Mérini في: Marmol)؛ وثانيا أن أبا علي المريني سبق له وأن أعلن عن رقم قريب من هذا (4550 قتيل) من المسلمين في الهزيمة التي ألحقها الإسبان بجيش الأمير أبي فارس، دون أن يشير إلى رقم قتلى النصارى (أنظر: نفس المصدر؛ Revue Africaine, année..., N°..., PP.233 - 34)، وهو ما يدل على أن عمل هذا الكاتب يتسم بموضوعية ملحوظة.

(*) هو المجرى الذي ينطلق من ضواحي حصن كلوزيل (Fort Clauzel) الفرنسي، ويمرّ بتل سيدي خليفة لينتهي في البحر، بعد ساحة (parc) العُشب بقليل (Ibid, P.343, note2: Féraud).

(1) Ibid, PP.342 - 43.



الوقت بجبال واد الزُّهر وثابت(*) التي ثار سكانها أيضا ووصل أخيرا، إلى ميلة وهناك تلقى أمرا بإعادة الجيش أمام بجاية؛ وحاول الأمير العباس بن عبد العزيز، بعدما جمع أنصارهُ بقلعة ونُّوغة، أن يسيطر على الوادي (واد الساحل) فخاض عمّهُ أبو بكر ضدّه قتالا ضاريا، وقَتَل كلَّ الذين أرادوا المقاومة. وأَنهك الأميرَ العباس ووزيرَه ابن ناصر إلى أَقصى حدّ، فلاذا بالفرار قاصديْن جبال الزواوة، حيث كانا ينويان إيجاد ملجأ لكن الثلج الساقط بكثرة أغلق كل الطرقات، آنذاك، وكان البرد شديدا، فعاد الأمير العباس على عقبيْه، بعدما ترك حصانه مغمورا في الثلج فتقبّض عليه رجال أبي بكر الذي كان يراقب كل تحركاته وقادوه إلى رئيسهم فعفا عنه، بعدما أقسم بالخضوع الكامل لإرادة عمّه، وبقطع كل علاقاته مع النصارى، وكان ذلك عام 922هـ./ 1517م.؛ أمّا وزيره ابن ناصر ومناصره محمد بن أحمد الزناتي فكانا أقل حظا منه، إذ قُتِلا فيما بعد، ضربا بالهراوة، وكان الأخير يقوم بالاتصال بين الأمير العباس والنصارى، وكثيرا ما كان يدخل بجاية ليلا لمبادلة رسائل سيّده، وقد أدّى به أمل الحصول على العفو إلى إفشاء أسرار: فكشف عن كمية هائلة من مال كنز السلطان عبد العزيز، الذي دُفن قرب المدينة، عندما كان سكان بجاية يقاومون هجمات الجيش النّصراني(1).

(*) يقع واد الزّهر وجبال أولاد ثابت، شمال قسنطينة، بين هذا الخط والبحر . Féraud : Op. cit., P.343, note 3

(1) Abou Ali el- Mérini: op.cit., PP.342 - 43



تكليف الأمير موفق بمواصلة مقاومة الإسبان.

رغبة من السلطان أبي بكر في تعزيز الروابط التي كانت قائمة بينه وبين الأمير موفق، زوّجه ابنته ياقوتة، وفي نفس الوقت، عقد له على كل المناطق المجاورة لبجاية، حتى يواصل الحرب ضدّ النّصارى. ولهذا الغرض شُيّد حصنٌ في زيامة وأُعيد بناء قلعة زَفون، على الساحل بين بجاية ودلس، وكانت هُدمت فيما مضى، بعد حرب أبي تاشفين. وعاد أبو بكر إلى قسنطينة حيث كان دخوله الرسمي في نهاية رمضان سنة 922هـ./ 1517م؛ غير أن الأمير العباس، خان الوعد الذي قطعه على نفسه، بكف الاتصال مع النصارى وأقام معهم علاقات أخرى. وجذب لصفّه زناتة وكذلك القاضي أبا علي محمد بن إسماعيل. وتم الاتفاق على أن يتقدم النصارى من جهته، وعندئذ يمكّنهم من الانضمام لبعضهم؛ وفعلا قامت حامية بجاية بغارة لكن الأمير موفق أجبرها على العودة إلى داخل أسوارها، بعدما قتل منها أربعمائة رجل. وبعد إنجاز هذه العملية، صعد الوادي لملاحقة وحدات العباس، فأَجبرها على الابتعاد إلى الجهة الأخرى من المجرى. وبينما كان ينفذ هذا الزحف، قام النصارى بغارة جديدة، فدخلوا الوادي، وحطّموا الحصن الواقع على ضفة النهر(*)، وخربوا المناطق المجاورة[1].

(*) يحتمل أن تكون القلعة الواقعة عند بني مسعود، على الضفة اليمنى لنهر الصومام، تجاه جسر البواخر (pont de bateaux) الفرنسي، وقد شاهد Féraud آثاره، عام 1850م؛ وكانت قد دُكت نهائيا، في تلك الفترة، تقريبا، أثناء القيام بأشغال طريق سطيف Féraud في op.cit., P.347, note1 :Abou Ali el-Mérini.

(1) Ibid, P.344 sqq.



وانقطعت أخبار الأمير العباس، بعد ذلك. ويقتبس Féraud Ch. قول Berbrugger M.: إنّ إبنًا لملك بجاية السابق، كان من حاشية نائب ملك جُزر البليار Don Miguel de Gurréa، سنة 1520م؛ وكانت ابنةً لنفس السّلطان في مؤسسة La crianza في Palma de Majorque. ولا يُعرف مصير هذين الإبنين، من أبناء آخر السلاطين الأهالي لمنطقة القبائل. ويستنتج Féraud من هذه المعلومات أنّ الأمير المعني بها، لا يكون سوى الأمير العباس بن السلطان عبد العزيز الذي كان، حسب الرّواية العربية على علاقة مستمرة مع إسبان بجاية، وقد يكون استطاع، في نهاية الأمر، أن يذهب إليهم[1].

ومن الغريب بل من الطريف، أن يحاول Féraud إلباس هذا الأمير لباس الرواية التي نسج خيوطها كريخال مارمول، ومفادها أنّ ملكا (roy) مسلما (maure)، ابن أخي (neveu) الملك الذي ترك بجاية بعدما سيطر عليها، قبل ذلك عن طريق الخيانة. جاءها لتسليم نفسه يوم عيد الفصح. والحال أنّ هذا الأمير (prince) كان تَعرّض لخيانة عمّه عندما خرج لجمع جبايات بعض القرى المتمرّدة، وتركه ليدير أمور البلد أثناء غيابه، فثار العم مع السّكان، وتقبّض على ابن أخيه، عند عودته، ففقأ (creva) له عينيه، أي أنّه أعماه (le fit aveuglé) بواسطة حوض نحاس محتدم، وبقي سجينا إلى أن قدم Pierre de navarre.

(1) Ibid, P.347, note 2.



وبما أنّ الجميع كان يفرّ، فُكَّ قيده وَفَرّ، لكنه عاد بعد أيام، مع ثمانية أو عشــرة فرسان ومثلهم من المُشاة، بصحبته شيخٌ عمرُه ثمانية عشر سنة، وهو أحد أصدقائه. وكان يحمل راية بيضاء، من أجل سلامته، واستُقبل بحفاوة من طرف الكونت الذي أحيط علما بمغامرته، ولعِلْمِه أن عينيه لم تفقآ، عَرَضه على جراحي الأسطول الذين قطعوا له لحم (la chair) الجفنــين اللذيــن ألصقهما له احتدام النــار بحيث أعيد له بصرُه على الفور[1].

ولكــي لا يكون جَحُودا لجميل كبير إلى هــذا الحدّ، أَخبرَهم أن عمه والسكان كانوا مختبئــين بين جبال، واقترح أن يكــون دليلا لمفاجأتهم، فابتهج الكونت، وأرســل بســرعة اِثنين من رجاله مع اِثنين من المسلمين (maures) للتعرف على المكان. وهذا ما فعلا، وأخبرا أنّ الفارين ليســوا سوى على بُعد ســبعة فراســخ، عن بجاية، وأنهم في مروج واسعة بين جبال، حيث يمكن اقتحامها من الطريق الذي رأياه. وذهب الكونت ليلا، مع خمس عشــرة مائة جنديا، برفقة هذا الأمير وحاشيته، وعند بداية طلوع النهار، وصل إلى تلك المــروج، دون أن يلتقي أحدا. وبدا لمن كانوا في مقدمة جيشــه (الكولونيل Diégo de véra و Samaniégo) أن أشجارا هي خيام العرب، فأعطوا إشارة الإنذار، لكن الكونت انتبه لخطئهم وراح يَصــرُخ القديس جاك (fit aussitôt crier saint jacques)، وجرى مباشــرة

1 - Abou Ali el-Mérini : op.cit., P.340, note1؛ أنظر أيضا مارمول: إفريقيا، ص 377 – 378.

نحـو الخيام التي كانت على بُعد حوالي نصف فرسـخ من هناك. وكان المسلمون الذين أُخطروا شرعوا بالفرار لكنهم لُوحقوا حتى أعلا الجبل، وتم قتل وأسر العديد منهم أثناء تلك المطاردة، وأُحرق المعسكر، بعد جمع كل القطعان والغنيمة: إذْ أُخذ تسعمائة جمل، ومثلها من الأبقار، وعدد من الخيـول والبغال والغنم، وقَدْرٌ كبير من الذهب والفضة والأقمشـة الحريرية، وكلّ مُعِدَّات السـلطان وجواهره. وانسحب الكونت بكل هذه الغنائم، بقدر كبير من النظام، ولم يصبه أي إخفاق من المسلمين الذين كانوا يناوشـونه، من كلّ النواحي، فقَتَل عددًا منهم، دون أن يَفقِد سـوى جنديا واحدا كان قد خرج عن صفه. وعند اقترابه من المدينة اسـتقبله الأسقف الجديد مع كهنته وهم ينشدون أنت الرب (le Te deum) وأقيمت أفراح كبيرة، رغم أن الجنود كانوا مُتْعَبَين، لأنّهم عبوروا نهرين عميقين جدًّا، ومنهما الواد الكبير الذي ارتفعت مياهه على غير العادة، بسـبب ذوبان الثلوج، آنذاك، كما أنّ السهل الذي عثروا فيه على المسلمين، كان محاطا بالعوسـج ومختلف الأشـواك (de ronces et de chardons)، في شكل شراك (pièges) أزعجتهم كثيرا، وكان أسرى المسلمين يقولون بأنهم أعتقدوا أن هذا الحاجز كافٍ لإيقاف النصارى. وبعدئذ صار المسلمون يأتون إلى حدّ بجاية، يناوشون ويُنصّبون كمائن يكون فيها قتلى وجرحى من الطرفين إلاّ أنه لم يحدث ما يستحق الذّكر[1].

(1) Féraud: في Abou Ali el-Mérini: op.cit., PP.345 - 46؛ أنظر أيضا، مارمول: إفريقيا. ص 378 – 379؛ يلاحـظ Féraud، وهو مترجم محترف، في جيش الحملة الفرنسـية=



وعند إمعان النظر فيما ورد من كلام مارمول، هنا، لا يجد المتأمل فيه أي وجه شبه بينه وبين ما أورده أبو علي المريني، من معلومات عن الأمير العباس بن السلطان عبد العزيز، الذي كان، أثناء نزول الإسبان ببجاية، مع أبيه في قسنطينة، ولم يكن في السجن، وهو ابن السلطان الذي كان يحكم بجاية، قبل غزوها، وهو الذي كانت له محاولات لإقامة علاقة مع الإسبان، سعيا منه لاِسترداد مُلك والده عليها، وفي إطار التنافس بينه وبين عمّه أبي بكر على السيادة. غير أنّ أوصاف مارمول للسلطان (Roy) أو الأمير الذي أعماه عمه، بواسطة حوض نحاس محتدم، لا تنطبق عليه أبدًا، كما أنّ اتصاله بالنصارى لم يكن، حسب أبي علي المريني، مباشرا، بل عن طريق وسيط هو محمد بن أحمد الزناتي، كما تبيّن سابقا.

أمّا الأمراء الذين كانوا مسجونين في بجاية، فهم: سي موفق وسي صالح وسي الحملاوي، أبناء الأمير إبراهيم، بن عمّ السلطان عبد العزيز الذي سجنهم بعد قتل أبيهم، في إطار الصراعات التي كانت

=التي قامت باحتلال الجزائر 1830، كما هو معروف، أن نص Marmol الذي اقتبسه هنا ترجمه سيد أبلانكور (le sieur d'Ablancourt)، وأن ترجمة هذا الأخير عادة ما تكون خاطئة ومبتورة؛ ويلاحظ نفس المؤلف، في مكان آخر أن سيد أبلانكور الذي يستفطع التواريخ، على ما يبدو، أسقط تاريخ هذه الحملة الذي جعله مارمول في 13 إبريل 1510م.، وذكر أن قائدي مقدّمتها هما: العقيد Samaniégo و Diégo de vera، في حين أن مارمول أشار إلى «el colonel Samaniégo y Diégo de vera» بصرف النظر عن أخطاء أخرى... (Féraud: في op.cit.,:Abou Ali el-Mérini P.346, note1؛ مع ملاحظة أن الترجمة العربية، عن الفرنسية، لنص مارمول، لم تسجل عليها مثل هذه المآخذ، إضافة إلى أنها غير دقيقة بالمرة (أنظر مارمول: المصدر السابق، ص 377 فما بعدها).

واستمرّت قائمة على السلطة في منطقتنا، إلى يومنا. وقد لعب منهم الأمير موفق دورا رئيسيا في مقاومة الإسبان وازعاجهم، بحيث أنه كان الساعد الأيمن لعمه أبي بكر في تلك العمليات، وكان أخوه صالح إلى جانبه، في تلك المهمة، أمّا الآخ الثالث الحملاوي فلم يَبرُز له أي نشاط، لامَعَ ولا ضِدّ عمه أبي بكر.

ولا يوجد، فيما كتبه أبو علي المريني، أيُّ أثر لهذا الأمير الذي استولى على حكم بجاية عن طريق الخيانة، ثم تعرض بدوره إلى خيانة عمّه، فأخذ منه الحكم وأعماه بواسطة حوض نحاس محتدم. مما يوحي أن صاحب هذه الأسطورة نسجها قصد إبراز فكرة الخيانة لدى هؤلاء الناس، فلا ثقة فيهم، وكذلك وَحْشيّة تعاملهم مع بعضهم البعض، مقابل إنْسانية أعدائهم المتمثلين في قائد الحملة الإسبانية، Pierre de Navarre الذي رفق به وأعاد إليه بصره. لكن هناك أسئلة تطرح نفسها، عند الإمعان في تفاصيل هذه الأسطورة، وهي: هل بإمكان وضع وجه إنسان في حوض نحاس محتدم، تصاب فيه جَفنَا عينيه بجروح بليغة لدرجة أنهما تُلحمان، بعد شفاء تلك الجروح، دون أن يصاب البصر ذاته بأي أذى؟ وماذا كان مصير بقية أعضاء الوجه، من أنفٍ وشفتين وأُذنين وشعر الرأس وحتى المُخ الموجود في جمجمته، والشرايين والأوردة التي تغذيها جميعا بالدم المطلوب لتأدية وظائفها؟ وحتى عند افتراض أن هذه الأمور كلها بقيت سليمة، فهل بمقدور



طب بداية القرن السادس عشر الميلادي علاج مثل هذه الحالة، بما كان يمتلك من وسائل ومعارف؟

إنّ صعوبة الإجابة عن هذه الأسئلة، تُبعد احتمال وقوع أحداث تلك القصة، وهو ما لا يعني أنّ محاولات التواصل، وربما التعاون مع العدو لم تقع، والأمثلة التي ساقها أبو علي المريني، في هذا الباب كثيرة، فالأمر لم يقتصر على الأمير العباس وحده، والشخصيات البارزة التي كانت تلعب دور الوساطة بين الطرفين، بل إن قائد الوحدات العسكرية التي كلفها السلطان أبو بكر بحراسة وادي بجاية، أحمد بن الحضري الصنهاجي، كثيرا ما كان يتردّد على المدينة، وكان الكثير من الناس يقتدون به، مما يعني أن هناك محاولات لإقامة علاقة مع المحتلّين الإسبان، من أحد الطرفين المتصارعين على السلطة في بجاية، مع ملاحظة أنهما من عائلة واحدة. فهل تغيّر شيء، منذ ذلك الوقت، في الذهنية السياسية لأبناء منطقتنا؟

واللاّفت للانتباه أن مارمول لم يتحدث، في نصه هذا، سوى عن غارة واحدة، قام بها الإسبان، انطلاقا من بجاية، على الأرض المحيطة بها، ويلاحِظُ أن المسلمين صاروا يناوشونهم، بعدها وينصّبون لهم كمائن تقيّد حركتهم، ويضيف في مكان آخر أن بجاية بقيت خَمسا وثلاثين سنة تحت حكم ملوك قشتالة «الذين أقاموا فيها جالية من خمسمائة جنديّ، موزعين على ثلاث قلاع، ينطلقون منها أحيانا،

للقيام بغارات داخل البلاد، يجلبون الرقيق والقطعان؛ لكن هذا نادرٌ، بسبب أنّ سكان تلك الجبال محاربون، يَطوفون المناطق المجاورة مع عدد من حملة البنادق (arqubusiers)»[1]، أي من القنّاصة، إلاّ أنّ أبا عليّ المريني، الذي لا يتعرض لذكر عدد جنود حاميتهم، يشير إلى قيامهم بثلاث غارات، أوّلها: عندما علموا، في 17 صفر 919هـ./ 1503 – 1504م.، بوجود السلطان أبي بكر في حصن بِكُر، قرب بجاية. فحاولوا الانقضاض عليه، لكن جيشه كبّدهم خسائر فادحة فَقَتل منهم عددا كبيرا ولم يخلّص الفارين منهم سوى التحصن بأسوار المدينة وقلاعها.

وكانت الثانية: بالتنسيق مع الأمير العباس بن السلطان عبد العزيز. غير أن الأمير مُوفّق، تصدى لها وأجبرها على العودة من حيث أتت. بعدما قتل منها 400 رجل.

أمّا الغارة الثالثة والأخيرة، فهي الغارة التي قاموا بها، بعد ذلك مباشرة، أثناء انشغال جيش مُوفّق بمطاردة عميلهم وحليفهم العباس. فعندئذ خرجوا من المدينة ودخلوا الوادي، فحطموا الحصن الواقع على ضفة النهر، وخربوا المناطق المجاورة، وعادوا دون أن يعترض أحد طريقهم، وقد تكون هذه الغارة، التي حققت هذا النصر.

(1) قارن Féreaud في: op.cit., P.349, note1: Abou Ali el-Mérini؛ مارمول: المصدر السابق، ص 379.



هي التي حضيّت باهتمام مارمول، أمّا الغارتان الأُخريان، فلم تلقيا منه اهتمامًا، علما أن المريني لم يشر، في حديثه عن الغارة الثالثة، إلى الغنائم والأسرى الذين ذكرهم مارمول في حديثه عن الغارة التي تعرّض لها، فلو فعل لساعد كثيرا على تأكيد هذه الفرضية.

تقليص الإسبان لمساحة بجاية واستيلاء الأتراك عليها.

وعلى كلّ، يبدو أن الضربات المؤلمة التي تلقاها الإسبان من المقاومة، جعلتهم يُقدِمون سنة 931هـ./ 1524م.، على تحطيم منارة قصر اللؤلؤة وتخريب قصر الكوكب(*) وبنوا في مكان هذا الأخير قلعة(**). وأقاموا، قبل ذلك، سورا اتصل، من جهة، بقلعة البرج الكبيرة (القصبة)، مرورا من أعلا الجنان المسمى جنان رافع؛ ومن الجهة الأخرى، فإنه كان يمرّ غير بعيد عن مسجد الشيخ عبد الله الشريف، عن طريق قصر اللؤلؤة ليصل إلى البحر، محاذيا مسجد المرجاني، من ناحيته الجنوبية(1).

---

*) شحنت كل الأشياء الثمينة، لهذين القصرين، كالأعمدة والرخام والخَزف والخشب المنحوت، لتُنقَل إلى إسبانيا. لكن السفن التي كانت تحملها تعرضت، بمجرّد خروجها من الميناء، إلى عاصفة هوجاء أغرقت غالبيتَها في البحر. op.cit., P.347 : Abou Ali el-Mérini

**) أنظر: الصورة رقم 9، ص 375.

1) أنظر: الخريطة رقم 4، ص 382.



وقـد تبيّـن لـFéraud ما تركه الإسـبان من مسـاحة بجاية بالضبط. متخلّين عن السـور الشـرقي (enceinte sarrasine) الذي تتطلب سـعته الهائلـة تواجـد حامية كبيـرة، وعوّضوه بسـور جديد أصغـر منه يمرّ بالأماكـن الآتية (المعروفة في بداية العهد الفرنسـي): من حصن بَارَال (قصر الكوكب)، إلى فوق البسـاتين الواقعة أسـفل بابِ الفوقة (جنان رافع) وتصل إلى القصبة. ومن جهة أخرى، فإن هذا السور الذي ينطلق أيضا من حصن بارال، كان يتجه نحو مسجد سيدي عبد الله الشريف، الذي كان واقعا بين بريجة وشـعبة (ravin) الأعين الخمس، مرورا بحي قصـر اللؤلؤة (عند الثكنة والمستشـفى العسـكري، تقريبا) ويصل، في نهاية الأمر إلى البحر، عند حصن عبد القادر (Vergelette)، تاركا، على الناحية اليُسرى، مسجد المرجاني (الذي كان إلى اليسار من طريق إدارة الميناء)، وهو تقريبا نفس السور الذي احتفظت به فرنسا بعد احتلالها لبجاية عام 1833م.، بل إن السور الفرنسي أصغر من ذلك[1].

إنّ وصف Féraud لسور بجاية، في بداية عهد الاحتلال الفرنسي، الذي بدا شبه متطابق مع وصف أبي علي المريني للتعديل الذي أدخله الإسبان عليه، يعطي الدليل على مصداقية ما كان يكتبه هذا الأخير، وعلى دقته. ومِن ثمّ موافقته فيما أضاف، من أنَّ كلَّ ما كان خارج هذا السور الجديد، من المدينة القديمة أُهمل وخُرّب. وأن النصارى قلصوا ممتلكاتهم بسـبب

(1) Féraud : في op.cit., P.347, note3: Abou Ali el-Mérin؛ أنظر الصورة رقم 10، ص 443.



المتاعب التي كانت تسببها لهم هُجومات السلطان أبي بكر المتكررة. فمدينة بجاية التي كان بها اثنا وسبعون مسجدًا وجامعا (oratoire)، لم يبق بها، بعدئذ، سوى ثلاثة وخمسين، أمّا الباقي فتُرك وانهار[1].

إستيلاء الأتراك العثمانيين على مدينة بجاية.

حسب أبي علي المريني، فإن السلطان أبا بكر، عندما علم أن النصارى هدّموا نصف المدينة(*)، وأنهم حصّنوا أنفسهم، بقوّة، في النصف الباقي، أمر مُوفق بتجنّب القيام بأية محاولة ضدّهم، لأن الإخفاقات المتتالية أفشلته. وفي سنة 917هـ./ 1512م.، دخل في اتصال مع التركي إبراهيم بن عثمان، المُلقّب بخير الدين، فجعله يهاجم بجاية بحرا، في حين هاجمها الأمير موفق بَرًّا، غير أن المهاجمين فشلوا، وقُتل الأمير صالح، شقيق موفق، في تلك المعركة، وكذلك الشيخ علي الهَنّاني[2].

وبعد ثلاث سنوات أعاد خير الدين الكَرة، مرة أخرى، فلم يحصل على نتيجة أفضل من الأولى. وبقيت بجاية إذًا، بين أيدي النصارى

(1 Abou Ali el-Mérini : op.cit., P.348.

(*) قياسا بعدد المساجد والجوامع الواقعة داخل السور الجديد وخارجه، فإن الجزء المستغنى عنه من المدينة وبقي عرضة للإنهيار، يقارب ثلث مدينة بجاية آنذاك.

(2) Abou Ali el-Mérini : op.cit., P.348؛ حسب الغزوات فقد ساند خير الدين في تلك العملية، عشرون ألفا من رجال القبائل، بقيادة أوليائهم أنظر. Féraud : في Ibid, P.348, note1.

إلى سنة 962هـ./ 1554 – 1555م.، عندما قدم أمير الأتراك، الباشا صالح بن جعفر، من الجزائر للاستيلاء عليها، وانضم أبو عبد الله. ابن أخي الأمير موفق، مع وحدات عديدة، إلى الجيش الذي جاء به بحرًا، وحاصرا معا المدينة لمدة خمس وعشرين يوما تقريبا، ولجأ جميع النصارى إلى الحصن الكبير الواقع على ضفة البحر؛ ولما أُنهكوا إلى أقصى حد، طلب بعضهم الدخول في الإسلام، وقُتل الباقون[1].

ويَختلف مارمول عن أبي علي المريني، في رواية تفاصيل الأحداث التي أدت إلى استيلاء الأتراك على بجاية: فهو يستهل كلامه بالحديث عن حملة صالح رايس (الباشا صالح بن جعفر) عليها، مباشرة، قائلا: «وأخيرا، جاء صالح رايس، حاكم مدينة الجزائر، عام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين، لحصار بجاية برًّا، مع أكثر من أربعين ألف مقاتل. من بينهم عشرة آلاف فارس وقَذّاف (mousquetaires et arbalétriers) ومن البحر، مع اثنتين وعشرين سَفينة حربية (fustes ou galères). وبعد استيلائه على الحصن الإمبراطوري الذي تركه الإسبان، لأنهم لم يستطيعوا الدفاع عنه جيّدا، حاصر حصن (Château) البحر الذي لم يكن فيه سوى أربعين جنديا، وبعدما قاتله مدة خمسة أيام، اقتحمه: وبعدئذ حاصر الحصن الكبير حيث اختبأ القائد دُونْ أَلْفُونْس دُو بيرالت (Don Alphonse de Peralte)، مع بقية الجيش، وبعد قِتَاله (l'ayant battu)

(1) Ibid, PP.348 - 49.



مدة اثنين وعشرين يوما، لم يَعُد يقوى على المقاومة تقريبا، فسلّم نفسه صلحا من أجل إنقاذ النســاء والأطفال، على شــرط أن تُترك له حرية المغادرة، مع كل الذين كانوا معه، وأن يُزوّد بسفن يعبر فيها إلى إسبانيا. لكــن التركي، خلافا لوعده، اســترقّ كلّ مــن كان بداخل ذلك الحصن، باستثناء دُون ألْفُونس، وعشرين رجلا من اختياره...»(1).

واللاّفــت هنــا أن Féraud، مُقتبِسَ نص مارمول هــذا، المترجَم من الإســبانية إلى الفرنســية، علّق، هذه المرة أيضا، علــى رداءة الترجمة التي أنجزها سيد أَبْلاَنْكُور (sieur d'Ablancourt)، ملاحظا عدمَ دقتها، وحذفَ صاحبها لبعض عباراتِ نصّها الأصلي، بطريقة تعسّفية، ومنها هذا النص الذي له أهميته، وهو:

«Etant donc capitaine général de cette contrée, don Alphonse de peralta, dans l'année 1555, Salah Rais, gouverneur d'Alger, à l'instigation d'un marabout appelé Sidi Mohammed el Hadj, marcha sur Bougie avec une flotte de 22 navires et une armée de terre de 40.000 hommes, parmi lesquels dix mille étaient pourvus d'armes à feu etc....»(*).

---

(1) أنظــر: Féraud في: Revue africaine, 12ème année, 1868, N°71, P. Abou Ali el–Mérini: 349, note 1؛ مارمول: المصدر السابق، ص 380.

(*) وتكــون ترجمة هذا النص إلى العربية كالآتــي: «كان القائد العام لهذا القطر، هو دون ألفونسو دو بِرالتا، في سنة 1555، عندما زحف صالح رايس، حاكم الجزائر، بـ22 سفينة، وجيش بريّ، من 40.000 رجل، من بينهم عشــرة آلاف كانت لهم أسلحة نارية الخ». Féraud في Revue africaine, 1868, 12ème année, N° 71, P. 349.



وقد لاحظ Féraud هنا أنّ المترجم المشار إليه أسقط من ترجمته تاريخ استيلاء صالح رايس على بجاية، وهو الذي حدّده مَارْمُول بـ 27 أكتوبر، يوم القديس كوم (St Côme) والقديس داميان (St Damien): وبالضرورة فإن المؤلف الأخير أخطأ في تحديده هذا، لأنّ عيدَ القديس كوم والقديس داميان يكون في 27 سبتمبر وليس في 27 أكتوبر[1].

علما أنّ الترجمة العربية، التي أنجزها محمد حجيّ وآخرون، عن الفرنسية لم يشر أصحابها إلى تلك الأخطاء، إضافة إلى أنها أقلّ دقة بكثير من الأخيرة وعليه فإن الاعتماد عليها، دون الرجوع إلى النص الأصلي، أي الإسباني، سيؤدي بمستعمليها إلى ارتكاب أخطاء تاريخية معتبرة.

ومهما يكن فإنّه يتبيّن من المقارنة بين روايتي أبي علي المريني ومارمول، أنهما اختلفتا في عدّة نقاط، منها: أن الأولى تشير إلى حصار بجاية ثلاث مرّات، من طرف الأتراك: اثنتان من طرف خير الدين والثالثة من طرف صالح بن جعفر، في حين تشير الثانية إلى حصار واحد فقط، هو حصار صالح رايس أو صالح بن جعفر؛ ولم تشر الرواية الأولى إلى عدد القوات البرية أو البحرية التي شاركت في الحصار الحاسم، في حين قدّرت الثانية عدد القوات البرية بأربعين

(1) Féraud في: Abou Ali el-Mérini, Révue africaine: 1868, 12ème année, N° 71, P. 349.



ألفا، منها عشرة آلاف فارس وقذّاف، أو من الذين كانت لهم أسلحة نارية، وكذلك اِثنتان وعشرون سفينة حربية؛ وبالنسبة للأولى فإن حصار المدينة دام 25 يوما تقريبا وبعدها اقتصر ذلك الحصار على الحصن الكبير، إلى أن أُنهك المتحصنون به، فدخل بعضهم الإسلام وقُتل الباقي؛ لكن الثانية تذكر أن الأتراك استولوا، أوّلا، على الحصن الإمبراطوري الشاغر، ثم حاصروا أربعين رجلا في حصن البحر مدة أيام، وبعد اِقتحامه انتقلوا إلى آخر حصن، وهو الحصن الكبير الذي لجأ إليه كل من تبقى من الإسبان، بمن فيهم قائدهم دون ألفانسو دوبرالت، فقاتلوهم مدة 22 يوما، فلما أُنهلكوا عقدوا صلحا مع أعدائهم، اشترطوا فيه تسليم أنفسهم، مقابل توفير سفن، والسماح لهم بالعبور فيها إلى أسبانيا، إلاّ أن القائد التركي نكث عهده، فلم يسمح بالمغادرة إلاّ للقائد الإسباني، مع عشرين نفرا، يختارهم بنفسه، واسترقَّ الباقي؛ وأخيرا فإن رواية المريني اكتفت بتحديد تاريخ وقوع هذا الحدث الهام، وهو سنة 962هـ./1554 - 1555م.، لكن مارمول حاول أن يكون دقيقا أكثر فحدّده بـ27 أكتوبر أو 27 سبتمبر1555م.

وإذا كان من الصعب، على متتبع سير هذه الأحداث، ترجيح كفّة معلومات إحدى الرّوايتين السابقتين على الأخرى، فإن هذا لا يمنع من ملاحظة مبالغة مارمول في تقديره لقوات صالح رايس (أو الباشا صالح ابن جعفر) بـ40.000 مقاتل، إضافة إلى اِثنتين وعشرين سفينة



حربية، كل هذه القوات لمجابهة «حامية من خمسمائة جندي»[1]، كانوا متحصنين في ثلاث قلاع ببجاية، وممّا لا شك فيه أن غرضه من تلك المبالغة هو إبراز شجاعة بني جلدته بالنسبة لغيرهم. كما أن كلامه عن نكث القائد التركي لشـــروط المعاهدة التي عقدها مع القائد الإسباني قبــل استســـلامه، لا يبدو وجيهـــا، بدليل انه تركه يرحل، مع عشـــرين نفـــرا، ممّن اختارهم هو نفســـه، إلى بلاده؛ فلو أنـــه نكث عهده فعلا. لما ترك هؤلاء المســـؤولين، الذين تصدوا له أكثر من غيرهم، يرحلون. ومما لا شـــك فيه أن غرض مارمول من تســـجيل خبر كهذا هو تشويه صورة العدو، حتى لا يطمئن إليه أبناء قومه مستقبلا.

---

(1) مارمول: إفريقيا، ص 379.

خاتمة



خاتمة

تقع مدينة بجاية على الضّفة الجنوبية من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، شمال شرق المغرب الأوسط، وهي على شكل مدرج فوق سفح ومنحدرات جبل أميسون أي غوراية، بمكان صلداي القديمة، قرب مصب نهر الصّومام، وتتميز أراضيها بالارتفاع، وسهولها قليلة ذات مساحات ضيقة، بين الكتلِ الجبلية وبين سفوحِها، على أطراف الوادي الكبير أي الصومام.

وكانت بجاية في عهد القرطاجيين عبارة عن ميناء، اشتهر في العهد الروماني باسم صلداي (Saldae)، وتعود أقدم إشارة إليه إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت أراضيها قبل الاحتلال الروماني تابعة لنوميدية ماسينيسا إلى أن استولى عليها يوليوس قيصر سنة 27ق.م.، وفي القرن الخامس الميلادي كانت مقرا لأسقفيّة ممثّلة في مجمع قرطاجة المسيحي؛ ولا تُعرف أوضاعها بالضبط، أثناء الفترتين: الوندالية والبيزنطية.

وقد عثر الفرنسيون، بعد احتلال بجاية، على آثار قديمة لها، وصف المترجم Féraud بعضها، ومنها: سورها وبعض معابدها

ومدرجاتها وأعمـدة من الغرانيت وتيجانها وأحجـار ناذرة وصهاريج وقنـاة لتوصيل الماء وأعمدة كانت تحملها، غير أن تلك الوثائق الأثرية لا تساعد على معرفة تطوّر صلداي العمراني أو المعماري أو السياسي أو الاقتصـادي قبل عصر الناصر بن علناس الحمادي، وبالضبط قبل سنة 460هـ./1068 – 1067م.؛ تاريخ تأسيس هذا الأخير لمدينة منسوبة إليه وهي «الناصرية» بعدما مُني جيشـه بهزيمة ألحقها به جيش ابن عمّـه تَميم بن المعز الزيري، صاحب المهدية، في موقعة سَـبيبَة سـنة 457هـ./1064م؛ وبعدمـا صـارت عاصمتُه القلعة، عرضـه لهجمات القبائل الهلالية، كان عليه أن يختار مكانا أكثر حصانة، وبالتالي أكثر أمانـا، كما فعل قبلـه الفاطميّون وبعدهم والزيريـون، عندما اختاروا مدينة المهدية.

وسـرعان ما عوّضت تسميةُ بجاية تَسـميّةَ النّاصرية، في ظروف غامضة، وشُيّدت بها قُصور، وعُمّرت بالناس الذين اعتكفوا على البناء وأحاطوا بها سـورا مدعّما بحصون، وشيدت بها دار لصناعة السفن. واسـتمر ازدهارهـا حتى صارت قبلة لطلبة العلـم، يقصدونها من كل مكان لدراسة علوم الشريعة والرياضيات والفقه والطب والفلك، على يد أكثر العلماء شهرة في ذلك العصر.

وبعد وفاة سـلطانها النّاصر وتولية ابنـه المنصور مكانَه، انتقل إلى بجايـة سـنة 483هـ./1090 – 1991م. بعسـاكره وجعلهـا عاصمة له،



وأضاف إلى قصر اللّؤلؤة، الذي شيده والده، قصرين آخرين، هما: قصر أميمون وقصر الكوكب، وكانت تلك القصور تشبه قصور القلعة في رونقتها. كما هيّأ الحماديون، آنذاك، ريّاضين بديعين متقابلين على ضفتي نهر الصومام وهما: القصر البديع والقصر الرفيع.

وقد حاول كلّ من Brunschvig وIdris رسم طبغرافيتها بمحاولتهما تحديد مواقع أبوابها وحاراتها ومساجدها وأسواقها ومقابرها.

المهم أن بجاية، صارت شريكة لمدينة القلعة، تلعب مثلها دور عاصمة الدولة الحمادية، منذ تأسيسها إلى عهد يحي بن العزيز الذي تولّى شؤون الإمارة سنة 515هـ./1121 – 1122م.، وعندئذ فقط قام بزيارة وداع سنة 543هـ./1148م إلى القلعة، ونقل ما بقي بها من نفائس إلى بجاية التي انفردت بعدها بذلك الدور، وكانت الإمارة الحمادية، في عهد الناصر بن علناس وابنه المنصور، تسيطر على المناطق المحصورة ما بين بونة شرقا وتلمسان غربا وبين بجاية شمالا وورجلان جنوبا، وكانت مدينة بجاية إلى جانب القلعة هي حاضرة المناطق المحصورة بينها، لكن الضعف الذي انتاب الدولة الحمادية أيام أميرها يحي جعلها لقمة صائغة في فم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، فاستولى عليها بسهولة كبيرة سنة 547هـ./1142 – 1143م.

وتحوّلت مدينة بجاية، عاصمة الدولة الحمادية إلى عاصمة إحدى ولايات الدولة الموحدية، يدير شؤونها السيد أبو محمد عبد الله بن



الخليفة عبد المؤمن بن علـي، ويغطي نفوذها نفس الرقعة الجغرافية التي كان يغطيها في عهد الحماديين، وعندما زارها ابن تومرت سـنة 512هـ./1118 - 1119م.، لاحظ أن لباس رجالها كان من أقراق الزراية وعمائـم الجاهليـة والفتحيات، كما لاحظ اختلاط النسـاء بالرجال. وبيـع الخمر بها، مما يعني أنها كانت تعـرف آنذاك نوعا من الإباحية في سـلوك الناس، وقد يكون هذا النمط المعيشـي هـو الذي أثّر على يحي بن العزيز، آخر أمراء بني حمّاد، فصار مستضعفا، مغلبا للنساء. مولعا بالصيد واللهو واللعب، لا ينظر في شيء من مملكته، بل فوضها لوزيـره ميمون بن حمدون. وقد يكون حدث نفس الشـيء لأبي محمد عبد الله بن عبد المؤمن الذي وُضع في نفس الظروف المعيشية، بعيدا عن رقابة والده. وقد يكون أبو محمد عبد الله من بين أبناء عبد المؤمن الذين رفع، في شـأنهم، وزيره عبد السلام الكومي، تقريرا إليه نسب إليهـم عنده قبائح الأفعـال، من الراحات والبطالات، وأنهم يشـربون الخمر إلخ...، فإذا صحت هذه التهمة بالنسـبة لوالي بجاية الموحدي الأول فإنها تكون مبررًا كافيا لقلة الإشارة إلى اسمها أيّام توليته عليها.

ولم يختلف الأمر كثيرا بالنسـبة لواليها الثاني: السـيد أبي زكرياء يحي الذي لم يترك أي أثر يُذكر، ولا يسـتبعد أن يكون قد انغمس هو الآخر في لهو بجاية، مثل أخيه عبد الله؛ أمّا في عهد واليها الثالث فقد استولى عليها بنو غانية، دون كبير عناء، لأن ذلك الوالي كان، ببساطة،



خارجها: في فسحة أو في طريقة إلى مراكش، أو أنه تمكّن من الفرار عنها، أثناء اكتساحها المفاجيء، مع أنها كانت، مثلما هو معروف، من أكثر المدن تحصينا، ممّا يوحى بأنه وقع فيما قد يكون وقع لأسلافه من انحراف. وقد تمكن الجيش الموحدي من استرجاع بجاية بقيادة السيد أبي زيد، ابن عم الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور، ابن السيد أبي حفص، في حين كانت تمرّ بأزمة خانقة، بسبب ما دار فيها من أحداث وفتن، بحيث قلّ سكانها وأقواتها وخيراتها وغَلَت أسعارها واشتدت بها المجاعة والأوبئة، لدرجة جعلت الخليفة الموحدي يستقدم قائد الجيش الذي كان يدير شؤونها ويعوّضه بأخيه السّيد أبي عبد الله.

وفي تلك الأثناء أخذ عليّ بن إسحاق بن غانية يبسط سيطرته على إفريقية وقَصَده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور، على رأس عشرين ألف مقاتل سنة 582هـ. أو 583هـ./1186 – 1187 – 1188م.، ولم يكن لبجاية أيّ دور في أحداث تلك الحملة، وقد يعود ذلك إلى ما كانت تعانيه من ظروف اجتماعية صعبة، وقبل عودته إلى حضرته ولّى عليها أبو يوسف، محمدَ بن سعيد الجنفيسي، لكن المصادر لا تشير إلى مصير واليها السابق، كما لم تشر إلى مصير هذا الأخير، بعد تعيين أبي الحسن بن السيد أبي حفص أو أبي زكرياء، أو السيد أبو زيد الحسن بن السيد أبي حفص مكانه، وهو بمرّاكش، وقد تمكّن



هــذا الوالي من القضاء على ثورة قام بها الأشــل ببــلاد الزاب، وكان يدعو لنفســه ويدّعي أنه موعود بأمره كما اســتطاع والي بجاية، بعد ذلك، أن يهزم يحي بن غانية في قســنطينة ومنعه من الإســتيلاء على بجاية، عندما حاصرها إلاّ أن هذا الأخير كبّده هزيمة نكراء بدوره.

فمــا كان على الخليفة أبي عبــد الله بن محمد الناصر الذي خلف والــده المنصــور، بعد وفاته ســنة 595هـــ./1198 – 99م.، إلاّ أنْ تحرك إلــى إفريقيــة علــى رأس حملة بحرية ســنة 601هـــ./1204 – 1205م. لمواجهة أعدائه بنفسه وتَمكّن من السيطرة على الأوضاع فيها، بفضل مساعدة أبي محمد بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص، وقبل عودته إلى حضرته سنة 604هـ./1207 – 1208م.، نصّبه على ولايتها، علما أن المصادر لم تشــر إلى أي دور تكون بجايــة قد لعبته في تلك الأحداث. وقد يرجع ســبب ذلك لمرض واليها أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمــن الذي توفــى في نفس ذلك العــام، واللاّفت أن اِســمها لم يرد ضمــن قائمة الولايــات التي عَيَّن عليها الخليفــة الناصر ولاّت جددا. واختفى اســم واليها من المصادر، ولم يعد إلى الظهور إلاّ أيام الخليفة العادل (621 – 624هـ./1124 – 1128م.)، عندما ذكر ابن خلدون أنه ولّى عليها يحــي بن الأطاس التينملّي، مكان ابن يَغمر، دون أن يقول: متى وكيف وُلي عليها هذا الأخير، وورد اسم ابن الأطاس هذا ضمن قائمة الولاة الذين بايعوا المأمون بن المنصور الذي استمرت خلافتُه إلى سنة



526هـ./1132 – 1133م.، ولم يكـن ليحي بن الأطاس هذا أيُّ ذكر، في أخبار بجاية، أثناء ولايته لها، ولا يبدو أنه فعل شيئا حتى عندما دخلها ابن غانية وتخطاها إلى تدلس (دلّس).

وكان علـى والـي إفريقية أبي محمد عبد اللـه بن أبي محمد عبد الواحـد، عندما علـم بالأمر أن يتحرك من تونـس ويلاحق ابن غانية ويصل إلى بجاية ليُسـكّن أحوالها. فهل أصبحـت آنذاك تابعة لولاية إفريقية؟ وهل فقدت أهميتها الاستراتيجية؟

أمّـا أول عمل عسـكري قام بـه الأمير أبو زكريـاء يحي الحفصي، بعـد اسـتقلاله بأمر إفريقية عـن الدولة الموحدية، فهـو قيامه بحملة على نواحيها الشـرقية المجاورة لولايته، فاسـتولى خلالها على كل من قسـنطينة وبجاية التي كان نفوذها تقلّص إلى حدّ كبير، وَبعدما بسـط أبو زكريا سـيطرته على المغرب الأوسـط، عقد علـى ولاية بجاية لابنه أبي يحي زكرياء، وأنزله بها، قبل أن يعود إلى مقرّ إمارته، تونس، وكلّفه بتسيير سائر أعمالها: من بونة وقسنطينة والجزائر والزاب وغيرها...، فعادت كما كانت عليه أيام بني حماد، وولاّهُ عهده سـنة 638هـ./1241 – 1242م.، ومع أن ولاية بجاية كانت تتوسط مناطق الصراع الذي دار بين أبي زكرياء، صاحب إفريقية، وبين يغمراسـن بن زيان صاحب تلمسان، إلاّ أنها لم تقم فيه بأي دور، ولا يعرف سبب ذلك.

ومـع أنّ والـي بجاية أبا يحـي، توفي قبل أبيـه إلاّ أن منصبه بقي شـاغرا، حتـى في بداية عهـد أخيه عبد الله الذي صـار يلقب بأمير المؤمنين المسـتنصر باللـه، ولم يعيَّن خلـفٌ له إلاّ سـنة 661هـ./1263 – 1264م.، وكان ذلـك الخلـف هو الشـيخ أبـو هلال عياد بن سـعيد الهنتاتي الذي لعب دورا دبلوماسيا بين قبائل الدواودة، من رياح، وبين المسـتنصر باللـه، مكنَّه فيه من القضاء عليهـم، كما كان أبو هلال من بين الذين ساروا على رأس جيوشهم لنجدة تونس عند تعرّضها لغزوة لويـس التاسـع الصليبيّة لكنه عاد إلـى حضرة ولايته بعد انسـحاب أولئـك الغـزاة، في مقابـل حصولهم علـى تعويضات ما خسـروه في تمويـن حملتهـم؛ ورغم أنّ أبا هـلال حاصر مدينـة الجزائر مدة عام لاستعادتها إلى الدولة الحفصية إلاّ أنه فشل في ذلك، وبعدما رفع عنها ذلـك الحصار، توفـي وهو في طريقه إلـى مقرّ ولايته عـام 673هـ./ 1274 – 75م.

وتولّـى بعـده ابنـه محمد الذي شـارك في الحملة التـي أخرجها المسـتنصر إلى الجزائر بقيادة أبي العباس ابـن أبي الأعلام وتمكنت منهـا، هذه المـرة؛ ولما خلف أبو زكرياء يحي أباه المسـتنصر بعد وفاته سـنة 675هـ./1277م.، ولقب بالواثق، اسـتبد على الدولة والسـلطان ابـن الحببّر وقلّد أخاه أبـا العُلا إدريس ولاية بجاية واسـتبّد بأمرها فأنـف محمد بـن أبي هلال من ذلك وداخل بعض بطانته فقتله سـنة



677هـ./1279م.، في حين كان الأمير أبو إسحاق، عمّ الواثق، مع يغمراسن بن زيان في تلمسان، قد أعلن رغبته في المطالبة بالحكم، فأرسل إليه وفدًا يقدّم له بيعته ويستحثه للملك، فلم يتأخر في الحضور إلى بجاية حيث تمت بيعته، وقام بأمره محمد بن أبي هلال، فتمكن من الاستيلاء على السلطة الحفصية بسهولة كبيرة، بعدما تنازل له عنها ابن أخيه الواثق، وبمجرّد ما حقق هدفه قتل وَزيره محمد بن أبي هلال، لما كان يتوقع منه من مكروه، وما عرف عنه في المساعي في الفتنة.

وبعدئذ عقد السلطان أبو إسحاق على بجاية وأعمالها، لابنه أبي فارس سنة 679هـ./1281 – 1282م.، وكان أوّل عمل قام به هو شن حملة على ابن الوزير الذي حاول الاستعانة بملك أرغونة، بيدرو الثالث، للاستقلال بقسنطينة، فهزمه وقتله، ثم عاد إلى مقرّ ولايته سنة 681هـ./1282م.، وعندما لجأ إليه والده إثر هزيمته على يد الدعيّ ابن أبي عُمارة منعه من الدخول إلى قصره، وأنزله بروض الرفيع، وأجبره على خلع نفسه لصالحه، قبل أن يحوّله إلى قصر الكوكب، وبايع الناس الابن، وتلقب بالمعتمد على الله ثم استخلف على بجاية أخاه أبا زكرياء، وزحف برُفقة عمّه أبي حفص على الدّعي الذي استولى على عاصمة الدولة الحفصية، ثم سار إليه بدوره، في صفر 682هـ./1283م.، وتصادم الطرفان بسهل مرماجنة ولم ينجو من



أصحــاب أبــي فارس إلاّ عمّه أبــو حفص، وعلم ســكان بجاية بالخبر فاضطربت أمورهم وقدّموا محمد بن إسرغين ليحكمهم باسم الدّعي الــذي صفا له الجو، وشــرع في ممارســة مقاليد الحكــم، غير أن ما ارتكبــه مــن أخطاء، في حق أنصاره من الأعــراب جعلهم يلتفون حول الأميــر أبي حفص الذي ســبق لــه وأن لجأ إلى قلعة سِــنان، بعد قتل ابــن أخيه، أبــي فارس وتمكن أبــو حفص من إلحاق هزيمــة به وقتْلِه ســنة 683هــ./1284م.، وتمت لــه الســيطرة على الدولــة الحفصية، ولُقب بالمســتنصر بالله، لكنّ الأمير أبا زكرياء، الذي سبق له وأن لجأ إلى عثمان بن يَغْمُراســن بتلمســان، تمكّن من اســتعادة بجاية قبل أن يسيطر على قسنطينة حيث أقيمت له فيها الدعوة، وبعدما دخل أهل بجايــة وتادلس في طاعته تلقــب بالمنتخب لإحياء دين الله، واســتقل بالناحية الغربية من الدولة الحفصية، وجعل مدينة بجاية عاصمة له، وحاول بسط ســيطرته على نواحيها الشــرقية، غير أن تدخّل عثمان ابــن يَغمراســن وإقدامه على حصاره بهــا، تأييدا لســلطان إفريقية، جعلــه يكفّ عن محاولته ويعود إلــى عاصمته للدفاع عنها. وقد تمكن بعدئذ من بسط نفوذ إمارته على منطقة الزاب التي تضم كامل جنوب قسنطينة بما فيها: الحُضنة والأوراس ووادي ريغ وورقلة.

وبعد وفاة السلطان أبي حفص حاول السلطان أبو عبد الله محمد ابن الواثق المكنّى بأبي عصيدة، والملقب بالمســتنصر بالله، اســترّجاع



نفوذ الدولة على الناحية الغربية، فشنّ هجوما على أعمال قسنطينة ثم تراجع تاركا مهمة مضايقة بجاية لحليفه المريني، السلطان يوسف ابن يعقوب، الذي كان في مواجهة مع عثمان بن يغمراسن حليف أبي زكرياء وصهره، وقد مارس يوسف بن يعقوب ضغطا شديدا على بجاية، ولمّا توفي أبو زكرياء حاول ابنه وخليفَته أبو البقاء خالد مفاوضة أبي عصيدة لمحاولة ثنْية عن تحريض السلطان المريني على أراضيه، لكن دون أن يحقق نتيجة تُذكر، ثم توفي يوسف بن يعقوب وانسحب المرينيون من تلمسان، وتخلّص أبو البقاء من مضايقتهم ونتج عن ذلك تغيير سياسة أبي عصيدة مع سلطان بجاية، وعقد الطرفان معاهدة نصّت على إعادة توحيد الدولة الحفصية، بعد وفاة أحد السلطانين، على أن يتولّى أمرها من بقي منهما حيا.

وفي سنة 709هـ./1309م. مات أبو عصيدة، ورغم أن أنصاره حاولوا مخالفة نص تلك المعاهدة وبايعوا، لخلافته، أبا بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر الملقب بالشهيد، إلاّ أن أبا البقاء هزمه وقتله ثم تربّع على عرش الدولتين، ولُقب الناصر لدين الله المنصور ثم استضاف لقبا آخر هو المتوكل؛ وكان عقد على بجاية، قبل خروجه للزحف على تونس، لعبد الرحمن بن يعقوب بن الخَلُوف الملقب بالمزوار، وجعله حاجبا لأمير قسنطينة، أخيه أبي يحي أبي بكر. ثم إن السلطان أبا البقاء عكَف على لذاته وبَطَش بعدد من أشياخ أنصاره، ممّا جعل حاجبه ابن غمر يخشى على نفسه ويقنعُه



بـأن يعقد له على حجابـة أخيه أبي يحي أبي بكر في قسـنطينة، ويعقد لعلـيّ، ابـن عمه على الحجابة فـي تونس نائبا عنه، وما أن باشـر مهمته الجديدة حتـى راح يحرّض أبا يحي ضد أخيه، مما أدّى إلى اندلاع حرب بـين الأخوين، وانحاز والـي بجاية، عبد الرحمن بن خلوف إلى جانب أبي البقـاء خالد، لكـن أبا يحي انتصر عليه وقتله ثم دخل مدينته، بجاية، في حين تمكّن شيخ الموحدين في عهد أبي عصيدة، ابن اللحياني من الانتصار على أبي البقاء ودخول مدينة تونس حيث تمت بيعته، واتفق السـلطانان: أبو يحي أبو بكر وابن اللحياني على المهادنة وقُسمت الدولة الحفصية من جديد إلى شرقية، عاصمتها تونس، وغربية عاصمتها بجاية.

وقد اِدّعى أمير تلمسان، أبو حمّو موسى بن عثمان أن مدينة بجاية له، بحجة أن السـلطان أبا يحي أبا بكـر تحالف معه ضد ابن خلوف. عندما كان في حرب معه، فأخرج إليها حملة، فحاصرتها ثم تجاوزتها شرقا ثم اضطروا إلى العودة، وشـيّدوا أثناءها حصن أَصْفُون، وذلك سنة 713 هـ./1313 – 1314م.، غير أنّ أبَا يحي أبا بكر شنّ عليه هجوما بريّا وبحريا سـنة 714هـ./1314 – 1315م.، فخرّبه وانتهَبَهُ؛ وأخرج أبو حمّـو حملة أخرى لحصار بجاية سـنة 715هــ./1315 – 1316م.، لكن قائده اضطر إلى الإنسحاب، عندما علم بوقوع تمرّد على صاحبه أبي حمّـو، وتوقفت محاولات بني عبد الواد ضد بجاية، بعد ذلك، بسـبب انشغالهم بمشاكلهم الداخلية.



وعندئذ فكّر ابن غمر، حاجب السلطان أبي يحي أبي بكر، في إبعاده عن بجاية، لانفراده بحكمها، خوفا على نفسه منه، فأغراه بالاستيلاء على إفريقية من يد ابن اللّحياني، فخرج السلطان إلى قسنطينة سنة 715هـ./ 1315م.، وسار نحو تونس سنة 717 هـ./1317م.، إلاّ أنه اضطر للانسحاب إلى قسنطينة، أمام محمد أبي ضربة الذي بويع ولُقب بالمستنصر، وبفضل المدد الذي زوّده به حاجبه أعاد الكرة على تونس سنة 718هـ./1318م.، وتمكّن منها، هذه المرّة، وأُخذت له البيعة هناك، ولقب بالمتوكل على الله، وتمت بذلك إعادة توحيد الدولة الحفصية مرّة أخرى، على يد والي بجاية.

وبقي الحاجب، أبو عبد الرحمن بن غمر مستبدًا بأمر بجاية إلى أن حضرته الوفاة فبعث إلى ابن عمّه محمد أَوْ عليّ، ليقوم بإدارتها إلى أن يصل أمر السلطان، فلما توفي سنة 719هـ./ 1319م.، اتخذ السلطان قرارا يقضي بتكثيف حامية الثغور الغربية، وإِنزال أبنائه بها لحمايتها، وبناءً على ذلك عقد على قسنطينة لابنه الأمير أبي عبد الله، وعلى بجاية لابنه الآخر أبي زكرياء، وجعل حجابتهما لأبي عبد الله محمد ابن القالون، مستبدا عليهما، لصغر سنّهما، وأَمَره بالإقامة في بجاية، لمقاومة ما قد تتعرّض له من حصار، وذلك في بداية 720هـ./1320م.، ثم استبدل السلطانُ الحاجبَ ابن القالون بمحمد بن سيّد الناس، وعيّن على حجابة ابنه أبي عبد الله مولاه ظافرا الكبير، وعقد على

بونة لابنــه أبي العباس الفضل، وعلى حجابته ظافر السّـنان، وبذلك خرجت مدينتا: قسنطينة وبونة عن نفوذ بجاية وكذلك منطقة الزاب، واقتصر نطاق ولاية بجاية الجغرافي على ضواحيها، وبقي ابن سـيّد النـاس على حجابة أميرها إلى ربيع سـنة 733هـ./ ديسـمبر 1332م.، فعُزل في حين كان الأمير أبو زكرياء متمسكا بزمام أموره، وفوّض إليه والده أمرها، وبقي يحكمها إلى أن مات سنة 747هـ./1346م.

وولى السلطان مكانه أصغر إخوته، الأمير أبي حفص، فحمله بعض بَطانتـه على إظهار القوة والصرامة، فخشـي السـكان على أنفسـهم وهاجمـوا مقرّه ونهبوه، وهتفوا باسـم ابن أميرهم السـابق، أبي عبد الله، فما كان على جدّه السلطان أبي يحي أبي بكر، إلاّ أن سلّم بالأمر الواقـع ورسّـمه في منصب والـده، ولم يمض وقت طويـل حتى توفيّ الجد هو الآخر سـنة 747هـ./ 1316م.، علما أن بني عبد الواد أقاموا في عهد هذا الأخير عدّة منشـآت عسكرية لاستخدامها في مضايقة بجاية، والوصول إلى الاستيلاء عليها، واستمروا في مضايقته بإمداد الثائريـن عليه حتى ينشـغل عنهـا، وفي هذا الإطار أخرج سـلطانهم أبو تاشـفين حملة سـنة 729هــ./1329م.، تمكنت من هزيمة جيشـه فــي موقعة الرّياس، قرب مرماجنة، واسـتولت علــى عاصمته تونس ونجا هو جريحا إلى بجاية، ومن هناك أرسـل وفدا إلى السلطان أبي سعيد المريني، توّجت مهمته بتحالف الطرفين ضد العدو العبد الوادي



المشترك وبعقد قِران بين ابنة السلطان الحفصي، فاطمة، وبين ابن السلطان المريني أبي الحسن، ولم يستقر السلطان الحفصي هناك بل عاد إلى حضرته، تونس، بعدما حشد أنصاره في قسنطينة ولم ينتظره أعداؤه بها.

وبعد هلاك السلطان أبي سعيد سنة 731هـ./1331م.، راسل ابنُه وخلفه السلطانُ أبو الحسن أبا تاشفين في الكفّ عن محاربة الحَفصيّين فلما لم يتلق ردًّا منه هاجم عاصمته تلمسان، فاضطر إلى الانسحاب من حصار بجاية للدفاع عنها، فما بقي على أبي يحي أبي بكر إلاّ أن قام بتطهير محيط تلك المدينة من حصون بني عبد الواد، وأهمها تيمززدكت، واسترجاع أعمالها إليها، ولم تَعرِف بعدئذ أحداثا تُذكر إلاّ بعد وفاته، عندها انتهز السلطان أبو الحسن فرصة الصراع بين أبنائه على الحكم، فعقد لابنه أبي عِنَان على ولاية تلمسان وأعمالها، وقام بحملة على الأراضي الحفصية سنة 748هـ./1347م.، ولمّا أطّل على بجاية، تردّد أهلها في مبايعته، أوّل الأمر، ثم أنابوا عنهم أميرها أبا عبد الله محمد بن أبي زكرياء فقدّم له طاعته، وفي المقابل نقله السلطان أبو الحسن إلى ندرومة حيث أقطعه ما يكفيه للعيش من جبايتها، وولّى على مدينته عمّالا من رجاله، وبعد ذلك بسط سيطرته، شيئا فشيئا، على كامل الدولة الحفصية باستثناء بونة التي أبقي، على ولايتها، صهرَه الأمير الفضل بن أبي يحي.

ولما تكبّد أبو الحسن هزيمة على يد أحمد بن عثمان بن أبي دَبّوس، قُرْب القيروان، فَقَدَ هيبته السياسية والعسكرية واستدعَا سكان قسنطينة أبا العباس الفضل عن عمله ببونة، فلم يتأخر عنهم، وأعاد إليها ما ذهب من سلطان قومه، ثم رحل إلى بجاية، وبمجرد ما أطلّ عليها ثار سكانها على عمالها المرينيين، فدخلها وبسط نفوذه عليها، إلى جانب بونة وقسنطينة، وفي تلك الأثناء عاد أمير بجاية السابق أبو عبد الله محمد الخطي الذي سرّحه أبو عنان، وأمدّه بالأموال لاسترداد عَمَله، شريطة أن يمنع أباه السلطان من المرور إليه، عن طريق بلاده، خشية أن يعاقبه على سلوكه.

وقد تمكّن أبو عبد الله من استرجاع إمارته بكل يُسر سنة 749هـ./1349م.، ومنّ على عمه أبي العباس الفضل، الذي حاول مقاومته بأن أطلق سراحه وأرسله إلى عمله، بونة؛ ولما حاول السلطان أبو الحسن عبور بلاده منعه من النزول بمينائها، وأمر أهل سواحله بعدم تزويده بالماء، فتعرّض لصعوبات كبيرة قبل أن يتمكّن من مواصلة سفره غربا إلى الجزائر، ومنها سار برّا إلى بلاده حيث توفي سنة 752هـ./1351م.؛ ومن نشاط الأمير أبي عبد الله في بجاية أنه أغار مرّة على قسنطينة، فحاصر حاميتها، وزحف على جهاتها فأتلف زروعها ثم عاد إلى مدينته تفاديا للصدام مع المرينيين الذين كان سلطانهم آنذاك، في حملة على المغرب الأوسط، وكان يتولى أمره عثمان بن عبد



الرحمن بن يحي بن يغمراسن، فأوقع أبو عنان ببني عبد الواد، ولما نجا بعضهم إلى بجاية، أوعز إلى أميرها أبي عبد الله بأسرهم وإرسالهم إليه، فلبى طلبه، ثم سافر إليه بنفسه، وهو يتوسّع شرقا، فدس إليه من يقنعه بالتنازل له عن بجاية في مقابل إقطاعه مكناسة المغرب، ثم نَقَلَه بعد أيام قليلة إلى فاس، ووضعه تحت الإقامة الجبرية.

وعقد السلطان، بعد ذلك، على بجاية لعمر بن علي بن الوزير لكن سكانها هاجموه وقضوا عليه، ثم خافوا من ردّة فعله واتفق أعيانها على التمسك بطاعته، وبعثوا له برأس فارح، محرّك تلك الأحداث، فسّرح إليهم حاجبَه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو سنة 754هـ./1353م.، فتقبض على من شك في حسن نواياهم، من أعيانها ومحركي الغوغاء من سكانها، فنقلهم إلى فاس، ثم صرف نظره إلى إعادة تنظيم أمور البلاد، فاستدعى كبراء العرب وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسنطينة، فلما وفدوا عليه عاد بهم إلى المغرب برفقة أبنائهم ليتركوهم كرهائن، يضمنون بهم ولاءهم للدولة، ولما تمت هذه المهمة بنجاح، ردّ السلطان حاجبه إلى ولايته وكلّفه بمهمة حرب قسنطينة، فنفّذ أوامره، وبقيت الأمور كذلك إلى أن وافته المنية سنة 756هـ./1356م.

وعندما سار صاحب قسنطينة، الأمير أبو زيد، لحصار تونس ترك مكانه أخاه أبا العباس، في حين ولّى السلطان المريني أمر بجاية وزيره عبد الله بن علي بن سعيد فدخل مع أبي العباس، في حرب مفتوحة،



وبقـي الأمر كذلـك إلى أن اتّهـم الوزير المريني بالتقصيـر في واجبه فنكبه السلطان وعيّن مكانه يحي بن ميمون بن مصمود؛ ثم قاد بنفسه حملة على المناطق الشـرقية مـن بلاد المغرب، اسـتولى خلالها، بكل سـهولة، على قسنطينة وسيطر فيها على غالبية المناطق الإفريقية ثم تراجع عنها ليلقى حتفه سـنة 759هـ./ 1358م.، وكان سكان بجاية في تلك الأثناء يعانون من تعسّـف وقسوة واليها يحي بن ميمون، فانتهزوا فرصة تلك الوفاة، واسـتنجدوا بحاجب تونس أبي محمد بن تافراكين فأنجدهـم وخلّصهم من ذلـك الطاغية، وكان علـى رأس تلك النجدة سـلطان تونس نفسـه، أبو إسـحاق، برفقة أبي عبد الله بن محمد بن تافراكين، وكانت سلطته بها نسبية بعدما دخلها سنة 761هـ./1359 – 1360م.، لأن حاجبه كان يسيّر له أموره، من تونس، عن طريق ابنه أبي عبد الله، ثم عيّن له وزيرا يقوم بمهام الحاجب، هو أبو محمد بن عبد الواحد، فاستعان في القيام بمهمته بأشرار البلد ودعّارها.

وفي تلك الأثناء آل أمر بني مرين إلى السـلطان أبي سـالم بن أبي الحسـن، فاتخذ قرار التخلي عن الأعمال الشرقية، وتنازل للسلطان أبي العباس عن قسنطينة، إمارته السابقة، وسرّح معه ابن عمه الأمير أبـي عبد الله ليسـتردّ إمارتـه، بجاية، من عمّه أبي إسـحاق، انتقاما منه ممّا فعله بالمرينيين، أثناء اسـتيلائه عليهـا، ولم يتمكن الأمير أبو عبد الله من اسـتعادة سـيطرته على مدينته إلاّ بشـق الأنفس، سـنة



765هـ./1365م.، واستدعى من الأندلس المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، فقلّده حجابته لكنه سرعان ما تنكّر لرعيته فأساء مُعاملتها، ممّا جعل قلوبها تميل إلى ابن عمه، السلطان أبي العباس في قسنطينة، لأنه كان أليق للحكم وأكثر استقامة منه، وكان الجو متوترا بينهما، فلبّى أبو العباس طلب البجائيين سنة 767هـ./1366م.، وقام بهجوم على مدينتهم، قتل فيه أبا عبد الله وسيطر على أمورها. وكان عليه بعدئذ أن يتصدى لبني عبد الواد، لأن أبا عبد الله عقد معهم أثناء حربه معه هدنة تقضي بتنازله لهم عن تادلس، كما خطب منه أميرهم، أبو حمّو، ابنته فتزوّجها، فلما قُتل جاء أبو حمّو لينتقم له، فحاصر بجاية، وكان ابن عمه أبو زيان بن عثمان، وهو من المطالبين بالإمارة العبد الوادية، بداخلها وفي صحبته أبو العباس، فاتفق مع عرب زغبة على تخليهم عن صفوف ابن عمه، وإحداث اضطراب فيه عند نشوب القتال بينه وبين أهل المدينة، ونفذّوا خطتهم بإحكام، ونجا أبو حمّو بنفسه إلى الجزائر فإلى تلمسان، وابن عمه أبو زيان يتابع أثره، وخرج أبو العباس، بعد ذلك الإنتصار إلى تادلس واستولى عليها.

وبعد وفاة سلطان تونس، أبي إسحاق، سنة 770هـ./1368م.، قام أبو العباس بحملة على المسيلة، ضد إبراهيم بن عمه أبي زكرياء الأخير (الثالث)، وكان أولاد سليمان من الدواودة بايعوه للمطالبة بحقه في بجاية، من بعد أخيه أبي عبد الله، فلما انتهى أبو العباس إلى المسيلة



نبذوا بيعته، وتبرأوا منه، ورجّعوه من حيث أتى، فعاد إلى بجاية، ومنها قصد تونس، فلم يجد صعوبة تذكر في السيطرة عليها، وتقبض على الأمير خالد الذي نُصّب ليَتولى أمرها، مكان أبيه السلطان أبي إسحاق، فأرسله مع أخيه، بحرا، إلى قسنطينة فماتا غريقين.

وكان أبو العباس ولّى على بجاية، قبل زحفه على تونس، أكبر أبنائه الأمير أبا عبد الله محمد، وأقام له محمد بن أبي مهدي حاجبا، وسار كلّ شيء على ما يرام إلى أن توفي سنة 785هـ./1383م.، فولى والده مكانَه، ابنه أبا العباس أحمد، وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي، ولم تُسجل عن بجاية، أيّة معلومات بقية أيام السلطان أبي العباس أحمد المستنصر، وكذلك أيام ابنه وخليفته السلطان أبي فارس عبد العزيز- أو عزوز، باستثناء ما أورده الزركشي، من أن هذا الأخير حاصر أخاه وواليه على قسنطينة، الأمير أبا بكر، نزولا عند رغبة سكانها سنة 798هـ./1394م.، فاستولى عليها ومكث فيها أكثر من شهر، ثم عاد إلى حضرته، بعدما ترك مولاه القائد نبيل على جيشها، والشيخ أبا القاسم بن تافراكين عاملا على القصبة؛ ويُستنتج من قول الزركشي: «إن أبا العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد، وحفيد الخليفة أبي العباس أحمد، خرج (من بجاية)، ومنذ أن أعلن عن خضوعها لم يتأخر» يستنتج من هذا أن بجاية تعرضت آنذاك للغزو وخضعت لغزاتها.



وفــي إطار الصراع الذي كان قائما على الحكم بين **السـلطان أبي** فارس وبين ابن عمه أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء، خشــي **الأول** علــى بجايــة، عندما علــم بوصول الثانــي إلى تخومهــا، فعقد لأخيه زكريــاء، قائد بونة، علَــى ولايتها وأمره بالانتقــال إليها، وكان خصمه محمد هزم واليها السابق، أبا النصر ظافر وانتقل إليها، فوصلها بعد زكرياء، فثار ســكانها على هذا الأخير، وطردوه بحرا، فســيطر عليها محمد وأسند حكمها لابنه منصور، لكن السلطان أبا فارس استردّها، بعــد بضعة أيام من القتال، وخرّب المنــازل ونهبها ثم أعاد ولايتها إلى صاحبها الأســبق أبي العباس أحمد بن أخيه أبــي عبد الله محمد أو إلى ظافر، ثمّ لاحق الأمير محمد إلى أن قتله.

ومــن المعلومــات المقتضبة التي أوردها الزركشــي في شــأن ولاية بجاية: أن السلطان أبا فارس عزل أبا البقاء خالد عن ولايتها وعوّضه بابنه المعتمد، ســنة 824هـ./1421م.، وممّا لا شــك فيه أنها لم تخرج، آنــذاك، عن طاعة الســلطان الحفصــي الذي أخذ نفــوذه يتزايد إلى أن تمكــن من الســيطرة علــى الدولتين العبــد الوادية والمرينيّة ســنة 82¯هـــ./1423 – 1424م.، وبعــد وفاة وليّ عهده، أبــي عبد الله محمد المنصــور، رغــب أخوه المعتمــد، والي بجاية في خلافته، فســافر على رأس جيــش معتبر، لتعزيــة والده، غير أنه اكتشــف، عند وصوله، أن ولايــة العهد قد أُســندت إلى المنتصر بن أخيــه المتوفى، ولما تباطأ في



تنفيذ أمـر والده بالعودة إلى مقر ولايته، تقبّض عليه الوالد وحبسـه في الشقة العليا من سقيفة قصر الباردو، وعيّن مكانه مولاه القائد أبا نعيم رضوان سنة 834هـ./1429 – 1430م.

وبعد وفاة السـلطان أبي فارس، وتولية حفيده أبي عبد الله محمد المنتَصر، عقد لعمّه أبي الحسـن عليّ على بجاية، ولما مات السـلطان الجديد، بعد سنة وشهرين واثنتي عشر يوما من الحكم، بويع شقيقه. أبـو عمر أو أبو عمرو عثمان لخلافته، وكانت تلك مناسـبة أعلن فيها والـي بجاية اسـتقلاله عـن الدولة، وبعدمـا ألحق السـلطان عثمان هزيمة بعرب إفريقية، بسـبب قطعهم للطريق وتخريب أملاك الناس سنة 839هـ./1436م.، قصده منهم أولاد أبي الليل، وحرضوه على غزو تونس، فوافق، وخاض إلى جانبهم ضد سـلطانها معركة، بالقرب من تيفاش سـنة 840هـ./1436م.، ولم يخلصه من الموت سوى الهروب، مع أفضل فرسـانه إلى بجاية، وعاد السـلطان، بعد انتصـاره، أيضا إلى عاصمته، وفي سـنة 841هـ./1439م.، قام بحملة على بجاية فاستولى عليها، بعد فرار أميرها، أبي الحسن منها، وأمّن سكانها، ثم عقد على ولايتهـا لابن عمه أبي محمد عبـد المؤمن بن أبي العباس أحمد، وعاد إلـى عاصمته، وفـي بداية عام 846هـ./1442م. علم السـلطان عثمان أن محمـد بن يحي السـيليني المعروف بابن حجر، هاجـم وقتل والي بجاية، فأسـند موقعها إلى شقيق الفقيد، أبي محمد عبد الملك، وفي



سنة 850هـ./1446م. علم أيضا أن الأمير أبا الحسن دخلها، فزحف عليها بنفسه واستردها، وولّى عليها القائد محمد بن فرج ثم عاد من حيث أتى. وفي سنة 856هـ./1452م. وصل إلى السلطان الحفصي خبر قيام الأمير أبي الحسن بحصار مدينة بجاية، مع جماعة من سكان منطقتها، فبعث جيشا لنجدتها، ولم ينتظر أبو الحسن وصوله، وانتهى الأمر بإلقاء القبض عليه وتسليمه للسلطان الذي قتله، وهو في طريقه إلى المدينة المذكورة.

ولما وصل السلطان عثمان إلى بجاية بعث يأمر أميرها أبا محمد ابن عبد الملك بالحضور أمامه، مع أعيانها، ليجدّدوا له ولاءهم، فلم يفعل إلاّ بإلحاح بعض الفقهاء والأولياء، وعندما وصل برفقتهم إلى السلطان الذي كان ينتظره في أبي بحاب أو أبي محان، قرب جبل أولاد رحمة، أوقفه وعيّن بدلا عنه القائد منصور، ثم عاد إلى حضرته سنة 856هـ./1452م. وفي سنة 858هـ./1454م.، زحف عثمان غربا، بسبب ما ورد من أخبار تفيد أن مُثيري الشّغب بمنطقة بجاية، ضايقوا قائدها، وقد أَوْقف، أثناء تقدّمه، الأمير أبا بكر بن الأمير عبد المؤمن، بسبب رغبة البجائيين في جعله رئيسا لهم، بحجة أن والده وعَمّه كانت لهما نفس الوضْعية؛ ولما حلّ بتاكورة، زاره أعيان بجاية وأخبروه باستقرار الأوضاع، فعزل قائدها، أبا عليّ منصور المزوار، وعيّن مكانه ابنه أبا فارس عبد العزيز، قبل أن يعود إلى تونس.

وفي سنة 864هـ./1459 – 1460م.، خرج السلطان عثمان من تونس إلى مقاطعة بجاية حيث قابل ابن واليها، وعلم عن طريقه، مشاكله مع محمد بن سعيد، فاستدعى هذا الأخير وأمنه ثم نقله مع أفراد أسرته إلى تونس حيث كان يتقاضى نفقات معيشته وبقي هناك إلى أن اصطحب السلطان في حملته على تلمسان سنة 866هـ./1462م- وأثناء العودة من تلك الحملة، سنة 867هـ./1463م.، سمح له بالرّجوع إلى بلاد بجاية ومنذ هذا التاريخ الأخير، إلى تاريخ الغزو الإسباني لهذه المدينة سنة 1509م.، يوجد فراغ مؤسف في حولياتها، وقد تكون استمرت على ما كانت عليه، سلطنةً أو إمارة تابعة لتونس، إلى ذلك الحين.

وكانت تلك التبعية، على ما يبدو شكلية، لأن الدولة الحفصية لم تبق متماسكة، إذ أنّ مناطق كثيرة استقلت عنها، وكانت إحدى تلك المناطق بجاية التي حكمها، على التوالي، عدد من الأمراء الذين تنافسوا على حكمها، واستمر ذلك الوضع قائما إلى أن اِنتقلَ حكمها إلى السلطان عبد العزيز بن الأمير أبي محمد عبد الله، وكان أخوه أبو بكر، أميرا آنذاك على قسنطينة، فشنّ عليه حربا استمرت سنتين بهدف الاستيلاء على عاصمته، دون نتيجة تُذكر، وحاصرها بعد ذلك مرّات عديدة، وكان في كل مرّة يُخرّب الأرياف ويدمّر المساكن ويحرق المحاصيل، ومن بين تلك المرات حصار 912هـ./1507م.، ثم



حملة 913هـ./1508م.، التي اعترض عبد العزيز طريقها، بعدما وطئت أقدام جيشها أرض إمارته، وألحق بها هزيمة نكراء، ثم سار بعدها إلى قسنطينة واستولى عليها، وأثناء انشغاله بتوطيد سلطته في فتوحاته الجديدة، تلقى خبر نزول النصارى في بجاية.

وقد حدث ذلك النزول أي نزول الجيش من الأسطول سنة 915هـ./1509م.، وكان الأسطول الإسباني يتكوّن من أربع عشرة سفينة كبيرة محملة بالجنود، ويشهد والد صاحب المصدر الرئيسي المعاصر لأحداث هذا الغزو، أبي علي إبراهيم المريني، أنه كان مع السلطان عبد العزيز عندما بلغه خبر ذلك النزول فأصدر أمرًا إلى ابنه أبي فارس بالذهاب فورا لمنع الأعداء من دخولها، فلم يتأخر في السير نحوها، ولما وصلها وجد نفسه محاطا بحشد كبير من مقاتلي مختلف الفئات والقبائل، ومع ذلك فإن النصارى تمكّنوا، عندما شنّ عليهم هجوما، من إلحاق هزيمة نكراء به، قُتل فيها أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة من أصحابه.

ومع أنّ الأمير أبا بكر كان لاجئا في بَلَزّمة، بعدما هزمه أخوه السلطان عبد العزيز بقسنطينة، إلاّ أنه بمجرد ما علم بنزول النصارى في بجاية، قَصَدها هو الآخر، مع مَن كان معه مِن أصحابه، فحاربهم مدّة ثمانية أيام، وكان يمنع السكان من الفرار، كي يجبرهم على



المقاومة، واستمر الأمر كذلك إلى شهر صفر 915هـ./ مايو 1509م. لكن الانشقاق الذي كان سائدا بين جيشه وجيش أخيه عبد العزيز. أتاح لعدوّهما المشترك انتهاز فرصته للدخول إلى المدينة، ثم شن هجومين: بريّا وبحريا، لم ينجو منهما الأمير أبو بكر إلا بصعوبة، و استشهد عدد كبير من أصحابه، دفاعا عنه. وفرّ الناس من مساكنهم ومن بينهم الشيخ ناصر المريني، رئيس وزراء السلطان، برُفقة عائلة هذا الأخير، وكان من بين هؤلاء الفارين أيضا، سي مُوّفَّق وسي صالح وسي الحملاوي، أبناء الأمير إبراهيم الذي قتله ابن عمه السلطان عبد العزيز ووضعهم في السجن.

لم يستسلم الأمير أبو بكر للأمر الواقع، بعد احتلال بجاية، بل راح يُنظّم مقاومة مُحتلّيها، واختار ابن أخيه موفق بن إبراهيم، لقيادة سكان جبال كتامة، وفرض عليه الإقامة قرب زيامة، ثم نصّب وزيره إبراهيم بن يونس على الجيش المكلف بمراقبة أطراف الموقع (بجاية). وحشد جماعات بني عبد الواد وتوجين المستقرين بوادي الصومام ووضعهم في سجلّ الجيش النظامي، وعيّن الأمير سي محمد بن إدريس الهواري قائدا على سكان جبال زواوة. وبعد اتخاذه تلك الترتيبات علم أن أخاه عبد العزيز تحرّك نحوه فسار إليه، واشتبك جيشاهما في تكركات؛ بين بجاية وسطيف، فهزمه ثم قتله، وبايع الناس بعدئذ آخر أبنائه العباس ليتولى مكانه، ممّا لم يمنع السلطان



أبا بكر من بســط نفوذه على منطقة قســنطينة وبــلاد الزاب، قبل أن يتوجه نحو بجاية، ثم جعل تاكركات مقرا لقيادته العامة.

وهناك علم أنّ العباس بن السلطان عبد العزيز، اللاّجيء بقلعة ونوغة، طلب من نصارى بجاية إعادة تنصيبه على عرش والده، وأن النصارى تلقوا تعزيزات جديدة، زادت كثيرا من أعداد حاميتهم وأنّهم عزموا على القيام بغارة على الوادي (الصومام)، فتقدّم إليهم وحاصرهم، مدّة خمسين يوما، دون أن يحقق أية نتيجة، ثم اضطر إلى الإنســحاب وراح يعيد بناء القلاع التي سبق وأن شيّدها أبو تاشفين، ووضع فيها جنودًا بعائلاتهم ووفّر لهم التموين، وبذلك تَمكّن من إزعاج الإسبان باستمرار، ومن الدخول ليلا إلى بعض شوارع المدينة، وقتل كل من وقع بين يديه منهم. وبعد فشله عاد إلى قسنطينة، تاركا مهمة مواصلة المقاومة لابن أخيه الأمير موفق.

وفي تلك الفترة كثرت الدســائس مع النصارى بحدة، وأُلقي القبض على بعض من كان يتصل بهم، وتَمت معاقبتهم ثم عاد السلطان إلى قلعة تكلات، ومنها انتقل إلى حصن بَكر في شهر صفر 919هـ./1504م.، ولما علم النصارى بوجوده فيها أغــاروا عليه، إلاّ أنهم تكبدوا هزيمة نكراء، قُتل فيها ستة آلاف من جنودهم وهرب الباقي إلى المدينة ليختبئوا وراء أســوارها وفي القلاع، وأخذ جيش الســلطان مواقعه أمامها، ونصّبت خيامه على ضفاف واد الخميس لمراقبة عمليات الحصار، وهناك تلقى خبر غزو ســلطان إفريقية لأراضيه، وخــروج ابن أخيه العباس بن عبد

العزيز من قلعة ونّوغة حيث كان لاجئا، استعدادا لحربه، فاضطر لإخراج الأمير العلواني ضد العباس والأمير صالح بن إبراهيم إلى الزاب وتُخُوم الإمارة الشرقية. وقد حاول الأمير العباس أن يسيطر على الساحل لكن عمه أبا بكر هزمهُ ولاحقه حتى تقبض عليه، وعفا عنه، بعدما أقسم له بقطع علاقته مع النصارى، وذلك سنة 922هـ./1517م.

ثـمّ زوّج أبـو بكر ابنته من ابن أخيه موفق، وعقد له على كل المناطق المجـاورة لبجاية، قبل أن يعود إلى قسـنطينة ويدخلها في رمضان من نفس تلك السنة، غير أن ابن أخيه العباس، لم يف بالوعد الذي قطعه على نفسـه وراح يشترك مع الأعداء في القيام بهجوم ضد جيشه، إلاّ أنّ مُوَفّـق أَجْبر الإسـبان على العودة داخل أسـوار المدينة، بعدما قتل منهم أربع مائة رجل ثم راح يلاحق وحدات ابن عمه العباس، فانتهزوا فرصـة غيابـه للقيام بغارة جديـدة، دخلوا الـوادي وحطموا الحصن الواقع على ضفاف النهر، كما خربوا المناطق المجاورة له.

ثـمّ إنّ الضربات المؤلمة التي تلقاها الإسـبان مـن المقاومة جعلتهم يُقْدمون سـنة 931هـ./1524م.، على تحطيم الكثير من منشآت المدينة وتضييق هذه الأخيرة بتشـييد سـور آخر لها أصغر مـن الأول بكثير. بحيـث أنها صـارت تضم ثلاثة وخمسـين جامعا أو مسـجدًا، عوض الإثنين وسبعين التي كانت بها قبل ذلك، أي أن ذلك التهديم والتضييق شـمل نصف المدينة تقريبا، وذلك حتى يتمكّنوا من تحصين أنفسـهم



أكثر في النصف المتبقي، وهنا أمر السلطانُ أبو بكر الأميرَ موفق بتجنب القيام بأية محاولة ضدّهم، وفي سنة 917هـ./1512م.، دخل في اتصال مع التُّركي إبراهيم بن عثمان الملقب بخير الدين، وجعله يهاجمهم بحرًا، في حين هاجمهم الأمير موفق برًا، دون الحصول على أيّة نتيجة، وبعد ثلاث سنوات أعاد خير الدين الكرة عليهم، فلم يُوفّق في مسعاه هذه المرة أيضا، وبقيت الأمور على حالها إلى سنة 962هـ./ 1555م.، وعندئذ قام أمير الأتراك، الباشا صالح بن جعفر أو صالح رايس، بحملة عليهم انطلاقا من مدينة الجزائر، فتمكن من دحرهم والاستيلاء نهائيا على مدينة بجاية منهم.

علما أنّ ما جعل بجاية لقمة صائغة في فم الإسبان هو ذلك الصراع الدموي الدّائم على السلطة بين حكامها وبين القبائل المحيطة بها من جهة، وبين أفراد عائلة حكامها، من أبناء العمومة والأشقاء وحتى بين الآباء والأبناء، من جهة أخرى، ذلك المرض النفسي الاجتماعي الذي ما زال متفشيا إلى اليوم في جسم أمتنا، والذي يبدو أن علاقته وطيدة بالأنظمة الشمولية الاستبدادية، ألم يحن الوقت لتغيير ما بأنفسنا، وعلاج ما بها من داء؟ لقد استطاع غيرنا أن يتخلّص منه بتناوله دواء الديمقراطية، فهل من الصعب علينا اقتباس، حتى لا أقول تقليد، الجار فيما حققه من إنجازات، في وقت أصبح فيه العالم قرية، يرى سكانها ويسمعون، بسهولة، ما يحدث فيها.

ملحق الصور

صورة رقم 1

منظر عام لمدينة بجاية– مأخوذ من الميناء



بطاقة بريدية يعود تاريخها إلى سنتي 1915–1910

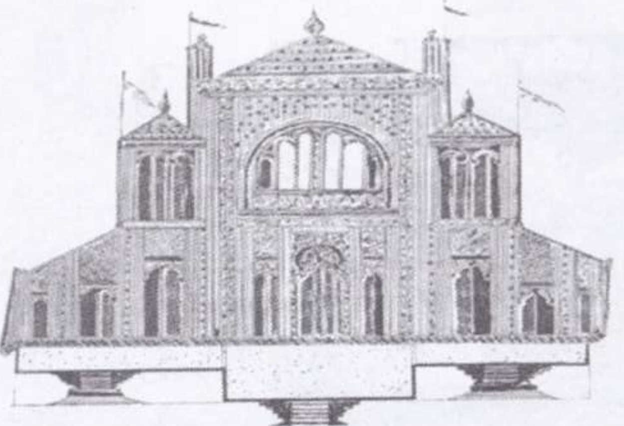
صورة رقم 2

برج (حصن) عبد القادر وجبل غورية



بطاقة بريدية يعود تاريخ تصويرها إلى سنة 1900 - 1905.

صورة رقم 3
واجهة لأحد القصور الحمادية في مدينة بجاية

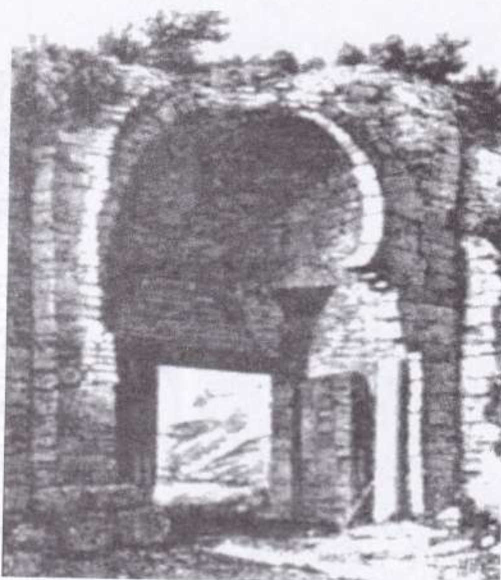


صورة مقتبسة من:

لعـرج عبد العزيز: المدينة في الوطن العربي، في ضوء الاكتشـافات الآثارية: النّشـأة والتطور، الجوف، المملكة العربية السعودية، 3 - 5 ذو القعدة 1426هـ/ 5 - 7 ديسمبر 2005م؛ ص 233.

صورة رقم 4

باب البنود



صورة مقتبسة من:

لعرج عبد العزيز: نفس المرجع، ص. 232.



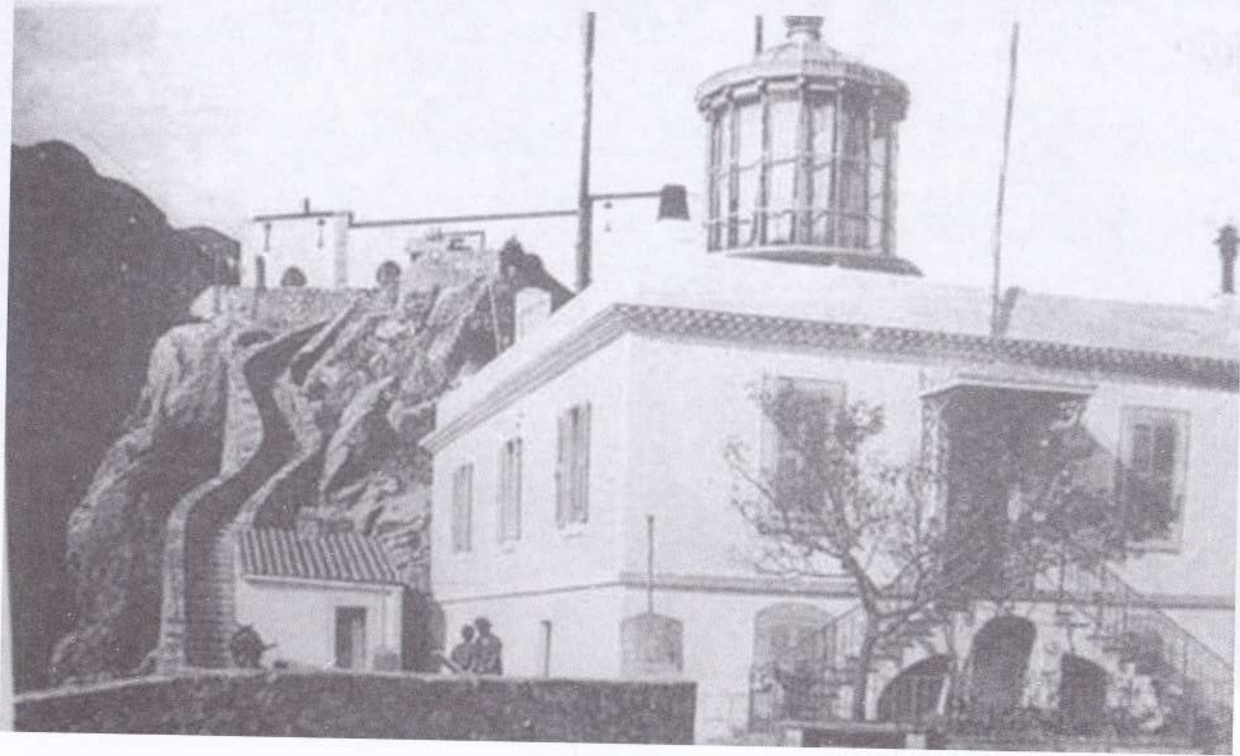
صورة رقم 5

باب الفوقة (جنان رافع)

بطاقة بريدية تمّ تصويرها سنة 1900.

صورة رقم 6

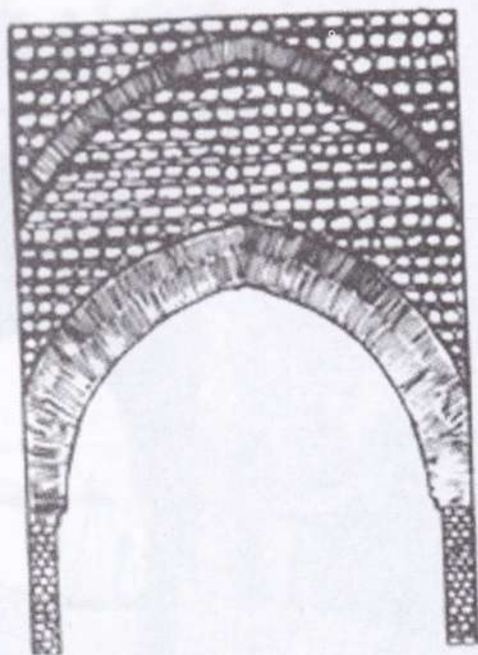
منارة رأس كاربون (منارة الرأس المثقوب)



صورة فوتوغرافية مأخوذة 1920 – 1925.



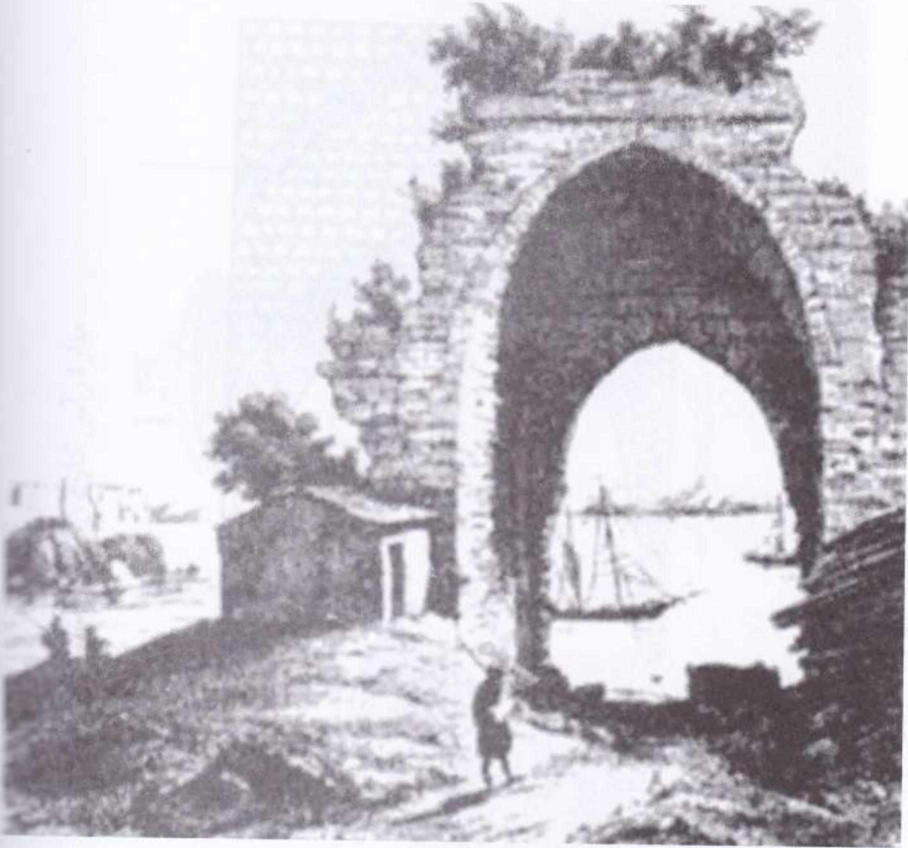
صورة رقم 7
باب البحر ببجاية



صورة مقتبسة من: بورويبة رشيد: الدّولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، الجزائر 2007، ص 201.

صورة رقم 8

باب البحر ببجاية



صورة مقتبسة من: لعرج عبد العزيز: المرجع السابق، ص. 231



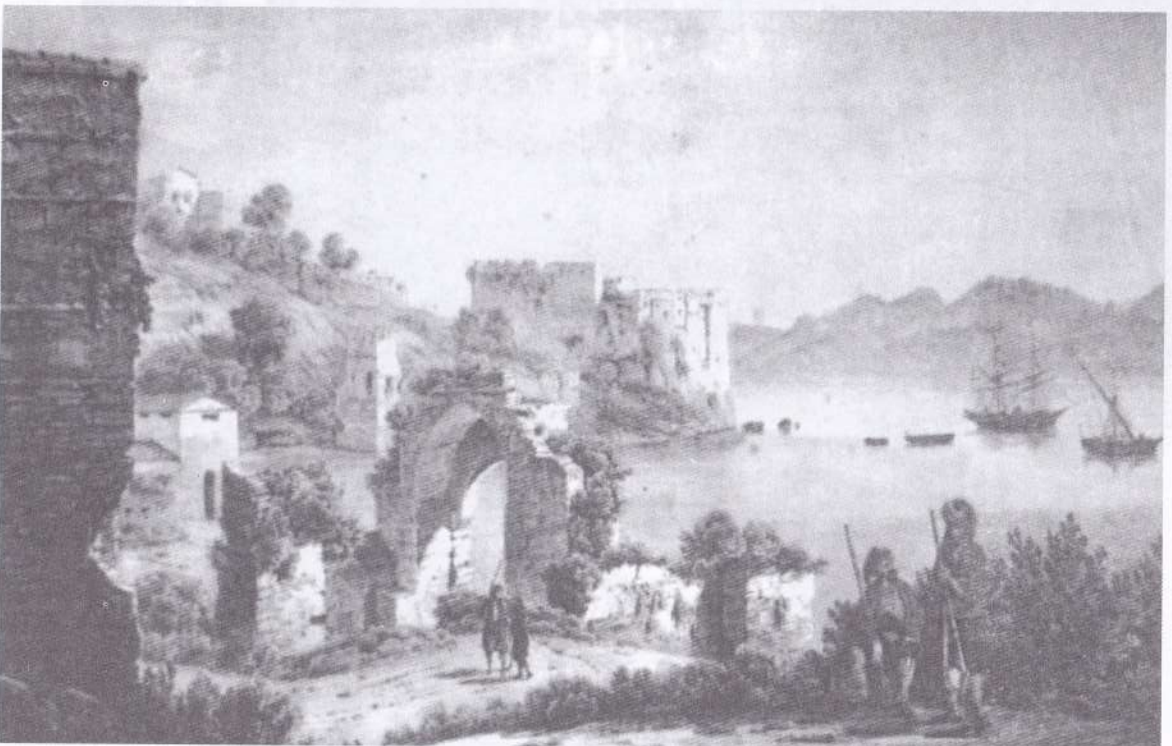
صورة رقم 9

حصن إسباني

صورة فوتوغرافية مأخوذة سنة 1920.

صورة رقم 10

صورة يظهر فيها باب البحر وحصن عبد القادر



صورة فوتوغرافية، مأخوذة سنة 1830.

ملحق الخرائط

خريطة رقم 1
مدينة بجاية الحمادية



خريطة مقتبسة من:

بورويبة رشيد: المرجع السابق، ص 200؛

بعيزيق صالح: بجاية في العهد الحفصي: دراسة إجتماعية وإقتصادية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2006، ص 114، 209.

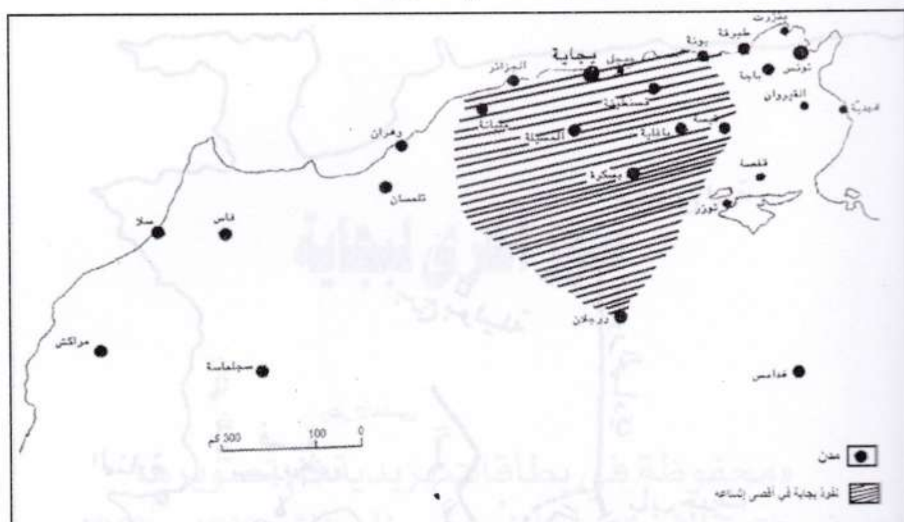
خريطة رقم 2
موقع مدينة بجاية ونهر الصّومام



خريطة مقتبسة من: بعيزيق صالح: المرجع السابق، ص 136.



خريطة رقم 3
نفوذ بجاية في أقصى إتّساعه



خريطة مقتبسة من: بعيزيق صالح: المرجع السابق، ص 168.

خريطة رقم 4
بجاية أثناء الاحتلال الإسباني



خريطة مقتبسة من: بورويبة رشيد: المرجع السابق، ص 200؛

Féraud Ch. : Op. cit., P. 250, note 2

بعيزيق صالح: المرجع السابق، ص 114.

صور أخرى لبجاية

«محفوظة في بطاقات بريدية ثم تصويرها
في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر 1830 – 1962
ويمكنه العثور عليها في الانترنيت موقع بجاية

بجاية، رصيف البحرية وبرج عبد القادر



بطاقة بريدية، يعود تاريخها إلى سنة 1900 - 1905

بجاية، منظر عام مأخوذ من البحر



بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1920



بجاية، منظر عام للميناء

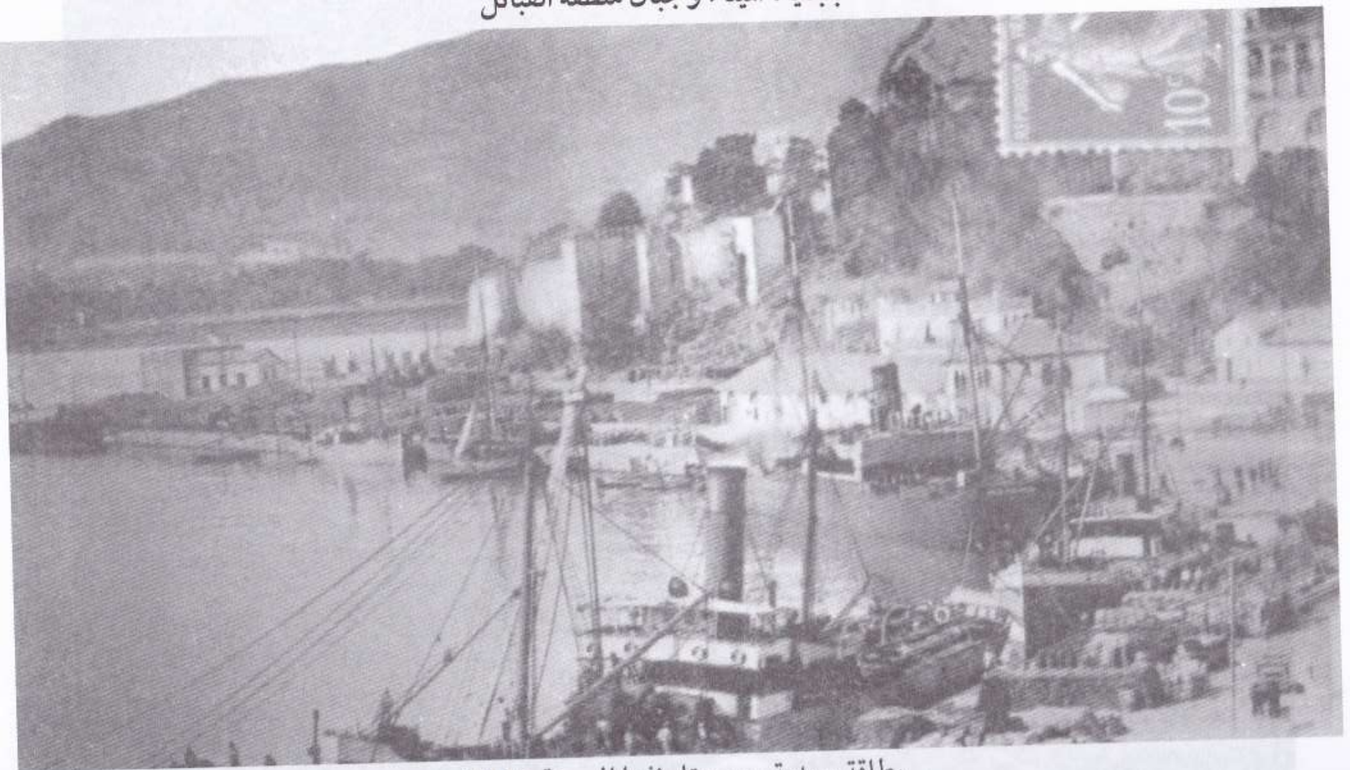
بطاقة بريدية، يعود تاريخها الى سنة ١٩١٥

بجاية، نهاية الخليج وسلسلة جبال البابور



بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1900 - 1905

بجاية، الميناء وجبال منطقة القبائل



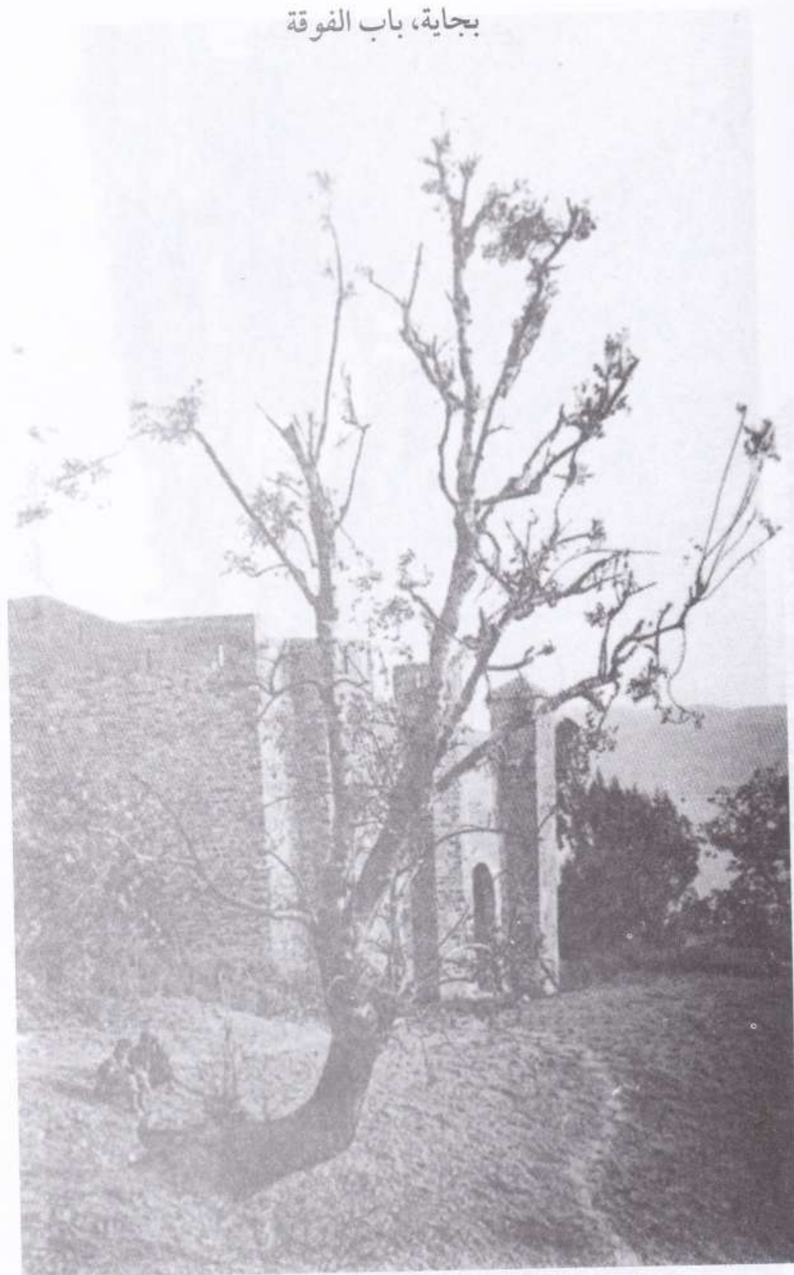
بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1910

بجاية، فسحة في موارد السفن ممرّ الغاطس



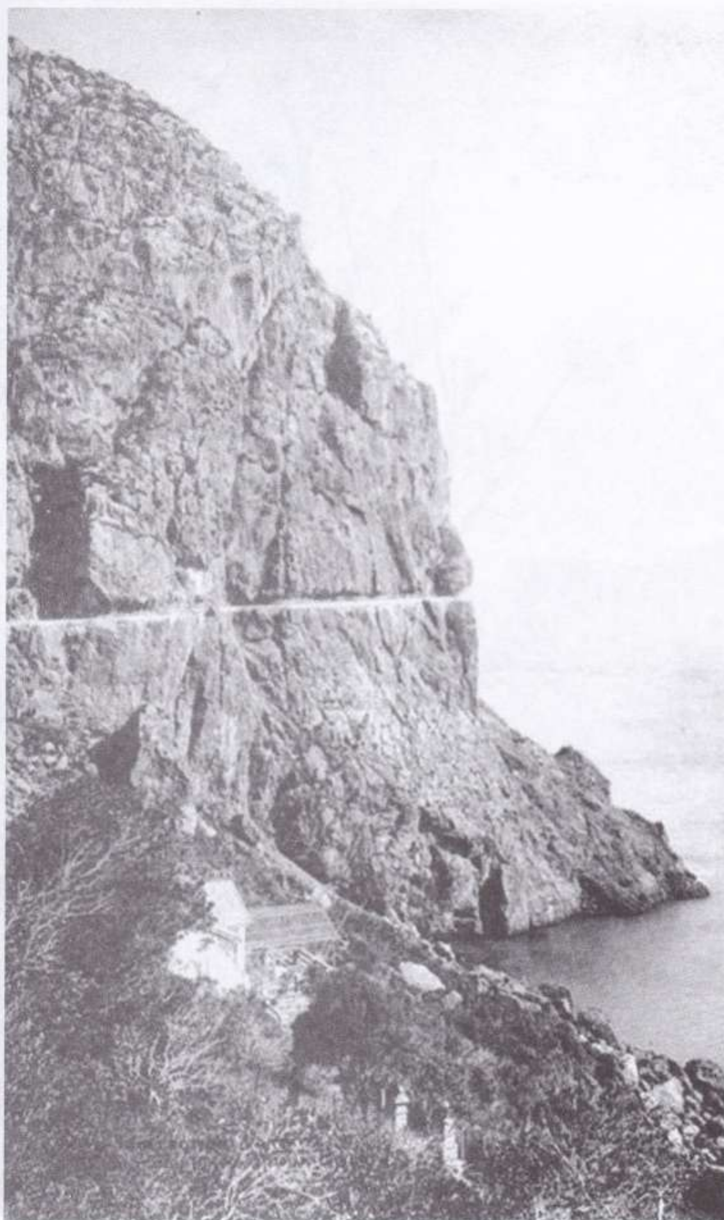
بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1920

بجاية، باب الفوقة



بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1900 - 1905

بجاية، طريق مورد السفن



بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1907

بجاية، منظر عام مأخوذ من برج عبد القادر



بطاقة بريدية، يعود تاريخها الي سنة 1900 - 1905

ببليوغرافيا

أو قائمة المصادر والمراجع



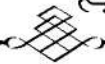
قائمة المصادر والمراجع العربية

1- إدريس هادي روجي: الدّولة الصّنهاجية في عهد بني زيري، من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1932م.

2- الإدريسي (أبو عبد الله الشّريف): القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب المشتاق في اختراق الآفاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983. المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق، حقّقه ونقله إلى الفرنسية محمد الحاج صادق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

3- برنشفيك روبير (روبار): تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، نقله إلى العربية حمادي السّاحلي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1988م.

4- بعيزيق صالح: بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006.



5 - البكـري (أبو عبيـد): المُغرب في ذكر بـلاد إفريقية والمغرب، ط.
الجزائر، 1857.

6 - البيـدق أبـو بكر بن علـيّ الصنهاجي: أخبار المهـدي بن تومرت. تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشـركة الوطنية للنّشر والتوزيع، 1394هـ/ 1974م.

7 - البلوي أبو البقاء خالد بن عيسى الأندلسي: تاريخ المفرق في تحلية علماء المشـرق مقدمة وتحقيق الحسـن السايح، نشـر صندوق إحياء التّراث الإسـلامي المشـترك بين المغرب والإمارات العربيـة المتّحدة. مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1964م.

8 - بوروبية رشيد: الدّولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، الجزائر 2007.

9 - الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1957م.

01 - ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

11 - ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، 1959.

12 - ابـن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.

13 - ابن أبي زرع الفاسي: كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. UPSALIAE، 1843.

14 - ابن سـعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدّمته وعلّق عليه إسماعيل العربي، ط. 2، الجزائر، 1982م.



15 - العبدري: الرّحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدّو، نشر كلية الآداب الجزائرية (د.ت).
16 - ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ح. س. كولان وإ. ليفي بروفانسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1406هـ/ 1985م.
17 - العمري شهاب الدين: وصف إفريقية والأندلس، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مطبعة النّهضة، تونس (د. ت).
18 - عويس عبد الحليم: دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة 1411هـ - 1991م.
19 - الغبريني (أبو العباس بن أحمد): عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، سلسلة ذخائر المغرب العربي، نشر الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1970.
20 - لعرج عبد العزيز: المدينة في الوطن العربي، في ضوء الاكتشافات الأثارية: النّشأة والتطور، الجوف، المملكة العربية السعودية، 3 - 5 ذو القعدة 1426هـ/ 5 - 7 ديسمبر 2005م.
21 - المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب [من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحّدين]، ضبطه وصحّحه وعلّق

على حواشيه وأنشأ مقدّمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1368هـ./ 1949م.
22 - مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، ط. دار نشر المعرفة 1408 - 1409هـ./1988 - 1989م.
23 - المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.
24 - ابن مطروح: تاريخ ابن مطروح، في ابن أبي زرع الفاسي.
25 - مؤلّف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر النّص العربي Alfred De Kremer، ط. فيينة (Vienne)، 1852م.
26 - النّويري (أحمد بن عبد الوهاب) (ت. 732هـ/1332م): المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب- تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، ط. دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
27 - الوزان الحسن المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتّأليف، والتّرجمة، والنّشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1983م.



قائمة المصادر والمراجع باللّغة الأجنبية

1- Abou Ali Ibrahim el- Mérini, traduit par (L.Ch) Féraud, dans Revue africaine, 12ème année,1868 N° 70 et 71.

2- Aissani Djamil: Laurent-Gharles Féraud, Histoire de Bougie, éd. Talantikit, Béjaia, 2013.

3- Despois J.: L'Afrique blanche, T. 1, L'Afrique du Nord, Presses universitaires de France, 1964.

4- De Slane (Le Baron): Description de l'Afrique septentrionale, Alger 1857.

5- Djarmoune Hocine: Le librator Nonius Datus et la construction de l'aqueduc de Saldae (Toudja), dans Bejaia, centre de transmission et de savoir; Ministère de la culture, travaux du CNRPAH, nouvelle série N° 4 Alger 2008.

6- Féraud (L. Charles): Histoire des villes de la province de Constantine dans Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 3ème volume de la deuxième série 1869, 13ème vol. de la collection, Alger- Paris 1869.

7- Gautier E. F. L'Afrique blanche, Paris 1939.

8- Golvin L.: Le Magrib central à l'époque des Zirides, arts et métiers graphiques, Paris.

9-Institut de géographie naturelle: Carte topographique de Bejaïa, dessinée et publiée en 1965, feuille N° 26, échelle 1/500.000.

10- Ibn el-Athir: Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduites par E. Fagnan dans Revue africaine, N° 237 et 240, année 1900.

11- Marçais G.: Les Arabes en Berberie, du 11ème au 15ème siècle, Paris 1913.

12- Zerkechi; Chronique des almohades et des Hafçides, trad. française par E.Fagnan, Constantine 1895.

فهرس الأعلام





















































- أبو ضربة محمد (المستنصر): 227 – 228 – 239 – 347































































فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات









طبع في الجزائر
2015

تاريخ بجاية
في ظل مختلف الأنظمة السياسية
من عهد القرطاجيين
إلى عهد الأتراك العثمانيين




ISBN 978-9947-896-47-9
9 418969 947976

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار
تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015